روايات مصرية للجيب

ملف المستقبل
سرى جدًّا !!

153

المفقودون

د. نبيل فاروق

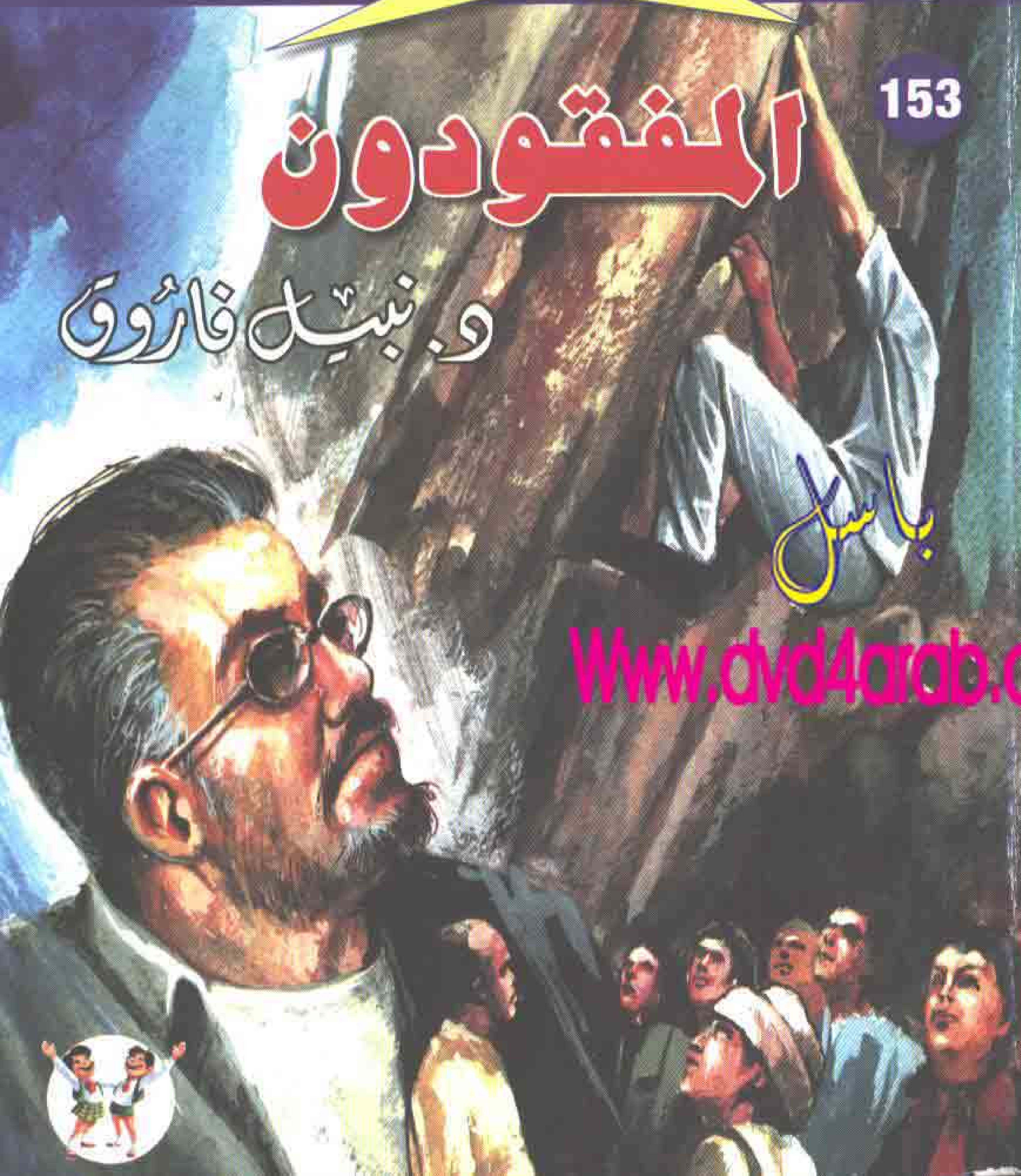

باسل
Www.dvd4arab.com

ملف المستقبل 153 المفقودون

• المؤسسة العربية الحديثة بالقاهرة •

د. نبيل فاروق

ملف المستقبل
سلسلة روايات بوليسية للشباب من الخيال العلمى

153

الثمن فى مصر ٣٠٠
وما يعادله بالدولار الأمريكى فى سائر الدول العربية والعالم

مطابع

المفقودون

كهف غامض ، اختفى داخله أربعة دون أن يتركوا خلفهم أدنى أثر .

وفريق علمى ، ينطلق للبحث عن تفسير ؛ فيضيع واحد بعد الآخر .

ترى أى لغز يختفى ، خلف كل هذا الغموض ، وما سر (المفقودين) ؟ !

اقرأ التفاصيل المثيرة ، وقاتل بعقلك وكيانك ، من أجل الأرض .

العدد القادم
الخطر الجاف

المؤسسة العربية الحديثة
للطبع والنشر والتوزيع بالقاهرة والإسكندرية

ملف المستقبل

فى مكان ما من أرض (مصر) ، فى حقبة ما من حقب المستقبل ، توجد القيادة العليا للمخابرات العلمية المصرية ، يدور العمل فيها فى هدوء تام ، وسرّية مطلقة ، من أجل حماية التقدّم العلمى فى (مصر) ، ومن أجل الحفاظ على الأسرار العلمية ، التى هى المقياس الحقيقى لتقدم الأمم .. ومن أجل هذه الأهداف ، يعمل رجل المخابرات العلمية (نور الدين محمود) ، على رأس فريق نادر ، تم اختياره فى عناية تامة ودقة بالغة ..

فريق من طراز خاص ، يواجه مخاطر حقبة جديدة ، ويتحدّى الغموض العلمى ، والألغاز المستقبلية ..

إنها نظرة أمل لجيل قادم ، ولمحة من عالم الغد ، وصفحة جديدة من الملف الخالد ..

ملف المستقبل .

د. نبيل فاروق

١ ـ الكهف ..

ساد صمت رهيب ، تلك المنطقة الجبلية ، فى جنوب سيناء ، فى ساعات الفجر الأولى ، فى ذلك الصباح ، وراحت الشمس تستيقظ ، وتنهض من خلف قمم الجبال ، وأشعتها الذهبية تتسلّل بين الصخور ، وتوقظ كائنات الصحراء من سُباتها العميق ، و ...

وفجأة ، انطلق هدير قوى ، يشق سكون المنطقة ..

ومن خلف قمة جبلية عالية ، برزت حوّامة كبيرة ، تحمل على جانبها شعار مركز الأبحاث ، التابع للمخابرات العلمية المصرية .

ومع الهدير المباغت ، انتفضت كائنات الصحراء فى توتر ، وأسرعت تحتمى ببعض الصخور والأحجار ، والحوامة تهبط فى واد صخرى ، يتوسط ثلاثة جبال ضخمة ، وتتوقف مروحتها أو تكاد ، فى نفس اللحظة التى وثب فيها الدكتور (أنور شعبان) ، عالم الأثريات الشهير ، وأشار إلى أحد الجبال ، قائلاً فى حماس شديد :

ـ هناك .

تبعه ـ فى رصانة مع حماسة ـ اثنان من مديرى هيئة الآثار ، مع أستاذة جيولوجية ، وتبادل الثلاثة نظرة ، حملت من الشفقة أكثر مما حملته من ضجر وضيق ، قبل أن تقول الدكتورة (نهى) ، أستاذة الجيولوجيا(*) ، فى لهجة حملت شيئًا من التوتر :

ـ ما زلت عاجزة عن تصديق ما أخبرتنا به يا دكتور (أنور) .

قال الدكتور (أنور) فى حزم :

ـ دقائق وستتأكدين من الأمر .. ستتأكدون جميعًا .

نطقها ، وهو يشير إلى نقطة ، على ارتفاع متوسّط نسبيًا ، من أحد الجبال الثلاثة ، قبل أن يندفع ليتسلّق الجبل نفسه ، فى نشاط وحماس جعلا السيِّد (مكرم) يقول فى ضجر :

ـ لم نعد شبابًا ، لمثل هذا النشاط .

هزّت الدكتورة (نهى) رأسها ، قائلة :

(*) الجيولوجيا : علم يبحث فى أصل الأرض ، وتاريخها التركيبى والطبيعى ، وكذلك المواد التى تتكوّن منها ، وجميع التغيرات التى وقعت أثناء تكوينها ، وتطورها ، وتنقسم الجيولوجيا إلى عدة علوم فرعية ، مثل علم الكون ، والحفريات ، والجيومورفولوجيا ، والفيزيوجرافيا وغيرها .

ـ إنه يبدو شديد الثقة ، على الرغم من استحالة ما أشار إليه .

قالتها ، وتنهَّد الثلاثة ، ثم بدءوا يتسلقون الجبل بدورهم ، باستخدام معدات شديدة التطوّر ..

وفى منتصف المسافة تقريبًا ، هتف السيد (ياسر) فى حنق :

ـ كان ينبغى أن يرسلوا فريق عمل .. لا مسئولين مثلنا .

أجابته الدكتورة (نهى) ، فى حزم صارم ، يشفُّ عن طبيعتها :

ـ أنت تعلم أن هذا مستحيل .

هتف الدكتور (مكرم) ، وهو يلهث بشدة :

ـ ولِمَ لا .. أنا واثق من أنهم كانوا سينجزون العمل أفضل منا .

أجابته بنفس اللهجة :

ـ ولكن ما زال هناك احتمال لصحة ما يرويه الدكتور (أنور) .

هز (ياسر) رأسه فى قوة وحدة ، وهو يواصل التسلّق ، قائلاً :

ـ مستحيل !

توقفت الدكتورة (نهى) ؛ لتلتقط أنفاسها ، وتقول :

ـ المسئولون افترضوا صحة ما رواه ، بنسبة خمسة فى المائة فحسب ، ولكن لو صحت هذه النسبة ، فسيعنى هذا أننا أمام واحد من أضخم الكشوف عبر التاريخ المدوّن .

غمغم (مكرم) ، وهو يجفف عرقه :

ـ لو صح هذا ، فسأتساءل عما إذا كان ينتمى حقًّا إلى تاريخنا .

رمقته بنظرة متوترة ، ثم عاودت التسلق ، قائلة :

ـ دقائق قليلة ، وسنرى .

واصل الثلاثة تسلقهم ، فى محاولة للحاق بالدكتور (أنور) ، الذى بلغ الموضع الذى ينشده تقريبًا ، وهو يهتف :

ـ أسرعوا .. المشهد يبدو رائعًا ، فى ساعات الشروق الأولى .

بدا عليهم التعب ، وحملت لهجتهم لمحة عصبية ، و(ياسر) يقول لاهثًا :

ـ إننا فى القرن الحادى والعشرين ، فلماذا اكتفى برواية شفهية ؟! لِمَ لَمْ يوثق روايته تلك بالصور الرقمية ؟!

تردَّدت الدكتورة (نهى) لحظة ، قبل أن تجيب ، فى شىء من الحذر :

ـ لقد فعل .

توقف الرجلان دفعة واحدة ، وأطلّت من عيونهما دهشة عارمة ، قبل أن يهتف (مكرم) فى حدة :

ـ لماذا نتجشم كل هذا العناء إذن .

انعقد حاجباها ، وهى تجيب :

ـ لقد فقد مستنداته .

غمغم (ياسر) ، متشككًا ومتذمرًا :

ـ فقدها ؟! ماذا يعنى هذا العبث ؟!

أجابته فى عصبية :

ـ لهذا قصة طويلة .

وصمتت لحظة ، ثم أضافت فى حدة :

ـ ومعقدة .

كان من الواضح أنها لا تنوى الخوض فى التفاصيل ، مما جعل الرجلين يطبقان شفاههما ، ويواصلان التسلق خلفها ، والدكتور (أنور) يهتف فى حماس شديد ، بعد أن بلغ مبتغاه :

ـ أسرعوا .. المشهد سيبدو لكم مذهلاً .

غمغم (ياسر) فى حنق :

ـ أتعشم هذا .

بلغ الثلاثة تلك البقعة ، التى يقف عندها الدكتور (أنور) ، وقد وصل إلى ذروة حماسه ، مشيرًا إلى كهف يختفى خلف الصخور الضخمة ، وقائلاً :

ـ هذا هو مدخلنا ، إلى أعظم اكتشافات القرن .

وعلى الرغم من التعب الشديد ، والإرهاق الذى يسيطر على كل ذرة فى كيانهم ، اتسعت عيون ثلاثتهم فى دهشة بالغة ، وهم يحدقون فى مدخل الكهف ، وقد ارتفعت نسبة الخمسة فى المائة ، فى أعماقهم ، إلى ثلاثة أضعافها ..

وبقفزة واحدة .

فعلى الرغم من اتساع المدخل ، وضوء الشمس ، الذى يمتد داخله إلى مسافة عميقة ، كان محجوبًا من زوايا الرؤية المباشرة ، بكتل صخرية ضخمة ..

وبكل حماسة ، هتف الدكتور (أنور) :

ـ حتى التصوير الجوى لم يرصده مرة واحدة ، فقد تم حفره ، بحيث لا تمكن رؤيته إلا فى هذه الساعة من الصباح فقط ، وبعدها تخفيه ظلال الصخور المحيطة به عن الأنظار .

ولم يحاول أحدهم التعليق على عبارته هذه المرة .

كان قوله يوحى بأن ذلك الكهف ليس تكوينًا طبيعيًا ، نحتته عوامل التعرية المختلفة ، وإنما هو مصنوع ..

مصنوع بأياد قوية ..

دقيقة ..

وعاقلة ..

وعلى الرغم من هذا ، فلم يعترض أحد ..

هذا لأن مدخل الكهف نفسه ، كان يبعث رهبة عجيبة ، فى قلوب كل من يتطلعون إليه ..

كان أشبه بفكى وحش هائل ، تحدق عيناه الصخريتان فى القادم ، وكأنما تحذره من الاقتراب .

أو حتى مجرد التفكير فى هذا ..

أما الأنياب الصخرية ، التى تبرز من الفكين العلويين ، وتمثِّل جانبى الكهف ، فقد بدت متحفزة لالتهام كل معتد ..

وكل مغامر ..

وحده الدكتور (أنور) بدا وكأنه لا يبالى بهذا ، وهو يلوِّح بيده ، قائلاً بنفس حماسه :

- هذه المرة سنوثِّق كل شىء .. سنلتقط مئات الصور لمدخل الكهف ، وكل ما سترونه بداخله .

قرن قوله هذا بتشغيل آلة التصوير المتحركة الرقمية بالفعل ، فغمغم (مكرم) ، وقد أصابه الاضطراب ، من فكرة دخول ذلك الكهف :

- وكيف .. كيف عثرت على .. على هذا الشىء ؟!

تردَّد قبل نطق الكلمة الأخيرة ، وكأنما عجز عن وصف ما يراه أمامه بمجرَّد كهف ..

ولكن الدكتور (أنور) لم ينتبه إلى اضطرابه ..

ولم ينتبه حتى إلى تلك النظرة المبهورة ، فى عيون الآخرين ..

لقد بدا جزلاً سعيدًا ؛ لأنه على وشك إثبات روايته ، وهو يميل نحو (مكرم) ، قائلاً :

- بالمصادفة البحتة .

نطقها ، وأطلق ضحكة انفعالية قصيرة ، قبل أن يقول فى لهفة واضحة :

- ولكن تقريرى سيصف كل هـذا .. هيا .. أأنتم مستعدون ؟!

تبادل الثلاثة نظرة شديدة التوتر ، قبل أن تغمغم الدكتورة (نهى) فى حذر :

- ليس بهذه السرعة :

كان من الواضح أنها تقاوم انفعالاً جارفًا فى أعماقها ، وهى تلتقط حقيبة ظهرها ، وتفتحها ؛ لتلتقط منها بعض أدواتها ، مستطردة :

- هناك ما ينبغى عمله هنا أوَّلاً .

بدا الدكتور (أنور) متبرمًا ، وهو يتطلَّع إلى ساعته ، وإلى قرص الشمس ، الذى أوشك أن يتجاوز زاوية الرؤية ، فغمغمت هى فى صرامة صنعتها عصبيتها :

- أريد التأكد من أمر ما أولاً .

كشطت قطعة صغيرة من جدار المدخل الصخرى ، وقطعة من الصخور المحيطة به ، وأجرت بعض التفاعلات الكيماوية السريعة ، واستخدمت مجهرًا صغيرًا ، لفحص بعض الحصى ، ثم لجأت إلى الكمبيوتر اليدوى الصغير ، لإدراج معادلاتها ونتائجها ، قبل أن تغمغم ، وحاجباها يرتفعان بكل الدهشة :

- ربَّاه !

ابتسم الدكتور (أنور) فى زهو ، وكأنما تسعده دهشتها ، فى حين ضاعفت كلمتها تلك التوتر ، الذى يتصاعد بالفعل فى عروق الرجلين الآخرين ، والذى عبَّر (ياسر) عنه ، بقوله :

- ماذا وجدت بالضبط ؟!

هزَّت رأسها ، وكأنما تعجز عن تصديق نتائجها ، وهى تقول :

- صخور الكهف ، لا تنتمى إلى الصخور المحيطة بها .

تمتم (مكرم) فى ذهول :

ـ وماذا يعنيه هذا ؟!

ألقى السؤال ، على الرغم من معرفته ـ بحكم عمله ـ لإجابته ، وأجابته الدكتورة (نهى) ، وهى تدرك الحقيقة نفسها :

ـ إنه ليس تكوينًا طبيعيًا بالتأكيد .

تطلَّعت مرة أخرى إلى مدخل الكهف ، قبل أن تضيف :

ـ لقد صنعه كيان ما .

وصمتت لحظة ، ثم أكملت بصوت مرتجف :

ـ أو شىء ما .

سرت ارتجافة فى جسدى الرجلين ، مع كلمتها الأخيرة ، فى حين هتف الدكتور (أنور) ، فى حماس أكثر :

ـ أرأيتم ؟!

ثم حمل آلة التصوير ، وعبر مدخل الكهف مباشرة ، وهو يتابع بنفس الحماس :

ـ هيا .. الوقت يمضى فى سرعة .

تردَّد الثلاثة أمام مدخل الكهف الرهيب ، وتطلَّعوا إلى ذلك المحفور فى صخوره ، التى لا تنتمى إلى صخور المنطقة ، قبل أن يلتقط كل منهم نفسًا عميقًا ، ويتبعون الدكتور (أنور) بأقدام مرتجفة ..

أما عالم الأثريات الشهير ، فقد بدا وكأن حماسه يتضاعف مع كل خطوة يخطوها ، داخل ذلك الكهف الغامض ، وهو يقول :

ـ من الواضح أنها حضارة ، لم تسجلها أية كتب تاريخ أو علوم من قبل .. حضارة لا يعلم العالم عنها شيئًا ، وكأنما فنت عن آخرها ، ولم تمتد منها حضارات أخرى ، تحمل لنا ولو أسطورة عنها .

غمغم (ياسر) :

ـ لا تقل إنها (أطلانطيس) .. لقد سئمت أخبار الكشف عنها ، فى عدة مواضع متباعدة .

ضحك الدكتور (أنور) ، وهو يقول :

- إنها ليست كذلك بالتأكيد .

ثم توقف ، والتفت إلى ثلاثتهم ، مضيفًا :

- إنها حضارة أقرب إلينا .

توقَّفت الدكتورة (نهى) دفعة واحدة ، مع قوله هذا ، وقالت فى عصبية ، تضاعفت مع دخولها الكهف :

- ماذا تعنى ؟!

هزَّ رأسه فى حماس ، وعاود السير فى أعماق الكهف ومنحنياته ، وهو يجيب :

- سترون كل شىء بأنفسكم .. هناك أشياء سوف تثير ذهولكم حتمًا .

سألته الدكتورة (نهى) مرة أخرى ، بعصبية متزايدة :

- إنك لم تجب سؤالى .

كانوا يسيرون فى ممرات معقدة ، داخل ذلك الكهف ، الذى بدا وكأنه يتسع ، كلما توغَّلوا داخله ، وجهاز الرصد ،

الذى يحمله الدكتور (أنور) يسجل مسارهم ، حتى لا يضلوا الطريق ، وسط ما بدا أشبه بالمتاهة ، وهو يقول :

- كانت لديهم أشياء متطوِّرة ، تشبه إلى حد ما ما توصلنا إليه ، فى نهاية القرن العشرين ، ولكنها مغرقة فى القدم ، فى الوقت ذاته .

توقف (مكرم) دفعة واحدة ، وهو يقول فى عصبية :

- الإسرائيليون .

توقف الكل مع كلمته ، وسأله الدكتور (أنور) فى دهشة :

- وما شأنهم بهذا ؟!

وغمغمت الدكتورة (نهى) :

- مجرد ذكر اسمهم يثير توترى .

لوَّح (مكرم) بذراعه ، وهو يقول فى توتر :

ـ لقد احتلوا (سيناء)، فى الفترة من نكسة يونيو ١٩٦٧م، وحتى انتصارنا عليهم، فى أكتوبر ١٩٧٣م، وربما هم من ..

قاطعه الدكتور (أنور) فى حزم، وهو يعاود السير :

ـ مستحيل !!

هتف (ياسر) فى حدة :

ـ ولماذا مستحيل ؟! إنه يبدو أقرب إلى المنطق، من قصة الحضارة القديمة هذه .

هزَّ الدكتور (أنور) رأسه فى حزم، وقال :

ـ عندما ترون ما أتحدث عنه، ستدركون ما أعنيه فورًا .. لقد قلت ؛ إنها تشبه تقنياتنا، فى نهايات القرن العشرين، إلا أنها لا تماثلها، بأى حال من الأحوال، مما يوحى بأنها قد أنتجت بوساطة، عقول متطورة .

ثم توقَّف، والتفت إليهم مرة أخرى، مضيفًا :

ـ ولكن عبر سلسلة مختلفة من التطوّر .

انعقد حاجبا الدكتورة (نهى) فى شدة، وتضاعف توترها ألف مرَّة، وهى تفكرِّ فى الاحتمالات، التى تشير إليها تلك العبارة الأخيرة ..

أما الدكتور (أنور)، فقد توقَّف عندما بدا أشبه بمدخل كهف آخر فرعى، وهو يبتسم، قائلاً بحماس بلغ ذروته :

ـ والآن استعدوا للمفاجأة .

قالها، ودلف بمصباحه المتوهِّج إلى ذلك الكهف الفرعى ..

وبنفس التردُّد، لحق به المسئولون الثلاثة ..

وأضاء مصباحه ذلك الكهف الفرعى ..

واتسعت عيون الثلاثة عن آخرها، فى ذهول بلغ منتهاه ..

أو فاق هذا ..

كثيرًا ..

★ ★ ★

كان المفترض أن تستغرق تلك الرحلة الاستكشافية ثلاث ساعات فحسب، على أكثر تقدير، وفقًا للتقرير الذى قدمه الدكتور (أنور) إلى السلطات الرسمية ..

ولكن طيار الحوّامة انتظر ..

وانتظر ..

وانتظر ..

مرت الساعات الثلاث ..

ثم ساعة رابعة ..

وخامسة ..

وسادسة ..

ولأن أوامر الطيار كانت تحتم العودة قبل غروب الشمس، مهما كانت الأسباب، فقد التقط جهاز الاتصال فائق التردُّد، وضغط زره، قائلاً :

ـ من النسر إلى المستكشفين .. النهار قصير فى هذه المنطقة وأيًّا كانت النتائج، التى توصلتم إليها، لابد لنا من الرحيل، خلال نصف ساعة على الأكثر ..

كان الجهاز الذى يحمله من طراز شديد التطوّر، قادر على اختراق الصخور، مهما بلغت كتلتها وكثافتها، لتصل موجاته إلى أعمق أعماق الجبال ..

وكان المفترض أن يتلقى جوابًا من بعثة الاستكشاف السرية الصغيرة ..

ولكن هذا لم يحدث ..

لذا فقد كرَّر النداء مرة ثانية ..

وثالثة ..

ورابعة ..

وفى المرة الخامسة، راجع كل أزرار الجهاز، وتأكَّد من أنه يعمل بكفاءة، ثم قال، وقد شمله توتر شديد :

ـ ماذا أصابكم ؟! أين أنتم ؟! أين ؟!

ولما لم يتلق جوابًا، كان عليه أن ينتقل فورًا إلى خطة الطوارئ ..

وبينما يعد جهازه ؛ لإرسال إشارة النجدة والاستغاثة ، وهو يدير عينيه فى الجبال المحيطة به ، والتى بدت ، فى تلكِ الساعة ، أشبه بعمالقة من صخر ، تتطلّع إليه فى تحفز ، سطع فجأة ذلك الضوء ..

ضوء أشبه بوميض مصباح تصوير سريع ، استغرق أقل من ثانية واحدة ..

ولكنه أضاء المنطقة كلها ..

أضاءها بلون رهيب ..

مخيف ..

بلون أحمر دموى ..

ثم عاد الظلام يخيم على المنطقة كلها مرة أخرى ، أو كاد ..

واتسعت عينا الطيّار عن آخرهما ، وأسرع يرسل إشارة الاستغاثة ، وكل ذرة فى كيانه تدرك أنه أمام لغز ..

لغز رهيب ..

للغاية .

★ ★ ★

٢ ـ بلا أثر..

« لم نعثر لهم على أدنى أثر .. »

نطق القائد الأعلى للمخابرات العلمية العبارة ، فى توتر ملحوظ ، على الرغم من تماسكه ، وأشار بيده إلى (نور) ، الذى يقف أمامه منتبهًا ، قبل أن يضيف :

ـ المسئولون أرسلوا فرقة كوماندوز متخصصة ، فى البحث عن الرهائن وإنقاذهم ، ولديها خبرة كبيرة ، فى العمل فى المناطق الجبلية ، وأمكنهم بالفعل العثور على ذلك الكهف ، الذى أشار إليه الدكتور (أنور) فى تقريره ، وفتشوه شبرًا شبرًا ، إلا أنهم لم يعثروا على أى من الأربعة .

بدأ عقل (نور) يدرس الموقف ، ويسترجع كل ما سمعه ، فى نفس الوقت الذى تساءل فيه لسانه :

ـ ألم يعثروا على مخرج آخر للكهف ؟!

هزّ القائد الأعلى رأسه نفيًا ، وهو يجيب :

ـ مطلقًا .. لقد تمت الاستعانة بثلاثة من خبراء الكهوف ، مع أجهزة شديدة التطوّر ، فى مرحلة تالية ، ولكنهم لم يعثروا على أية مخارج ، واضحة أو مستترة ، أو حتى آبار عميقة ، يمكن أن يسقطوا فيها .

وصمت لحظة ، قبل أن يضيف :

ـ لم يعثروا على أى شىء .

تساءل (نور) فى اهتمام :

ـ وماذا عن تلك الأجهزة والتقنيات ، التى أشار إليها الأثرى ؟!

هزّ القائد الأعلى رأسه نفيًا فى بطء ، وقال :

ـ لم يكن الكهف يحوى شيئًا .. على الإطلاق .

أضاف (نور) فى حزم :

ـ عندما تم فحصه .

تطلّع إليه القائد الأعلى بنظرة متسائلة ، فتابع بنفس ذلك الحزم الواثق :

ـ ولكننا لا ندرى ماذا كان عليه ذلك الكهف ، قبل أن تختفى البعثة الاستكشافية داخله .

تطلّع إليه القائد الأعلى مرة أخرى فى صمت ، قبل أن يتراجع فى مقعده ، ويسأله فى اهتمام :

ـ من الواضح أنك قد بدأت فى تكوين نظرية بالفعل يا (نور) .

هزّ (نور) رأسه نفيًا ، وقال :

ـ لم يحن الوقت لهذا بعد يا سيّدى ؛ فالمعلومات المتاحة ، حتى هذه اللحظة ، لا تكفى لوضع أية نظرية .

صمت لحظة ، وكأنه انتهى من قوله إلا أنّه أضاف فى سرعة :

ـ ولكنها تكفى لطرح عدة تساؤلات .

شبّك القائد الأعلى أصابع كفيه أمام وجهه ، وهو يقول :

ـ مثل ماذا ؟!

أشار (نور) بسبّابته ، مجيبًا :

ـ ذلك الوميض الأحمر ، الذى رصده طيَّار الحوَّامة ، وسجَّله فى تقريره ، انبعث من مصدر ما داخل ذلك الكهف حتمًا ، وخلو المكان من أية أشياء ، قادرة على إطلاقه ، تجعلنا نتساءل عن مصدره ، ثم إن الدكتور (أنور) عالم أثريات شهير ، ويتمتع بسمعة علمية ممتازة ، ومصداقية لا تتطرق إليها الشبهات ، وعندما يصف ما رآه بأنه ينتمى إلى سلسلة أخرى أو مختلفة من التطوّر ، فهذا يعنى كل حرف منه حتمًا ، ويدفعنا إلى التساؤل عما يمكن أن يكون قد رآه ، وتسبَّب فى اختفاء البعثة الاستكشافية السرية المفقودة .. ثم إنه هناك تساؤل رئيسى ، ألا وهو متى اختفت البعثة بالضبط ، ما دامت لم تستجب لنداء الطيار ، منذ أول اتصال ، وحتى حدوث ذلك الوميض .

هزَّ القائد الأعلى رأسه متفهمًا ، ومشاركًا فى كل ما طرحه (نور) من تساؤلات ، قبل أن يعتدل ، قائلاً فى حزم :

ـ لهذا اتخذ سيادة رئيس الجمهورية قراره ، بأن تتولى وفريقك هذه المهمة ، التى تندرج تحت بند السرية المطلقة أيها المقدم .

ونهض من خلف مكتبه ، واكتسب صوته جزمًا أكثر ، وهو يضيف :

ـ أنتم الآن أملنا ، بعد الله ـ سبحانه وتعالى ـ فى حل هذا اللغز الجديد .

وانعقد حاجبا (نور) أكثر وأكثر ..

فمنذ اللحظة ، تبدأ واحدة من أصعب المهام فى حياته ..

مهمة البحث عن أعضاء فريق الاستكشاف السرى .. المفقودين ..

★ ★ ★

بمنتهى الدهشة ، راح أطباء المستشفى العسكرى يطالعون نتائج الفحوص الطبية الأخيرة ، التى أجريت لأفراد فريق (نور) ، قبل أن يهتف أحدهم ، فى ذهول بدا واضحًا ، فى كل حرف من كلماته :

ـ مستحيل ! هذا يبدو أشبه بالمعجزة .

ابتسم الدكتور (محمد حجازى) ، كبير الأطباء الشرعيين ، وهو يقول فى رصانة بسيطة :

ـ لا معجزات فى العلم .

وضع الطبيب الفحوص أمامه ، للمرة الخامسة ، وهو يقول :

ـ ألم تر كيف شفيت كل الإصابات ، والتأمت كل الجروح ، دون أن تترك خلفها أية آثار أو مضاعفات ؟! هل رأيت شيئًا شبيهًا من قبل ؟!

هزّ الدكتور (حجازى) كتفيه ، وهو يقول :

ـ الجنود قبل الحرب العالمية الثانية(*) ، كانوا يلقون حتفهم فى ميدان المعركة ، بسبب تلوث إصاباتهم ، ثم لم يعد هذا يحدث ، بعد كشف (البنسلين)(**) .

(*) الحرب العالمية الثانية :(١٩٣٩ ـ ١٩٤٥) ، بدأتها (ألمانيا) النازية ، وانتهت بإلقاء قنبلتى (هيروشيما) و (ناجازاكى) على اليابان .

(**) البنسلين :عامل قوى ، من عوامل العلاج بالكيماويات ، ويتم استخراجه من مزارع العفن الأخضر (بنسيليوم نوتاتم) ، كشفه العالم (آلكسندر فليمنج) عام ١٩٢٨ م ، ولم يتم إنتاجه على نطاق واسع ، حتى الحرب العالمية الثانية .

غمغم الطبيب فى حذر :

ـ أتعنى أن ...

لم يتم تساؤله ، إلا أن الدكتور (حجازى) فهم ما يعنيه ، وأجاب فى هدوء :

ـ نعم .. لا ريب فى أن ذلك الفريق الطبى ، الذى جاء من كوكب (البديل) ، بعد استدعاء (سويز) ، يمتلك تقنيات مذهلة .. خاصة وأنهم يسبقوننا فى السلم الحضارى بآلاف السنين(*) .

حدّق الطبيب فيه بدهشة عاجزة عن النطق ، فى حين هزّ آخر رأسه فى عصبية ، قائلاً :

ـ هذا لا يشعرنى بالارتياح ، لو أنك تتصوّر هذا .

وافقه ثالث ، وهو يقول :

ـ أظننى أشاركك قلقك يا صديقى ؛ فلقد أشرفوا على علاج الفريق ، دون أن يشرحوا لنا كيف فعلوا هذا .. إنهم لم يهتموا حتى بأن نعرف .

غمغم الطبيب الأول :

ـ أو أنهم تعمدوا هذا .

(*) راجع قصة (الفيروس) .. المغامرة رقم (١٥٢) .

نقل الدكتور (حجازى) بصره بين المتحدثين ، قبل أن يتراجع فى مقعده ، قائلاً :

ـ ربما يدركون صعوبة فهمنا لتقنياتهم .

قال الطبيب الثانى فى حدة :

ـ إننا محترفون .

هزَّ الدكتور (حجازى) كتفيه ، قائلاً :

ـ هذا لن يصنع فارقًا .

تطلَّعوا إليه بنظرة غاضبة ، فتابع موضحًا :

ـ العلم ليس محطات منفصلة ، وإنما هو سلسلة متصلة من الكشوف والابتكارات والتطويرات والتحسينات ، وخيوطه كلها تتداخل ، على نحو شديد التعقيد ، بحيث لا يمكنك أن تنتقل من الدراجة إلى مكوك الفضاء ، دون المرور باختراع المحركات النفاثة ، والمواد المقاومة للحرارة ، وأجهزة الكمبيوتر وغيرها ، والفارق بيننا وبين بدلائنا ، يشبه الفارق بين الدراجة ومكوك الفضاء ، ونجاحهم فى عبور آلاف السنوات الضوئية بقفزة واحدة ، يجعل هذا واضحًا ، فكيف تتصوَّر

أن يشرحوا لك كيفية قيادة المكوك ، وأنت تجهل كل ما تم ، حتى توصلوا إليه ؟!

كان جوابه مقنعًا للغاية ، حتى إنهم تبادلوا نظرة صامتة ، قبل أن يغمغم أحدهم ، دون أن يفقد عصبيته :

ـ ربما كنت على حق .

ثم شدَّ قامته ، وأضاف ، محاولاً استعادة حزمه :

ـ والآن ، دعونا نتجاوز هذه المناقشة ، ونؤجلها إلى ما بعد لقائنا مع أفراد الفريق .. أريد أن أتأكَّد من تأثير هذا الشفاء السريع ، على مقاييسهم النفسية .

ابتسم الدكتور (حجازى) ، وهو ينهض مع فريق الأطباء ؛ للذهاب إلى قسم الطوارئ ، الذى يضم فريق (نور) ، وغمغم :

ـ اطمئن .. إنهم أقوياء .

رمقه رئيس الفريق الطبى بنظرة مستنكرة ، وهو يقول فى صرامة ، أراد بها تعويض توتره السابق :

ـ إنهم مجرد بشر .

لم يحاول الدكتور (حجازى) التعقيب على عبارته ، وهو يسير مع الفريق ، عبر ممرات المستشفى ، حتى بلغوا ذلك القسم ، حيث أشار رئيس الفريق إلى رجل الأمن ، الذى يقف أمامه ، قائلاً :

ـ كيف حال من بالداخل ؟!

شد الحارس قامته ، وهو يجيب فى حزم عسكرى .

ـ لا يوجد أحد بالداخل يا سيِّدى .

انعقد حاجبا الدكتور (حجازى) فى توتر ، فى حين هتف رئيس الأطباء ، فى دهشة مستنكرة :

ـ أى قول أحمق هذا ؟! أين يمكنهم الذهاب ؟!

أجابه الحارس ، دون أية انفعالات :

ـ لست أدرى أين ذهبوا يا سيِّدى ، ولكن المقدَّم (نور) كان هنا ، واصطحبهم جميعًا معه ، وكانوا جميعًا فى حالة توتر ملحوظة .

حدَّق فيه رئيس الأطباء ، قائلاً فى دهشة :

ـ المقدَّم (نور) ؟! ماذا يريد منهم ؟!

هزَّ الحارس رأسه ، بنفس الوجه العسكرى الجامد ، وهو يقول :

ـ ليس من حقى أن ألقى مثل هذا السؤال ، على ضابط فى جهاز المخابرات العلمية يا سيِّدى .

احتقن وجه رئيس الأطباءِ ، وهو يقول فى حدة :

ـ يا للعبث ! يا للعبث !

أما الدكتور (حجازى) ، فقد ازداد انعقاد حاجبيه ، وهو يتطلَّع إلى الحارس ، وعشرات التساؤلات تتفجَّر ، فى أعمق أعماق عقله العلمى ..

وفى هذه المرة لم يبتسم ..

لم يبتسم أبدًا ..

★ ★ ★

فى حرفية عالية ، هبطت حوَّامة المخابرات العلمية ، فى وسط ذلك الوادى الصخرى ، المحاط بالجبال الثلاثة ، فى قلب (سيناء) .

ولثوان ، واصلت مروحتها دورانها ، قبل أن تتوقف تمامًا ، و(نور) يقول :

ـ كان من المفترض أن نأتى فى الصباح الباكر ، وفقًا لتقرير الدكتور (أنور) الأوّلى ، إلاّ أننى فضلت الوصول مع مغيب الشمس ، حتى لا نفقد لحظة واحدة من ضوء النهار .

أدارت (سلوى) عينيها فيما حولها ، وهى تغمغم فى توتر :

ـ الواقع أن فكرة قضاء الليل هنا ، مع ذلك اللغز الغامض ، تجعلنى لا أشعر بالارتياح يا (نور) .

قالت (نشوى) فى سرعة :

ـ هذا ينطبق علىَّ أيضًا .

انعقد حاجبا (نور) ، دون أن يجيب ، فى حين شدّ (أكرم) قامته ، وهو يَقول فى صرامة ، أراد أن يخفى بها توتره :

ـ سأتولى نوبة الحراسة الأولى .

ثم التفت إلى (رمزى) ، متسائلاً :

ـ ما رأيك فى أن تتولى النوبة الثانية ؟

كان (رمزى) يتطلّع إلى (نور) فى اهتمام ، حتى بدا وكأنه لم يسمع حرفًا واحدًا ، مما نطق به (أكرم) ، الذى قال ، فى شىء من الحدة :

ـ (رمزى) .

التفت إليه (رمزى) ، كمن يفيق من حلم يقظة ، وهو يقول :

ـ لا بأس يا (أكرم) .. لا بأس .

مطّ (أكرم) شفتيه ، وقال :

ـ إذن فقد كنت تسمعنى .

مرة أخرى لم يجب (رمزى) ، وعاد يتطلّع إلى (نور) فى اهتمام ، جعل هذا الأخير يقول فى صرامة :

ـ هيا .. سنعد خيام النوم .

تساءل قائد الحوّامة ، فى قلق ملحوظ :

ـ هل سأبقى ؟!

التفت إليه (نور) ، قائلاً :

- كلا .. ارحل أنت ، وسننتظرك هنا ، فى نفس المكان ، مع غروب شمس الغد .

تمتم الطيَّار :

- لا بأس .

قبل حتى أن ينطقها ، كان يجذب عصا القيادة ، ويدير محركات الحوَّامة ، وكأنما يرغب فى مغادرة هذا المكان ، الذى حشد فى أعماقه مخاوف عديدة ، لم يدر لها سببًا .

وفى صمت ، تابع أفراد الفريق ابتعاد الحوَّامة وسط الظلام ، ثم غمغمت (نشوى) :

- ليلة أخرى مع الخطر .

تنهَّدت (سلوى) ، قائلة :

- أظننا قد اعتدنا هذا .

انهمك الكل بعدها فى نصب الخيام وتنظيمها ، وتركيب الأجهزة الخاصة بـ (سلوى) و (نشوى) ، ثم سحب (أكرم) مسدسه ، ولوَّح به ، قائلاً :

- تمنوا ألا تسمعوا رصاصاته ، فى قلب الليل .

مطت (نشوى) شفتيها ، مغمغمة :

- أظننى لهذا أفضل مسدسات الليزر .

هزَّ (أكرم) كتفيه ، قائلاً :

- وأية متعة فى استخدامها .

قالها ، واتجه نحو صخرة كبيرة ، فى طرف الوادى ، وجلس مستندًا بظهره إليها ، وهو يتطلَّع حوله فى حذر ، فالتقط (نور) منظارًا من مناظير الرؤية الليلية ، وألقاه إليه ، قائلاً :

- استخدم هذا .

التقط (أكرم) المنظار ، ومطَّ شفتيه ، وهو يغمغم ، فى لهجة تحمل عدم الاقتناع :

- لو أنك تُصِر .

وضع المنظار على عينيه ، ورأى المنطقة كلها تضاء بلون أخضر أمام بصره ، فمطَّ شفتيه مرة أخرى ، مغمغمًا فى حنق :

- لست أدرى ماذا يروق لهم ، فى تلك التقنيات المزعجة .

فى نفس اللحظة ، التى نطق فيها عبارته ، كان (رمزى) يقترب من (نور) ، الذى يجلس صامتًا ، ويهمس فى أذنه متوترًا :

ـ ما السبب الحقيقى يا (نور) ؟!

لم يلتفت إليه (نور) ، وهو يقول فى صرامة :

ـ سبب ماذا ؟!

سأله (رمزى) بنفس التوتر :

ـ سبب قدومنا إلى هنا ليلاً .

صمت (نور) لحظة ، ثم أشاح بوجهه ، قائلاً :

ـ ألم تسمعنى جيدًا ؟! قلت : إننا هنا لكى نبدأ مع أول ضوء ..

قاطعه (رمزى) فى هدوء .

ـ يسوءنى كثيرًا أن تهمل خبراتى يا (نور) .

انعقد حاجبا (نور) ، دون أن يجيب ، فتابع (رمزى) ، وقد حملت كلماته لمحة عتاب واضحة :

ـ إننى خبير نفسى محنك يا صديقى ، ومنذ اللحظة الأولى ، أدركت أنك تخفى أمرًا ما .. ألا تجدنى أهلاً للثقة ، إلى الحد الذى يكفى لإخبارى عما تنشده وتسعى إليه ؟!

صمت (نور) بضع لحظات أخرى ، ثم غمغم :

ـ لماذا أول ضوء ؟!

تمتم (رمزى) فى حيرة :

ـ لماذا ماذا ؟!

استدار إليه (نور) فى بطء ، وهو يقول :

ـ لماذا لابد من دخول الكهف ، مع أول ضوء فى الصباح ؟! لماذا ذكر الدكتور (أنور) هذا ، وأكده فى موضعين من تقريره الأولى ؟!

ثم نهض فجأة ، وهو يتابع ، فى شىء من التوتر :

ـ الدكتور (أنور) عالم شهير ، وميزانية أبحاثه ضخمة ، وكان يمكنه استخدام أحدث أدوات الرصد ، والرؤية الليلية ،

ومعدات يمكنها أن تحيل ظـلام الليل إلى نـهار ، فلماذا أكَّـد ضرورة البدء مع مطلع الشمس ؟!

وانعقد حاجباه ، فى تفكير عميق ، وهو يكرِّر ، فيمـا بـدا أشبه بالغضب ، منه بالحيرة :

ـ لماذا ؟!

شعر (رمزى) بمزيج من الدهشة والحيرة ، وهو يتطلَّـع إلـى ملامـح (نـور) ، محـاولاً أن يستشـف مـا يـدور فـى أعمـاقه ، فى حين اقتربت منهمـا (نشـوى) قـائلـة ، وهى تحاول أن تبتسم :

ـ تُرى هل فكَّر أحدكم فيما سنتناوله هنا ، لو ..

بترت عبارتها بغتة ، وتراجعت بحركة حادة ، وعيناها تطلقـان لمحة رعب واضحة ، وتتطلعان إلى نقطة ما خلف ظهريهما ..

نفس النقطـة ، التـى يجلس عندهـا (أكرم) ، فـى نوبـة حراسته .

وبحركة غريزية سريعة ، التفت (نور) و(رمزى) إلى حيث تنظر ..

وقفزت من عيونهما نظرة أخرى عجيبة ..

فما رأياه أمامهما كان مدهشًا ..

ومخيفًا .

للغاية .

★ ★ ★

٣ ـ الجبال ..

نوبة الحراسة أمر شديد الملل ، بالنسبة لرجل مفعم بالحيوية والنشاط ، مثل (أكرم) ..

لقد جلس فى مكانه صامتًا ، يراقب تلك الجبال الشاهقة ، التى بدت ، عبر منظار الرؤية الليلية ، غارقة فى ضوء أخضر باهت ..

وحاول أن يفكِّر فى شىء ..

أى شىء ..

استرجع ذكريات لقائه مع زوجته (مشيرة) ..

وقصة حبهما ..

وخلافاتهما ..

وصراعاتهما ..

ومع تلك الذكريات ، سبح عقله بعيدًا ..

بعيدًا جدًّا ..

وتثاقلت عيناه ..

تثاقلتا ..

وتثاقلتا ..

وتثاقلتا ..

ولكن لا .

لا ينبغى له أن ينام ..

لا ينبغى له هذا أبدًا ..

إنه المسئول عن نوبة الحراسة ، ولابد وأن يؤدى دوره ، على خير ما ينبغى ..

لابد وأن يستيقظ ..

ويراقب ..

ويحمى رفاقه ..

مهما كان الثمن ..

وبكل إرادته ، قاوم تثاقل عينيه ، ونهض واقفًا ، وهو يفتحهما عن آخرهما ، ويهز رأسه فى قوة ، لينفض عنه الخمول والتثاقل ، و ...

وعندئذ رآه ..

تكوين عجيب ، شبه بشرى ، يقترب منه فى هدوء ، وكأنما يثق فى أنه لا يراه ..

واتسعت عينا (أكرم) أكثر ..

وأكثر ..

وأكثر ..

وحاول أن يقنع نفسه بأن ما يراه مجرد حلم ..

ولكن ذلك الشىء راح يتقدم .

ويتقدم ..

وهنا بدا واضحًا ..

ومؤكدًا ..

ورهيبًا ..

وفى سرعة ، ألقى (أكرم) كل توتراته خلف ظهره ، ورفع مسدسه ، و ...

وانقض عليه ذلك الشىء ..

بل وثب نحوه ..

واخترق جسده ..

جسده الذى انتفض فى عنف ، وكأنما اخترقته أقسى ثلوج القطب ، و ...

« (أكرم) .. يا إلهى ! ماذا بك ؟! » .

فتح عينيه ، وهو ملقى أرضًا ، وحدّق فى وجوه رفاقه الأربعة ، فى شىء من الذهول ، قبل أن يرفع مسدسه مرة أخرى ، هاتفًا :

ـ احترسوا .

أمسك (نور) معصمه فى قوة ، فى حين قال (رمزى) ، محاولاً تهدئته :

ـ رويدك يا صديقى .. إنه نحن .

حدَّق (أكرم) فى وجهه ، بنظرة حملت مزيجًا من الدهشة ، والحيرة ، والتوتر والغضب ، قبل أن ينتفض جسده مرة أخرى ، وينهض قائلاً :

ـ أين ذهب ؟!

تلفتت (سلوى) و(نشوى) حولهما فى توتر ، وانعقد حاجبا (نور) فى شدة ، فى حين سأله (رمزى) فى اهتمام :

ـ ما الذى ذهب ؟!

لوَّح (أكرم) بذراعيه ، وهو يحاول أن يبحث عن وصف يناسب ما رآه ، قبل أن يقول فى حدة :

ـ ذلك الشىء .

ازداد انعقاد حاجبى (نور) ، وظهر خليط من الدهشة والخوف ، على وجوه (رمزى) و(سلوى) و(نشوى) ، فتابع (أكرم) فى عصبية شديدة :

ـ لقد هاجمنى بغتة ، ووثب عبرى ، و ...

توقف فجأة ، عندما انتبه إلى فجوة كبيرة فى ذاكرته ..

لقد شعر بذلك الشىء يخترق جسده ..

ثم استعاد وعيه أرضًا ..

فماذا حدث ؟!

وكيف سقط ؟!

كيف ؟!

كيف ؟!

أطلَّت تلك الحيرة من عينيه ، اللتين أدارهما فى وجوه الجميع ، قبل أن يهز رأسه فى قوة ، قائلاً :

ـ إنه كابوس .. لقد غلبنى النوم .. إنه كابوس حتمًا .

تبادل الكل نظـرة متوترة ، قبل أن يسأله (نور) فـى تماسك :

ـ هل يمكنك أن ترويه لنا ؟!

انفرجت شفتا (أكرم) ، وتحرّكتا فى صمت ، وكأنما ترفض الكلمات تجاوز شفتيه ، ثم لـم يلبث أن قـال فـى عصبية :

ـ كلاً .. إنه أمر سخيف .. أحب أن أحتفظ به لنفسى ..

عادوا يتبادلون نظرة متوترة أخرى ، قبل أن تقول (نشوى) فى لهجة شديدة التوتر :

ـ لم يكن كابوسًا .

حملت عينا (أكرم) هلعًا عجيبًا ، وهو يلتفت إليها بحركة حادة ، فقال (نور) :

ـ الواقـع يا (أكـرم) أننـا فوجئنـا بك تهب واقفًا ، وتسحب مسدسك ، كما لو أنك تواجه هجومًا من عدو خفى .

اتسعت عينا (أكرم) ، فى هلع أكثر ، وهو يحدّق فـى وجه (نور) ، ثم لم يلبث أن هزّ رأسه فى قوة ، قائلاً :

ـ مستحيل ! لا يمكن أن يكون هذا حقيقة .

مال (نور) نحوه ، وقال فى حزم :

ـ أخبرنا ما رأيت ، وسنقرّر بأنفسنا .

ومخلصًا ، حاول (أكرم) أن يخبره ..

حاول ..

وحاول ..

وحاول ..

ولكن شيئًا ما فى أعماقه ، كان يمنعه من هذا ..

وبشدة ..

شىء سيطر على لسانه ، ودفعه إلى أن يقول فـى خشونة :

ـ إنه مجرد كابوس .

لاحظ نظرة الشك فى عيونهم ، فتابع فى عصبية :

ـ ما فعلته ليس دليلاً على العكس ، فالمرء قد يتحرَّك أثناء نومه ، ويتفاعل مع حلمه أو كابوسه ، بحركات لا إرادية .

والتفت فى حدة إلى (رمزى) ، مضيفًا :

ـ أليس كذلك ؟!

تردَّد (رمزى) لحظة ، قبل أن يقول فى حذر :

ـ هذا ممكن ، من الناحية العلمية ، و ...

قاطعه (أكرم) فى حدة :

ـ أرأيتم .

ثم سحب مسدسه فى صرامة عصبية ، وقال :

ـ والآن ، عودا إلى خيامكم ، فما زلت أصرّ على أن أتولى نوبة الحراسة الأولى .

قال (رمزى) فى قلق :

ـ أعتقد أنه من الأفضل أن ..

عاد (أكرم) يقاطعه فى صرامة :

ـ لن أناقش هذا .

قالها ، وعاد إلى موضعه ، عند تلك الصخرة الكبيرة ، وهو يمسك مسدسه فى غضب صارم ، فهمَّت (سلوى) بقول شىء ما ، إلا أن (نور) استوقفها ، قائلاً :

ـ دعيه وشأنه .

ثم مال على أذنها ، هامسًا :

ـ ولكن أعدى أجهزتك للعمل الليلة .

سألته مبهوتة :

ـ هل تعتقد ..

قاطعها فى حزم :

ـ افعلى فحسب .

تطلَّعت إليه (سلوى) لحظة ، وكأنما تحاول أن تقرأ ما يدور فى أعماقه ، ثم غمغمت :

ـ فليكن .

اتجهت لتعدّ أجهزتها ، فاقتربت (نشوى) من أبيها ، وغمغمت :

ـ لم يكن كابوسًا بالتأكيد .

تطلَّع (نور) إلى حيث يجلس (أكرم) ، قبل أن يقول :

ـ أعلم هذا .. فصحيح أن الإنسان قد يأتى بحركات لا إرادية ، أثناء أحلامه ، وأن بعضهم يسير أثناء نومه[*] ، إلا أن هذا لا يمكن أن يحدث ، ضد قوانين الطبيعة نفسها .

ثم ألقى نظرة أخرى على (أكرم) ، وخفض صوته ، مستطردًا :

ـ لقد رأينا جميعًا كيف اندفع جسده إلى الخلف فى عنف ، كما لو أنه قد تلقَّى لطمة قوية من شخص ما .

وصمت لحظة ، ثم أضاف فى حزم :

ـ أو شىء ما .

ولم تعلِّق (نشوى) بحرف واحد ..

(★) حقيقة .

ولكن جسدها كله ارتجف ..

فى عنف ..

★ ★ ★

فى أعماق ذلك الكهف الغامض ، بدا كل شىء جامدًا ، ساكنًا صامتًا ، كما يفترض أن يكون عليه تكوين صخرى عادى ..

وكان يغرق فى ظلام ..

ظلام عميق ..

رهيب ..

مخيف ..

ثم راح صوت ضعيف يتصاعد فى بطء ..

صوت أشبه بخرير مياه ..

وعلى أرضية الكهف ، راحت تلك المياه تزحف ..

وتزحف ..

وتزحف ..

حتى مدخل الكهف ..

وتمامًا عند تلك الفتحة الشبيهة بفكى وحش مفترس، توقف زحفها دفعة واحدة ..

كان ذلك التوقف متعارضًا مع قوانين الفيزياء، والجاذبية الأرضية، إلا أنه حدث ..

ثم استكانت تلك المياه تمامًا ..

وعبرها، سرت موجة خفيفة ..

موجة راحت تتصاعد ..

وتتصاعد ..

وتتصاعد ..

ثم فجأة، توقفت ..

وتوقف اهتزاز سطح الماء فجأة، على نحو مناقض لكل قوانين الطبيعة، بلا استثناء .

وعلى الرغم من أن مدخل الكهف ينحدر إلى أسفل، على نحو ما، إلا أن المياه راحت تنحسر إلى الداخل .

وتنحسر ..

وتنحسر ..

ومرة أخرى، تصاعد ذلك الصوت الشبيه بالخرير ..

ثم توقف ..

وعاد الكهف يغرق فى ظلام ..

وصمت ..

وسكون ..

و ....

« هل سجلت هذا ؟! »

ألقت (نشوى) السؤال فى انفعال، وهى تحدّق فى شاشة جهاز أمها، فأومأت (سلوى) برأسها

إيجـابًا ، وغمـغمـت ، والحيـرة مـا زالـت تمـلأ نفسـها :

ـ نعم .. ولكن ..

سألها (نور) فى اهتمام ، وهو يخفض صوته ، حتى لا يسمعه أحد ، خارج خيمة الأبحاث :

ـ ولكن ماذا ؟!

هزّت رأسها ، وهى تطالع شاشة جهازها ، قائلة :

ـ ولكننى أجهل ما يعنيه .

سألها (نور) :

ـ وماذا لو استشرنا الكمبيوتر ؟!

غمغمت (نشوى) :

ـ لقد فعلت .

أدار (نـور) عينيـه إليهـا فـى سـرعة ، و(رمـزى) يسألها همسًا :

ـ وبم أشار .

تردّدت (نشوى) لحظة ، ثم اندفعت تجيب :

ـ إنه خرير مياه .

قالت (سلوى) ، فى سرعة وانفعال :

ـ بالضبط .

تراجع (رمزى) فى دهشـة ، وانعقد حاجبا (نـور) فى صرامة ، وهو يسأل (سلوى) :

ـ ولماذا لم تقولى هذا ؟!

هزّت كتفيهـا فـى توتـر ، وأشـارت إلـى جهازهـا ، قائلة :

ـ لأن هذا ليس مسارًا طبيعيًّا للمياه .

سألها (نور) بمنتهى الاهتمام :

ـ ولماذا ؟!

أجابته (نشوى) هذه المرة :

ـ عندما تنسكب المياه، من مصدر ما، فهى تسير وفقًا لقاعدتين أساسيتين .. المسارات المتاحة، والجاذبية الأرضية .

اندفعت (سلوى) تقول :

ـ وهذا ما فعلته تلك المياه داخل الكهف، فى مرحلتها الأولى .

تساءل (رمزى) فى دهشة :

ـ أيمكن تحديد هذا، عبر الالتقاط الصوتى وحده ؟!

أجابته (سلوى) فى حزم :

ـ بالطبع(*) .

أما (نور) فسألها فى شىء من القلق :

ـ وماذا عما حدث بعد هذا ؟!

أجابته (سلوى)، فى توتر ملحوظ .

ـ لقد توقَّفت عند مدخل الكهف .

(*) حقيقة .

ازداد انعقاد حاجبى (نور)، و(رمزى) يتساءل فى دهشة :

ـ وكيف هذا ؟!

هزَّت (نشوى) رأسها، وأصابعها تضغط أزرار الكمبيوتر، قائلة :

ـ المفترض أنه لا يوجد ما يحول بينها وبين استمرار السريان، خارج حدود الكهف، إلا أنها توقفت هناك، وكأنما ..

بترت عبارتها بغتة، فتابع (نور)، وهو يفكِّر بمنتهى العمق :

ـ وكأنما تعمدت هذا .

هتفت (سلوى) فى انفعال :

ـ بالضبط .

جـاء دور (رمـزى) ، ليعقـد حاجبيـه فـى شـدة ، وهو يدير عينيه ، فـى وجوه الثلاثـة ، قبل أن تقـول (سـلوى) :

ـ وهذا أقل إثارة للدهشـة ، ممـا حدث فـى المرحلـة الثالثة .

قال (نور) ، وكأنه يحدّث نفسه :

ـ لقد انحسرت إلى الداخل .

تفجّـرت دهشـة عارمـة ، فـى وجهـى (سـلوى) و(نشوى) ، وهتفتَ الثانية مبهورة :

ـ كيف عَرفت هذا يا أبى ؟!

بدا شاردًا ، وهو يجيب :

ـ توقعته .. على نحو ما .

قالت (سلوى) فى انفعال شديد :

ـ هذا مخالف تمامًا لكل قوانين الجاذبية ، ومن المستحيل أن ..

بترت عبارتها بغتة ، عندما فتح (أكرم) بـاب خيمـة الأبحـاث بحـركـة حـادة مبـاغتـة ، وهـو يقـول فـى صرامة :

ـ ماذا تفعلون ؟!

انتفض جسد (نشوى) مع المفاجأة ، وحدّقت فى وجهه بشىء من الذعر ، وتراجع (رمزى) بحركـة حادة ، وشهقت (سلوى) فى حيـن التفت إليه (نـور) فى هدوء عجيب ، متسائلاً :

ـ هل انتهت نوبة حراستك ؟!

أجابه (أكرم) فى حدة :

ـ أعتقد هـذا ، فمـا هى إلا ساعة ونصف السـاعة ، وينبلج الفجر .

ثم أدار عينيـه فيهـم فى صرامة ، امتزجت بغضبـه ، قبل أن يتابع :

ـ ولكن من الواضح أنه هناك ما شغلكم عن ملاحظة هـذا .

تجاهل (نور) تلك الملاحظة الأخيرة ، وقال ، وهو يتحسّس مسدسه الليزرى :

ـ فليكن .. سأتولى نوبة الحراسة التالية .

قالها ، وهو يتجاوز (أكرم) ؛ ليغادر خيمة الأبحاث ، إلا أن أصابع هذا الأخير أمسكت ذراعه فى قوة ، وهو يقول فى خشونة :

ـ لم أسمع جواب سؤالى ..

وانعقد حاجبا (نور) بمنتهى الشدة ..

صحيح أن أصابع (أكرم) كانت تمسك ذراعه بمنتهى القوة ..

ولكن لم يكن هذا ما أثار توتره ..

وإنما هى درجة حرارتها ..

فقد كانت أصابع (أكرم) باردة كالثلج ..

أو أكثر برودة ..

بكثير .

* * *

باسل
Www.dvd4arab.com

٤ـ ميــــاه..

لم يغمض لـ (نور) جفن ، طوال تلك الليلة ..

صحيح أنه قد تجاوز برودة أصابع (أكرم) ، التى لا يمكن أن تميز أى جسد حى ، إلا أن الأثر الذى تركته على ذراعه ، لم يكن من الممكن تجاوزه ..

على الإطلاق ..

لقد تركت أصابعه علامات زرقاء واضحة ، كما لو أنها قد اعتصرت ذراع (نور) اعتصارًا ..

ولكن (أكرم) نفسه لم يشعر بهذا ..

أو هذا ما تصوره (نور) ..

لقد فعلها ، ثم ذهب إلى خيمته ، ونام بمنتهى العمق ، حتى إن (نور) ظل يسمع أنفاسه المنتظمة ، طوال تلك الساعة ونصف الساعة ، التى مرّت حتى الفجر ..

كانت هناك ألف فكرة ، وفكرة ، تلتهب فى عقل (نور) ..

ومخه ..

وكيانه كله ..

ألف فكرة ، تبدو أشبه بألف ألف كابوس ..

وبينما يتطلع إلى مدخل الكهف ، راح يحاول ترتيب أفكاره ، وفقًا لما لديه من معلومات قليلة ..

قليلة للغاية ..

ومخيفة للغاية ..

فمنذ اللحظة الأولى ، التى قرأ فيها تقرير الدكتور (أنور) ، أدرك أن ذلك الكهف يحوى شيئًا ما ..

شيئًا يتجاوز حدود الإدراك الطبيعى ..

شيئًا غامضًا ..

خارقًا ..

ومخيف ..

ولكنه ما زال يجهل ما يمكن أن يكون ..

عقله البشرى ، على الرغم من كل ما واجهه مع فريقه ، ما زال عاجزًا عن تصور ماهية ذلك الشىء ..

أو تكوين تصور منطقى له ..

لقد شاهد ذلك الفيلم ، الذى صوره فريق البحث العسكرى ..

شاهده مرة ..

وثانية ..

وثالثة ..

ولكنه لم يجد به لمحة واحدة ، توحى بأن ذلك الكهف يمكن أن يختلف ، عن أى كهف آخر ..

مجرد كهف ..

وتكوينات صخرية ..

وأحجار ..

و ...

ومياه ..

لم يكن الفيلم يحوى قطرة مياه واحدة ، داخل ذلك الكهف ..

فما الذى سجلته أجهزة (سلوى) إذن ؟!

تداخل السؤال فى رأسه ، مع عدد من الأسئلة الأخرى ، وراح عقله يعمل ..

ويعمل ..

ويعمل ..

« الفجر يا (نور) .. »

انتزعه صوت (أكرم) فجأة من أفكاره ، وفوجئ به على قيد خطوة واحدة منه ، فهب واقفًا بحركة حادة ، وقال فى توتر :

ـ (أكرم) ؟! كيف ؟!

لم يتم تساؤله ، وهو يكتمه فى أعماقه ، قبل أن ينطق به لسانه ، فابتسم (أكرم) ، وهو يقول :

ـ هل أفزعتك ؟!

صمت (نور) لحظة وهو يتطلع إليه ، قبل أن يقول فى حذر :

ـ الواقع أننى لم أشعر بقدومك .

أطلق (أكرم) ضحكة مرحة قصيرة ، ومال نحوه ، قائلاً :

ـ أمر طبيعى يا صديقى ؛ فأنا أتحرك بخفة فهد صيد متمرّس .

قالها ، وأطلق ضحكة مرحة قصيرة ، وهو يضيف :

ـ هيا .. سأوقظ الرفاق ، لنبدأ على الفور .

تبعه (نور) ببصره فى حيرة ، وهو يتجه إلى الخيـام ، ويوقظ الكل بعباراته المرحة المعتادة ..

كان يبدو وكأنه قد استعاد هويتـه ، وطبيعتـه الأوَّليـة بغتة ، بعد ساعة ونصف الساعة فحسب من النوم !!

ماذا حدث إذن ؟!

مـاذا ؟!

مـاذا ؟!

ظل (نور) يتابع (أكرم) ، لخمس دقائقٍ كاملة ، ثم لم يلبث أن اتجه نحوه ، وأمسك يده ، قائلاً :

ـ أريدك فى المقدمة يا صديقى .

أطلق (أكرم) ضحكة صافية ، وهو يقول :

ـ ألست كذلك دومًا ؟!

وابتسم (نور) ..

أو أنه حاول أن يبتسم ..

فيد (أكرم) كانت قد استعادت حرارتها الطبيعية ..

وكان هذا يضاعف التساؤل عما حدث ..

ألف مرة ..

★ ★ ★

« ماذا سجلت أجهزتكم بالضبط ؟! »

ألقى القائد الأعلى للمخابرات العلمية السؤال ، على فريق العلماء ، الذين اجتمع بهم ، فتنحنح أحدهم ، وأجاب :

ـ مسح المنطقة ، بالأشعة دون الحمراء ، والموجات فوق الصوتية ، والكهرومغناطيسية ، لم يسفر عن أية نتائج واضحة .

بدا الجواب محبطًا إلى حد كبير ، فتراجع القائد الأعلى فى مقعده متوترًا ، قبل أن يضيف أحد العلماء :

ـ للوهلة الأولى .

اعتدل القائد الأعلى بحركة حادة ، متسائلاً :

ـ ما الذى يعنيه هذا بالضبط ؟!

ضغط العالم زرًّا ، فظهرت على الشاشة خريطة لتلك البقعة من (سيناء) ، ثم تحولت إلى خريطة مغناطيسية ، وصوتية ، والعالم يقول :

ـ لو فحصنا نتائج الفحص فوق الصوتى والكهرومغناطيسى ، سنجد أنها لاتختلف عن كل ماحول الهدف ، أما بالنسبة للخريطة الحرارية ، فالأمر يختلف إلى حد ما .

بضغطة زر أخرى ، ظهرت الخريطة الحرارية للمكان على شاشة العرض ، وتطلع إليها القائد الأعلى فى اهتمام وإمعان ، قبل أن يتساءل فى حيرة :

ـ وماذا عنها ؟! إنها تبدو لى مشابهة أيضًا .. لافارق فيها بين الهدف ، والمناطق المحيطة به .

رفع العالم سبابته ، وهو يقول فى حماس :

ـ ليس هذا برأى الكمبيوتر .

انعقد حاجبا القائد الأعلى فى اهتمام ، والعالم يتابع بنفس الحماس :

ـ العين البشرية لها حدود ، فى تمييز الألوان ، لذا لايمكنها فى بعض الأحيان ، رصد التغيرات الطفيفة ، فى لون ما ، أما أجهزة الكمبيوتر والماسحات الضوئية ، فهى أكثر دقة بكثير .

واستخدم مؤشرا ليزريًا ، ليحيط منطقة الهدف ، مستطردًا فى حماس أكثر :

ـ ولقد تبينت الأجهزة المتطورة ، وجود اختلاف قدره عُشر درجة ، بين حرارة منطقة الهدف ، وما يحيط بها .

غمغم القائد الأعلى :

ـ عُشر درجة ؟!

أومأ عالم آخر برأسه ، قائلاً :

ـ لقد درسنا توزيع الهواء فى فراغ الكهف ، وتأثيره فى درجة الحرارة ، وغيرها من العوامل الطبيعية ، قبل أن نتوصل إلى أن هذا الاختلاف ليس طبيعيًا ، على الرغم من ضآلته .

تساءل القائد الأعلى :

ـ هل تعتقدون أن ارتفاعًا قدره عُشر درجة مئوية ، قد يعنى شيئًا ما ؟!

تبادل العلماء نظرة صامتة ، ثم أجاب صاحب النظرية :

ـ ربما يا سيدى ، ولكن الواقع أنه انخفاض ، وليس ارتفاعًا .

ثم مال نحو القائد الأعلى ، مضيفًا للتأكيد :

ـ درجة حرارة الهدف تقل عُشر درجة ، عن كل ما يحيط به .

التقى حاجبا القائد الأعلى فى تفكير عميق ، قبل أن يسألهم فى اهتمام بالغ :

ـ وما الذى يمكن أن يعنيه هذا ؟!

تبادل العلماء نظرة صامتة أخرى ، ثم أجاب أكبرهم ، فى تردد شديد ، وحذر أشد :

ـ الواقع أننا نجهل هذا تمامًا .

وازداد التقاء حاجبى القائد الأعلى فى غضب ..

فمازال اللغز غامضًا ..

أو ازداد غموضًا ..

بالتأكيد ..

★ ★ ★

من المؤكد أن ذلك الكهف يحوى شيئًا ما ..

تلك الرهبة التي تدخل نفس كل من يقف عند مدخله ، كانت وحدها دليلاً على هذا ..

فأمام الكهف ، وقف أفراد الفريق صامتين ، يتطلَّعون إلى المدخل الصخرى ، الشبيه بفكى وحش رهيب ، قبل أن يقطع (نور) هذا الصمت ، وهو يقول فى شىء من الخشونة ، صنعها توتره :

ـ هيا بنا ، على بركة الله .

أشعلت (سلوى) و(نشوى) أجهزتهما ، وأضاء (نور) و(رمزى) مصباحين قويين ، فى حين أمسك (أكرم) مسدسه بقبضتيه ، وهو يتقدَّم الجميع فى حذر ..

ومع خطواتهم الأولى ، غمغم (نور) :

ـ الأرض جافة .

أدرك الجميع ، فيما عدا (أكرم) ، ما يعنيه ، وتبادلوا نظرة صامتة ، ثم واصلوا التقدُّم عبر الكهف ..

كانت هناك مسارات متداخلة ومعقدة ، أشبه بمتاهة تم حفرها عمدًا ، ولكن (نور) كان يسترشد بالخريطة اليدوية ،

التى وضعها الدكتور (أنـور) فى تقريره ، وبجهاز تحديد مسار رقمى ، يسجل كل حركاتهم ، حتى لايضلوا طريقهم ..

وفى توتر ، غمغم (أكرم) ، بعد نصف ساعة من البحث :

ـ ما الـذى أثار اهتمامهم بهذا الكهف .. إنـه يبدو خاليًا تمامًا .

غمغم (نور) :

ـ وعلى الرغم من هذا ، فقـد اختفى أربعة أشخاص داخله .

قال (أكرم) فى عصبية :

ـ ربما ضلوا طريقهم .

توقف (نور) ، قائلاً :

ـ كان يمكنهم على الأقل ، الاستجابة لأى نداء .

قال (أكرم) ، وهو يتلفت حوله :

ـ وكيف هذا ؟!

أحاط (نور) فمه بكفيه ، وصاح بكل قوته :

ـ نحن هنا .

بدا صياحه مزعجًا للغاية ، عندما ردَّدته جدران الكهف ، وتردَّد صداه عبر ممراته المتشابكة ، فهتفت (سلوى) :

ـ يا إلهى ! هذا لايحتمل يا (نور) .

لم تكد تتم عبارتها ، حتى تردَّد فجأة ذلك الصوت ..

صوت رهيب ..

قوى ..

مخيف ..

صوت أشبه بزمجرة ليث ..

وفحيح ثعبان ..

وصرخة طائرة جارح ..

معًا ..

تردَّد فى قوة ، مع صدى رهيب ، جعل (نشوى) تصرخ فى رعب ، ودفع (سلوى) إلى أن تتعلق بزوجها (نور) ، هاتفة :

ـ ما هذا يا (نور) ؟!

أما (رمزى) و(أكرم) ، فقد ردّدا فى آن واحد :

ـ يا إلهى !

وبمنتهى القوة ، انعقد حاجبا (نور) ، وهو يدير عينيه فى المكان ، بكل توتر الدنيا ..

لقد كان على حق ..

هناك شىء ما هنا ..

شىء رهيب ..

وغامض ..

ومرة أخرى ، كرَّرت (سلوى) ، بمنتهى الرعب :

ـ ما هذا يا (نور) ؟!

أجابها فى صرامة عجيبة ، لاتتناسب مع الموقف :

ـ جزء من اللغز .

ثم التفت إليها ، مستطردًا :

ـ هل سجلت أجهزتك هذا الصوت ؟!

ارتفع حاجبا (سلوى) ، وكأنما يدهشها أن هذا لم يرد بخاطرها ، وهتفت فى حماس :

ـ بالطبع .

أشار إلى الجهاز ، قائلاً :

ـ دعينا نر ما الذى سجله إذن .

أسرعت أصابعها تضغط أزرار الجهاز ، والكل يتابعها فى اهتمام ، فى حين راح (أكرم) يتطلع إلى أعماق الكهف المظلم ، فى توتر شديد ، ويده تقبض على مسدسه بمنتهى التحفُّز ..

وبسرعة البرق ، راح جهاز الصوتيات يعيد بث الإشارة ..

ويدرسها ..

ويحللها ..

ويضع تقريره الكامل عنها ..

ثم جاءت النتيجة مدهشة ..

وبكل دهشتها ، غمغمت (سلوى) :

ـ إنه مزيج صوتى .

التفت إليها (أكرم) ، بعينين حائرتين متسائلتين ، فتابعت :

ـ إنها ثلاثة أصوات منفصلة ، تمّ مزجها بوسيلة صناعية ، لتصدر صوتًا مشتركًا ، له إيقاع رهيب ؛ بهدف التأثير على مقتحمى المكان .

تمتم (نور) ، فى تفكير عميق :

ـ الأسد ، والأفعى ، والنسر .

أجابته فى سرعة :

ـ بالضبط .

تلفت حوله بدوره ، وهو يتمتم مرة أخرى :

ـ هذا يؤيّد نظريتى .

انعقد حاجبا (أكرم) ، وهو يتطلع إليه فى اهتمام قلق ، فى حين سأله (رمزى) فى لهفة :

ـ وما نظريتك يا (نور) ؟!

وعلى الرغم من خبرته النفسية ، لم يستطع (رمزى) الجزم ، بما إذا كان (نور) لم يسمع سؤاله ، أم إنه قد تجاهله عمدًا ، وهو يسأل (سلوى) بكل اهتمام :

ـ وهل حدّدت مصدره ؟!

أجابته ، وهى تضغط أزرار الجهاز مرة أخرى :

ـ ليس هذا بالأمر العسير .

ظهرت الإحداثيات على الجهاز ، فتراجعت بحركة حادة ، جعلت (رمزى) يسألها فى توتر :

ـ ماذا وجدت ؟!

أشارت بيدها إشارة مبهمة ، مجيبة بصوت مرتجف :

ـ إنه يأتى من كل مكان ..

وصمتت لحظة ، قبل أن تضيف ، ونبراتها أكثر ارتجافًا :

ـ تقريبًا .

فجّر قولها هذا قنبلة من التوتر ، فى المكان كله ، فراح (نور) و(رمزى) و(سلوى) و(نشوى) يتبادلون نظرة صامتة ، و ....

« أين (أكرم) ؟! »

هتف (نور) بالسؤال فجأة ، فانتبه الكل دفعة واحدة ، وراحوا يتلفتون حولهم ، بمنتهى الدهشة والتوتر ، قبل أن يهتف (رمزى) :

- ربّاه ! لقد كان إلى جوارى ، منذ دقائق قليلة .

تلفتوا حولهم ، فى شىء من الذعر ، قبل أن يهتف (نور) :

- (أكرم) .. أين أنت ؟!

تردَّد هتافه فى أرجاء الكهف ..

وممراته ..

وجدراته ..

وارتد ..

وما من مجيب ..

ومرة أخرى ، أحاط (نور) فمه بكفيه ، وصرخ بكل قوته :

- (أكرم) .. هل تسمعنى ؟!

سجَّل جهاز (سلوى) الصرخة ..

والصدى ..

الصدى ، الذى تردَّد بمنتهى العنف ..

ولكن (أكرم) لم يجب ..

لقد اختفى فى قلب الكهف ..

تمامًا ..

★ ★ ★

فجأة ، لمح (أكرم) ذلك الشىء ..

كان الكل منشغلاً بمتابعة شاشة جهاز (سلوى) ، عندما رآه يتحرك ، على مسافة بعيدة نسبيًا ..

أراد أن يهتف ..

أن يخبر (نور) ..

والرفاق ..

أراد أن يفعل أشياء عديدة ، إلا أنه لم يفعل أيًا منها ، وإنما قبضت أصابعه بشدة على مقبض مسدسه ، واندفع خلف ذلك الشىء ..

شىء له تكوين عجيب ..

عجيب للغاية ..

شىء راح يغوص فى أعماق الكهف ..

ويغوص ..

ويغوص ..

ويغوص ..

و(أكرم) يغوص خلفه ..

ويطارده ..

و ....

وفجأة، شعر أن كل شيء من حوله قد تغير ..

وأن الأضواء تتزايد، على نحو سريع ..

وتوقف (أكرم) ..

توقف، وسرى في عروقه توتر بلا حدود ..

توتر، ربما لم يشعر بمثله، في حياته كلها ..

ومرة أخرى، أراد أن يصرخ ..

أن يستنجد بـ (نور) ورفاقه ..

ولكن ذلك الشيء لم يمهله ..

لقد استدار إليه ..

وتوقف ..

ومع الضوء المتزايد، بدا أكثر وضوحًا ..

وأكثر غرابة ..

واتسعت عينا (أكرم) عن آخرهما ..

وانحبست صرخته في أعمق أعماقه، وخاصة عندما برز شيء ثان ..

وثالث ..

ورابع ..

وخامس ..

وسادس ..

وعلى الرغم من شغفه برصاصاته، خفض (أكرم) فوهة مسدسه، وتلك الأشياء تحيط به ..

ثم عاد الكهف يغرق في ظلام ..

ظلام دامس ..

بلا قرار.

* * *

٥ـ الأعمـــاق ..

« ربما هو نهر فى الأعماق .. »

نطق أحد أفراد الفريق العلمى العبارة ، وهو يراجع الخريطة الحرارية للمرة السادسة ، قبل أن يضيف ، فى لمحة من الحماس :

ـ هذا سيؤدى إلى عملية تبريد مستمرة ، ربما تكون السبب فى انخفاض حرارة الهدف عما حوله .

تبادل العلماء نظرة صامتة ، ثم قال أحدهم ، متشككًا :

ـ وماذا عن باقى مسار النهر ؟!

ثم أشار بسبَّابته إلى الخريطة ، مستطردًا :

ـ الانخفاض فى الحرارة يتركز عند منطقة الهدف وحدها ، ولا يمتد إلى نقطة واحدة خارجها ، وهذا يتنافى مع فكرة النهر .

غمغم الأول :

ـ ربما هى بحيرة .. مياة جوفية ، أو ...

لم يستطع إتمام عبارة ، لا يثق هو نفسه فى صحتها ، فلاذ بالصمت ، وهو ينكمش فى مقعده ، ليسود صمت عام ، استغرق بضع لحظات ، قبل أن يقول رئيس الفريق فى حزم :

ـ ولكن هناك تفسير ما حتمًا .

عاد الصمت يسيطر عليهم ، بضع لحظات أخرى ، ثم لم يلبث أحدهم أن تمتم مقترحًا فى حذر :

ـ ربما هى تيارات الهواء .

تطلَّع إليه العلماء الآخرون فى صمت ، بنظرات مستهجنة ، فتراجع متمتمًا فى توتر :

ـ ربما .

قبل أن يتفوه أحدهم بحرف واحد ، اقتحم أحد أفراد طاقم الرصد القاعة ، وهو يقول فى انفعال :

ـ هل رأيتم ما حدث ؟!

التفتوا جميعهم إليه بنظرات منزعجة ، وتساءل أحدهم :

ـ وماذا حدث ؟!

أجــاب فى انفعـال أكثر ، وهـو يشعل شاشة الرصد ، الملحقة بقاعة الأبحاث :

ـ لن تصدقوا .

تعلّقت عيونهم جميعًا بالشاشة ، التى أضيئت تدريجيًا ، وظهر عليها توزيع حرارى لمنطقة الهدف ..

واتسعت عيونهم كلها ، فى دهشة بالغة ..

فما رأوه ، كان بالفعل يصعب تصديقه ..

تمامًا !

* * *

« لا أثر له .. »

نطق (رمـزى) العبارة فـى توتـر بـالغ ، وهـو يقف فـى أعمــاق ذلـك الكهـف ، فـامتقع وجههـا (سـلوى) و(نشـوى) أكثر ، فى حين تمتم (نور) ، فـى صرامـة غاضبة :

ـ مستحيل !

وأدار عينيه فى المكان ، قبل أن يضيف :

ـ لا يـوجـد مخــرج واحــد مـن هـذا المكـان ، وأجهزة (سلوى) أكدت أن الجدران كلها مصمتة ، لا تحوى أية أنفاق أو فجوات خفيــة ، ونحـن كنـا نقـف عند المدخـل الوحيد للمكان ، فأين ذهب (أكرم) ؟!

حملت عيونهم مزيج التوتر والحيرة ، وهم يديرونـهـا فيما حولهم وقد بدت لهم صخور الكهف ، على أضــواء المصــابيح الكاشـفة ، أشـبه بوحـوش حجريـة متحفزة ، تتربص بهم ، وتراقبهم فى وحشية ، وكأنها تنتظر اللحظة المناسبة ؛ لتنقض عليهم ، وتفترسهم بلا رحمة ، و ...

« بـوابة .. »

نطقت (نشوى) الكلمة بصوت مرتجف ، فالتفت إليهـا الكل ، فى توتر متسائل ، جعلها تتابع :

ـ ماذا لو أن هذا الكهف يحوى بوّابة إلى عالم آخر .

بدت الدهشة على وجهى (رمزى) و(سلوى) ، فـى حين بـدا (نـور) شـديد الاهتمـام ، وهـو يتطلـع إليهـا ، فواصلت فى توتر :

ـ هذا هو التفسير الوحيد بوّابة تنقل من يعبرها إلـى عالم مواز ، أو بعد آخر ، أو ...

قاطعتها (سلوى) ، فى شىء من العصبية :

ـ ولماذا لم تلتقط أجهزتى هذا ؟!

بحثت (نشوى) فى ذهنها عن جواب ما ..

أى جواب ..

ولكن عقلها عجز عن هذا ..

إنها تعلم أن أجهزة أمها شديدة الحساسية ، ويمكنها التقاط أية ذبذبة ، مهما بلغ خفوتها ، لو أنها حدثت فى دائرة فعاليتها ..

وبالتحديد ، لو كانت ذبذبة كافية ، لنقل رجل ناضج ، إلى عالم آخر ..

أو بعد آخر ..

أو حتى مستوى آخر ..

« ماذا سجلت أجهزتك ؟! »

ألقى (نور) السؤال ، ليقطع خيط أفكار (نشوى) ، فتطلّعت إليه (سلوى) فى شىء من الحيرة ، قبل أن تجيب :

ـ ولِمَ لا نرى بأنفسنا ؟!

أشعلت أجهزتها بأصابع مضطربة ، وراحت تستعيد كل ما سجلته ، فى فترة اختفاء (أكرم) ..

وعلى الشاشة ، تراصت النتائج ..

وغمغم (نور) :

ـ هناك شىء ما .

ففى اللحظات ، التى اختفى فيه (أكرم) ، سجلت أجهزة (سلوى) ذبذبة إضافية خافتة ..

خافتة للغاية ..

ذبذبة ..

وثانية ..

وثالثة ..

ورابعة ..

وخامسة ..

ذبذبات شديدة الضعف ، تصاعدت على نحو متسلسل ، ثم تلاشت دفعة واحدة ، دون مقدمات ..

ذبذبات ، قد لا تعنى شيئًا ..

وقد تعنى كل شىء ..

ولثوان ، ظلّ الجميع يتطلعون إلى النتائج فى صمت ، قبل أن يقول (نور) بمنتهى الحزم :

ـ أريد تحليلاً دقيقًا ، لما يمكن أن يعنيه هذا .

غمغمت (سلوى) :

ـ سأبذل قصارى جهدى .

ربّتت عليها (نشوى) ، وهى تقول فى خفوت :

ـ سنتعاون معًا فى هذا .

شملهم الصمت بضع لحظات أخرى ، قبل أن يلقى (نور) نظرة على ساعة يده ، قائلاً فى حزم ، أخفى خلفه الكثير من المرارة والتوتر :

ـ أعلم أن هذا قد يصيبكم جميعًا بالإحباط ، ولكننا لم نعد نملك ما نفعله ، والشمس على وشك المغيب ، وليس أمامنا سوى أن نغادر هذا الكهف .

تمتم (رمزى) فى ارتياع :

ـ وماذا عن (أكرم) ؟!

كتم (نور) مرارته وآلامه فى أعماقه ، وقال فى توتر :

ـ هيا بنا .

لم يكن أفراد الفريق قد ذاقوا النوم لحظة واحدة ، طوال الليلة السابقة ، وعلى الرغم من هذا ، فقد عادوا إلى معسكرهم صامتين ، ولا أحد منهم يجرؤ على التفوه بحرف واحد ..

ومع اختفاء قرص الشمس ، خلف الجبال الضخمة ، شعروا وكأنها تسحب قلوبهم وأرواحهم معًا ..

لم يكن من السهل عليهم تقبل فكرة فقدان (أكرم) ، فى هذا المكان الرهيب المخيف ..

لم يكن من السهل عليهم أبدًا ..

لذا فقد شملهم صمت ووجوم ثقيلين ، قطعهما (نور) ، وهو ينهض فى حزم ، قائلاً :

ـ أظننا لن نساعد (أكرم) بحزننا هذا .

غمغمت (سلوى) فى مرارة :

ـ إننا نجهل حتى أين هو .

أجابها (نور) بنفس الحزم :

ـ علينا أن نبذل قصارى جهدنا للبحث إذن ، وهذا لن يتأتى بالحزن والمرارة واجترار الأسى .

تمتم (رمزى) :

ـ يا لك من قائد يا (نور) !

التفت إليه (نور) ، بعينين تكتمان دموع الحزن بإرادة من حديد ، وهو يقول :

ـ دعونا لا نضيع الوقت .

تساءلت (نشوى) دامعة :

ـ وماذا يمكننا أن نفعل ، أكثر مما فعلنا بالفعل ؟!

أجابها بمنتهى الحزم :

ـ يمكننا أن نعيد دراسة الأمر مرة ثانية .. وثالثة .. ورابعة .. ونواصل دراسته ألف مرة ، لو اقتضى الأمر ، علنا نجد فى مرة منها ، لمحة خفيت عنا ، فى المرات الأولى .

نهضت (سلوى) ، قائلة فى حزم :

ـ صدقت .

واتجهت مع (نشوى) إلى أجهزتها ، وراحت تعيد دراسة الأرقام والمنحنيات ، والصور الحرارية ، فى حين اقترب (رمزى) من (نور) ، وهمس فى تعاطف واضح :

ـ أعلم ما تعانيه يا (نور) .

همس (نور) فى مرارة :

ـ لست أعتقد هذا .

ابتسم (رمزى) ابتسامة مشفقة ، وهو يقول :

ـ إنك بهذا تنتقص الكثير من خبراتى النفسية يا (نور) .. إننى أعلم جيدًا كم تعانى ، وكم تتعذب لفقدان زميلك وصديقك ، وعجزك عن العثور عليه ، أو معرفة مصيره .. أعلم أن هذا يزعجك ، ويوترك ، ويزعزع ثقتك فى نفسك وقدراتك ، خاصة مع معطيات عديدة ومربكة كهذه ، ولكن إن كنت تفقد ثقتك فى نفسك ، فأنا لم أفقد ثقتى بك لحظة واحدة .. أنا واثق من أنك ستحل هذا اللغز ، كما حللت كل الألغاز السابقة ، وستنتصر على الغموض ، كما فعلت من قبل ، و ...

بتر عبارته دفعة واحدة ، فقال (نور) فى صرامة :

ـ وماذا يا صديقى ؟! هل سأستعيد (أكرم) والباقين ، أم إننا قد فقدناهم إلى الأبد ؟! هل يمكنك أن تمنحنى إجابة واثقة على هذا .

صمت (رمزى) لحظة ، ثم أجاب فى تردُّد :

ـ الواقع يا (نور) أنه ما من دليل واحد على ...

قبل أن يتم عبارته ، ارتفع رنين جهاز الاتصال ، الذى يحمله (نور) ، فالتقطه من جيبه فى سرعة ، وقال :

ـ المقدّم (نور) .

أتاه صوت القائد الأعلى ، وهو يقول فى انفعال :

ـ (نور) .. هناك أمر خطير ، بشأن ذلك الكهف ، لابد وأن تعلمه على الفور .

تساءل (نور) فى توتر :

ـ وما هو ؟!

التمعت عيناه على نحو عجيب ، عندما أخبره القائد الأعلى ما لديه ، وشعر بارتجافة عجيبة فى أوصاله ، وهو يقول :

ـ على الرغم من غرابة هذا ياسيدى ، إلا إننى توقعت كل عجيب هذه المرة ..

تساءل القائد الأعلى فى دهشة :

ـ حتى هذا ؟!

أجاب (نور) فى حزم :

ـ حتى هذا يا سيدى .

أنهى المحادثة ، واستدار ليقول لـ (رمزى) :

ـ لن تصدق ما توصل إليه العلماء ، بشأن الـ ...

بتر عبارته قبل أن يكملها ، وانعقد حاجباه فى شدة ..

فخلفه كان المكان خاليًا ..

و(رمزى) لم يكن هناك ..

على الإطلاق ..

★ ★ ★

لم تكن هناك ليلة أسوأ من هذه ، فى حياة الفريق كلها ..

ففى ساعات قليلة ، فقدوا اثنين من أنشط زملائهم ..

جاءوا يبحثون عن مفقودين ، ففقدوا رجلين ..

بلا أثر ..

أو تفسير ..

وكما حدث مع (أكرم) ، اختفى (رمزى) فجأة ، دون أن يترك خلفه أدنى أثر ..

وطوال الليل ، وبلا هوادة ، راح الباقون يبحثون عنه ، فى كل مكان ..

استخدموا تقنيات رصد الصوت ..

والذبابات ..

والتغيرات الحرارية ..

وحتى التوزيع الكهرومغناطيسى ..

وعندما بلغت عقارب الساعة الثالثة والنصف صباحًا ، كان الإجهاد قد بلغ منهم مبلغه ، وأضيف إليه طن من الغضب ، جعل (نور) يقف فى مواجهة ذلك الكهف الغامض ، ملوحا بقبضته ، وهو يهتف :

ـ ماذا تريد منا ؟! ماذا تفعل بنا ؟! أى شر تضمره فى نفسك تجاهنا ؟!

تبادلت (نشوى) و(سلوى) نظرات شديدة القلق ، قبل أن تقترب الأخيرة من (نور) فى حذر ، وتمس كتفه ، قائلة :

ـ (نور) .. إنك تتحدث إلى كهف .

أجابها (نور) فى صرامة ، دون أن يلتفت إليها :

ـ إنه يسمعنا .

حدَّقت فيه ذاهلة ، ولكنه استدار إليها ، مكملاً فى حدة :

ـ إنه حى .

شهقت (سلوى) فى ذعر ، وهتفت (نشوى) بكل رعب الدنيا :

ـ حى ؟!

عاد (نور) يتطلَّع إلى الكهف فى بغض ، مجيبًا :

ـ نعم .. حى .

تبادلت الاثنتان نظرة ملتاعة أخرى ، قبل أن تغمغم (سلوى) :

ـ (نور) .. إنه مجرد كهف .

التفت إليها مرة ثانية ، وهو يقول فى حدة :

ـ كهف ينبض .

حدقت فيه مع (نشوى) ، فتابع :

ـ العلماء فى (القاهرة) الجديدة ، رصدوا نبضة تنبعث منه ، كل دقيقة .. نبضة منتظمة .. لا تأتى من شىء داخله أو أسفله أو حوله .. بل منه مباشرة .

اتسعت عينا (نشوى) ، وهى تغمغم :

ـ ولكن هذا مستحيل !

أجابها فى شراسة غير معتادة :

ـ فى عالمنا ، لايوجد مستحيل !

كان يبدو عصبيًّا ، على نحو يفوق كل المرات ، التى رأوه عليها من قبل ، فربتت (سلوى) على صدره ، قائلة فى إشفاق :

ـ (نور) .. إنك تحتاج إلى قدر من النوم .

انتفض جسده ، وهو يهتف :

ـ مستحيل !

قالت (نشوى) فى حدة :

ـ أنت قلتها الآن : لا يوجد فى عالمنا مستحيل .. ثم إن النوم لم يعد خيارًا إضافيًّا متاحًا ، وإنما ضرورة يطلبها جسدك فى إلحاح .

كان (نور) يبدو شديد الإرهاق والانفعال بالفعل ، وهو يقول فى عصبية :

ـ وماذا سيحدث لو نمت ؟

أجابته (سلوى) :

ـ سيستعيد جسدك طاقته ، و ...

قاطعها ، فى عصبية أكثر :

ـ ماذا سيحدث لكما ؟!

أدركت (سلوى) ما يعانيه ، فربتت عليه مرة أخرى ، وهى تقول :

ـ لا تقلق نفسك بشأننا يا (نور) .. إننا نستطيع حماية أنفسنا .

قال فى حدة :

- وكذلك كان (أكرم) ، و(رمـزى) ، ولكن هذا لم يمنع اختفاءهما .

ثم هز رأسه فى قوة ، قائلاً :

- كلاً .. سأبقى لحراستكما وحمايتكما ، و ...

قبل أن يتم عبارتـه ، شعر بوخزة حـادة فـى فخـذه اليسرى ، فاستدار فـى غضب إلـى (نشـوى) ، التـى تراجعت ممسكة بمسدس حقن ، وهى تقول :

- معذرة يا أبى .. إنك لم تترك لى الخيار .

تضاعف غضبه ، وهو يهتف :

- هل حقنتنى بذلك العقـار المنـوم ، الـذى أحضـره (رمزى) ؟! كيف تجرؤين ؟!

تراجعت أكثر ، متمتمة :

- أرجوك يا أبى ..

أراد (نور) أن يتقدم نحوها ..

ولكن قدميه لم تطاوعانه ..

لقد شعر بهما ثقيلتين ..

جامدتين ..

ثابتتين ..

ورأسه راح يدور ..

ويدور ..

ويدور ..

وبكل ما تبقى من قوته ، غمغم :

- من سيحميكما ؟!

رأى صورتها مهتزة أمامه ، وسمع صوت (سـلوى) ، وكأنه يأتى من أعماق بئر سحيقة ، قائلة :

- الله (سبحانه وتعالى) سيحمينا .

وأمام عينيه ، راحت الصورة تهتز ..

وتهتز ..

وتهتز ..

ثم امتلأت نفسه بالفزع ..

فحول (سلوى) و(نشوى) ، ظهرت كائنات عجيبة ..

كائنات يعجز عن وصفها ..

كائنات أحاطت بهما ..

وصرخ (نور) :

ـ احترسا .

أو إنه أراد هذا ..

إلا أن الصرخة تفجرت فى أعماقه ، ولم تتجاوز شفتيه ..

وبعدها ، أظلمت الدنيا أمام عينيه ..

تمامًا .

★ ★ ★

٦ ـ تطور ..

بدت عينا القائد الأعلى منتفختين ، من قلة ساعات نومه ، وهو يدخل حجرة الاجتماعات ، فى مركز الأبحاث العلمية ، قائلاً :

ـ أرجو أن يكون هناك تطور هام وخطر للغاية ، يبرر إيقاظى فى ساعات الفجر الأولى أيها السادة .

تبادل العلماء نظرة صامتة ، ثم قال كبيرهم :

ـ سيدى القائد الأعلى ، إننا نرغب فى إنهاء عملية الكهف الغامض .

انعقد حاجبا القائد الأعلى ، وهو يتساءل :

ـ بهذه السرعة ؟!

أومأ الرجل برأسه إيجابًا ، وقال فى انفعال :

ـ وأبحاثنا تؤكد أنه قد يكون بداية لفناء حضارتنا كلها .

اتسعت عينا القائد الأعلى فى دهشة ، وهو يغمغم :

ـ ذلك الكهف ؟!

أجابه أحد أفراد الفريق :

ـ بل قل : ذلك الكائن يا سيدى .

بدا صارمًا ، وهو يقول :

ـ آخر تقاريركم لم يجزم بهذا ، وإنما أشار ..

قاطعه أحد العلماء ، دون أن ينتبه إلى ما فى هذا ، من مجافاة لقواعد العمل والذوق :

ـ إنه ينبض ويتحرك أيها القائد الأعلى .

ازداد انعقاد حاجبى القائد الأعلى ، دون أن يجيب ، فتابع الرجل :

ـ ما بدا لنا ، هو أن ذلك الشىء لايشبه أى شىء فى عالمنا كله ، ونعنى بهذا عالمنا المعروف والمرصود ، فهو إما جاء من عالم آخر ، أو نتاج سلسلة مختلفة من التطور ، كما أشار الدكتور (أنور) ، فى تقريره الأولى .

غمغم القائد الأعلى ، وكأنما يحاول الاستيعاب :

ـ سلسلة مختلفة من التطور ؟!

أجابه أحد العلماء موضحًا :

ـ لدينا نظرية ، تفترض أن هذا الشىء نتاج تحوّر بيئى ، حدث منذ ملايين السنين ، بحيث جعل ذلك الكائن يتخذ هيئة الأشياء المحيطة به .. وهذا يعنى أنه لو انتقل إلى الصحراء ، لبات أشبه بتبة من الرمال ، وفى البحر سيصبح موجة عاتية ، و ....

قاطعه القائد الأعلى ، فى شىء من العصبية :

ـ كلام فارغ .

تبادل العلماء نظرة متوترة ، ثم قال رئيسهم :

ـ ربما يبدو لغير المتخصصين كذلك ، ولكننا نطبق قواعد عامة ، جعلتنا نعتبر ذلك الشىء ، أيًّا كانت الصورة التى يبدو عليها ، مثالاً للكائن الحى .

تراجع القائد الأعلى فى مقعده ، وغرق فى التفكير بضع لحظات ، قبل أن يقول :

ـ ولو افترضنا أن هذا صحيح ، فكيف يمثل خطورة على حضارتنا كلها .

أجابه رئيس العلماء :

ـ نظريتنا تفترض أن ذلك الشىء كان فى حالة كمون أو ثبات صناعى ، لملايين السنين ، ثم أيقظه شىء ما ، فبدأ يستعيد عافيته ، ولو تركناه يفلت من مكانه هذا ، فقد لا نعثر عليه مرة أخرى أبدًا .

اندفع عالم آخر ، يقول :

ـ إلا لو تتبعنا آثار التدمير ، التى سيخلفها وراءه .

ارتجف صوت ثالث ، وهو يضيف :

ـ وصدقنى .. لن يكون هذا عسيرًا .

أكمل رابع :

ـ فالدمار سيكون شاملاً .. وهائلاً .

غمغم القائد الأعلى :

ـ إلى هذا الحد !!

نطقها ، واستغرق فى التفكير بضع لحظات ، قبل أن يعتدل ، ويسأل فى اهتمام قلق :

ـ وماذا تقترحون ، فى هذا الشأن ؟!

تبادل فريق العلماء نظرة أخرى ، حملت أضعاف ما حملته نظراتهم السابقة من التوتر ، قبل أن يجيب رئيسهم :

ـ أن نبادر نحن بالهجوم ؟!

سأله القائد الأعلى فى حذر :

ـ وما الذى يعنيه هذا بالضبط ؟!

مال رئيس فريق العلماء نحوه ، وحمل صوته كل توتره وانفعاله ، وهو يجيب :

ـ لو أردت نصيحتنا ، أرسل سربًا من المقاتلات ، المزودة بأقوى صواريخنا ، وانسف المنطقة كلها ، بلا تردد .

وانعقد حاجباه فى شدة ، وهو يضيف :

ـ وبلا إبطاء .

عاد القائد الأعلى يتراجع فى مقعده ، والتقى حاجباه فى تفكير عميق .. عميق للغاية ..

فقد كان عليه أن يتخذ قرارًا ..

أخطر قرار ، فى تاريخه كله ..

قرار شن حرب شاملة ، على عدو يجهل ماهيته وقدراته ..

تمامًا ..

★ ★ ★

كل شىء كان هادئًا ..

صامتًا ..

عميقًا ..

الصخور تمتد إلى مدى البصر ..

صخور عجيبة ..

غامضة ..

وحمراء ..

حمراء بلون الدم ..

وبكل حذر الدنيا ، تحرَّك (نور) بين تلك الصخور ..

لو أنها كانت صخورًا ..

فعلى الرغم من شكلها الجامد الصلب ، كانت كلها تنبض ..

تنبض كما لو كانت قلوبًا صغيرة ..

وكبيرة ..

وضخمة ..

وعلى مدى البصر ، رأى (نور) فتحة كبيرة ..

فتحة مضيئة ..

واسعة ..

ومدخلها كان أشبه بفكرة وحش رهيب ..

وحش خرافى كاسر ، يرغب فى أن ينقض ، ويلتهم ، ويفترس ..

بلا رحمة ..

وفى صعوبة ، راح (نور) يدفع قدميه إلى الأمام خطوة ..

فثانية ..

فثالثة ..

كانت قدماه ثقيلتين ..

بطيئتين ..

مؤلمتين ..

ولكن شيئًا ما فى أعماقه ، أنبأه أنه سيجد أجوبة كل تساؤلاته ، عند تلك الفتحة المضيئة ..

لذا ، فقد استجمع كل إرادته ، وسار ..

وسار ..

وسار ..

وعلى الرغم من أنه قد قطع مسافة طويلة ، إلا أن تلك الفتحة المضيئة بدت بعيدة .

بعيدة للغاية ..

وكان ضوءها يخبو ..

ويخبو ..

ويخبو ..

وهذا يعنى أن عليه أن يسرع ..

ويسرع ..

ويسرع ..

كان سباقًا مدهشًا ، بينه وبين الزمن ..

ولكن الفتحة كانت تبتعد ..

وتبتعد ..

وتبتعد ..

وفجأة ، وبلا مقدمات ، انطلق منها شعاع من الضوء ، سقط على عينيه مباشرة ، فانتفض جسده كله ، و ....

واستيقظ ..

استيقظ ، واعتدل بحركة مفاجئة ، جعلت (سلوى) تنهض من فراشها فى فزع ، قائلة :

- ماذا هناك يا (نور) ؟!

حدق (نور) فيها ، وفى شعاع الضوء ، الذى نفذ من فتحة الخيمة ، وسقط على عينيه ، ثم هتف :

- كم الساعة الآن ؟!

أجابته ، وهى تنهض إليه فى حذر :

- التاسعة والنصف صباحًا .. لقد رأينا أن نمنحك فرصة لنوم عميق ، حتى ....

قاطعها ، وهو يثب من فراشه :

ـ أين (نشوى) ؟!

أجابت فى توتر :

ـ فى الخارج .. إنها ..

لم ينتظر ليسمع جوابها ، وإنما اندفع خارج الخيمة ، وهو يهتف باسم ابنته ، إلا أن بصره وقع عليها وهى تجلس على صخرة قريبة ، وتضع جهاز الكمبيوتر المحمول على ركبتيها ، وأصابعها تعمل عليه فى سرعة ..

وعندما سمعت صوته ، التفتت إليه ، متسائلة فى قلق :

ـ ماذا حدث يا أبى ؟!

توقف فى مكانه ، وتلفت حوله فى توتر بالغ ، قبل أن يقول :

ـ من حسن الحظ ، أن شيئًا لم يحدث .

اقتربت (سلوى) منه ، وربتت على كتفه ، قائلة :

ـ قلت لك إننا نستطيع حماية أنفسنا يا (نور) .

غمغم :

ـ أنتما تتصوران هذا فحسب .

تبادلت (نشوى) نظرة صامتة مع أمها ، قبل أن تقول :

ـ لقد توصلت إلى أمر محير يا أبى ، بشأن هذا الكهف .

مطَّ شفتيه ، متمتمًا ، فى سخرية عصبية :

ـ أمر واحد ؟!

تجاهلت نبرته الساخرة ، وقالت :

ـ منذ عدة أعوام ، وبعد زوال الاحتلال(*) ، قام المسئولون بعملية مسح جيولوجية كاملة ، ثلاثية الأبعاد ، لـ (مصر) كلها ، ومن بينها (سيناء) بالطبع ، ولقد راجعت ذلك المسح ، عبر شبكة المعلومات العامة ، والسرية أيضًا ، وفوجئت بأمر لم أتوقعه قط .

التقط (نور) نفسًا عميقًا ، وقال :

ـ إن ذلك الكهف لم يكن هنا من قبل .. أليس كذلك ؟!

بدت الدهشة واضحة ، فى ملامحها وصوتها ، وهى تقول :

ـ كيف استنتجت هذا ؟!

(*) راجع قصة (الاحتلال) .. المغامرة رقم (٧٦) .

تنهد فى توتر ، وقال ، وهو يتلفت حوله مرة أخرى :

ـ فى هذه المرة بالذات ، أصبحت أفترض كل ما لا يمكن توقعه .

ثم توقف ببصره عند الصخرة الكبيرة ، التى تخفى مدخل الكهف ، قبل أن يضيف :

ـ وأظن أنه من الأفضل أن نفكر بهذا الأسلوب .

شعرت (سلوى) و(نشوى) بالقلق ، من ذلك الصمت العميق ، الذى استغرق فيه ، بعد عبارته الأخيرة ، قبل أن يرفع رأسه فى اعتداد ، قائلاً :

ـ نعم .. هذا ما ينبغى فعله .

قالها ، وربت على مسدسه الليزرى ، وانحنى يلتقط مصباحًا ضوئيًا ، فسألته (سلوى) فى توتر :

ـ هل سنستكشف ذلك الكهف مرة أخرى ؟!

أجابها ، دون أن يلتفت إليها :

ـ لا تستخدمى صيغة الجمع يا (سلوى) ..

ثم التفت إليها ، مضيفًا :

ـ سأذهب وحدى .

هبّت (نشوى) واقفة ، وهى تهتف :

ـ أبى ..

قاطعها فى صرامة :

ـ ستبقيان أنتما هنا ، وترصدان كل خطوة من خطواتى ، بكل السبل المتاحة ، فى كل ثانية .

هتفت (سلوى) ، معترضة :

ـ وماذا لو تعرضت لـ ...

قاطعها أيضًا ، قائلاً :

ـ كل ما يمكن رصده ، قد يصنع فارقًا .

وشدّ قامته ، وهو يضيف بمنتهى الصرامة :

ـ ثم إن هذا أمر .

تبادلتا نظرة أكثر توترًا ، ثم تمتمت (سلوى) ، ودموعها تمتزج بكلماتها :

ـ انتبه لنفسك جيدًا .

غمغم (نور) فى حزم :

ـ سأبذل قصارى جهدى .

ثم أشار إلى جهاز الاتصال ، مضيفًا :

ـ ولنبق على اتصال طوال الوقت .

قالت (نشوى) مرتجفة :

ـ بالتأكيد .

حاول أن يبتسم ، وهو يتطلع إلى زوجته وابنته ، ثم أشاح بوجهه عنهما ، ويممه شطر الكهف ..

وفى همة ونشاط ، راح يتسلق ..

ويتسلق ..

ويتسلق ..

وعندما بلغ مدخل الكهف ، توقف يتطلع إلى الشكل الوحشى ، قبل أن يضغط زر جهاز الاتصال الخاص ، قائلاً بلهجة آمرة :

ـ ابدأا الرصد .

وبأصابع مرتجفة ، ضغطت (سلوى) أزرار جهازها ..

وبدأت الرصد ..

بكل السبل المتاحة ..

أما (نور) ، فقد التقط نفسًا عميقًا ، ثم دخل الكهف ، وهو يضىء مصباحه القوى ، ويمسك مسدسه الليزرى فى تحفز ..

وفى جرأة منقطعة النظير ، وعلى الرغم من علمه بما قد يواجهه ، دلف (نور) داخل الكهف ..

وبدأ رحلة رهيبة ..

رحلة فى قلب الغموض ..

★ ★ ★

انتقل توتر القائد الأعلى إلى رئيس الجمهورية نفسه ، بعد أن استمع إليه فى مكتبه ، فى القصر الجمهورى ، وتراجع فى مقعده ، متسائلاً بكل القلق :

ـ أيصرون على أنه الحل الوحيد ؟!

أومأ القائد الأعلى برأسه إيجابًا ، وقال :

- إنهم يخشون العواقب الوخيمة يا سيادة الرئيس .

حكَّ الرئيس ذقنه مفكرًا ، وتساءل :

- وماذا عن رد الفعل ؟!

هزَّ القائد الأعلى رأسه ، مجيبًا :

- لا أحد يمكنه توقعه يا سيادة الرئيس .

اعتدل الرئيس فى مقعده ، قائلاً فى صرامة متوترة :

- وماذا لو أن هجومنا هذا أيقظ قوة لا قبل لنا بها ؟!

ماذا لو جاء رد الفعل ، ليفوق كل قدراتنا وقوتنا .

غمغم القائد الأعلى :

- لست أعتقد الأمور يمكن أن تبلغ هذا الحد يا سيادة الرئيس .

سأله الرئيس فى حدة :

- وماذا لو بلغته ؟!

شدَّ القائد الأعلى قامته ، فى وقفة ذكرته بأيام خدمته فى القوات المسلحة ، وهو يجيب :

- إنها حرب حتمية يا سيادة الرئيس ، وأيًّا كانت عقباتها ، لا يمكننا أن نمتنع عن خوضها ، فالحرب ، أيًّا كانت خسائرها ، تحمل احتمال النصر والهزيمة ، أما السكوت ، فسيعنى حتمية الهزيمة .. هذا أول ما تعلمناه ، فى القرارات العسكرية .

استغرق الرئيس فى التفكير بضع لحظات ، وغمغم ، وكأنه يحدث نفسه فقط :

- المشكلة أننى مسئول عن أمن وحياة ملايين المصريين ، ومن العسير للغاية اتخاذ قرار ، يعرض أمنهم أو حياتهم للخطر .

قال القائد الأعلى فى حزم :

- كلا الأمرين ، يمكن أن يعرض أمنهم وسلامتهم وحياتهم للخطر يا سيادة الرئيس .

ثم مال نحو الرئيس ، مضيفًا :

- هذه هى الحرب .

التقى حاجبا الرئيس ، وتراجع فى مقعده ، وشبك أصابع كفيه أمام وجهه ، وغرق فى التفكير طويلاً .

طويلاً جدًا ..

كان الأمر عسيرًا للغاية ، بالنسبة له ..

بل ربما كان أخطر قرار فى حياته ..

أخطرها على الإطلاق ..

إنه يواجه خطرًا ، يجهل ماهيته ..

وحدوده ..

وأبعاده ..

ومساحته ..

خطر ، يرى فريق من أقوى وأمهر علمائه ، أنـه قد يمثل خطرًا ، ليس على مصير (مصر) وحدها وإنما على مصير العالم كله ..

ولكن عقله يتوقف دومًا ، عند كلمة (قد) هذه ..

فاتخاذ قرار بالحرب ، ليس بالأمر الهين أبدًا ..

حتى لو أنك تملك كل المعلومات عن خصمك ..

الحرب تعنى الدمار ..

والهلاك ..

والموت ..

وصراخ آلاف الجرحى .. وملايين المصابين ..

ودموع الثكالى ..

والأيتـام ..

وزيادة نسب العجز ..

والفقـر ..

واستهلاك الغذاء ..

والموارد ..

والمدخرات ..

باختصار ، الحرب تعنـى العودة خمس سنوات إلـى الخلف ..

على الأقل ..

ولاتخاذ قرار كهذا ، لا ينبغى أن تحـوى المعلومات ، كلمة (قـد) ..

بل ينبغى أن تكون معلومات كافية ..

وافيـة ..

شافية ..

ومؤكدة ..

فما بالك ، لو أنها شحيحة ..

ضئيلة ..

ومنعدمة ..

القرار كان خطيرًا ..

وإلى أقصى حد ..

ولكن القائد الأعلى قال ، فى توتر ملحوظ :

ـ ليس لدينا وقت للتردُّد يا سيادة الرئيس .

رفع الرئيس عينيه المتوترتين إليه ، وسأله :

ـ متى وصل آخر تقارير (نور) ؟!

اعتدل القائد الأعلى ، مجيبًا :

ـ نحن فى انتظـاره .

وهنا ، بدا الرئيس حاسمًا ، حازمًا ، وهو يضع كفيه على سطح مكتبه ، قائلاً :

ـ سنتخذ القرار بعد وصوله بإذن الله .

انعقـد حاجبا القـائد الأعلى بشـدة ، كمـا لو أن قرار الرئيس لم يرق له ، وقال فى توتر :

ـ وماذا لو لم يصل أبدًا ؟!

اتسعت عينا الرئيس ، وكأنما يهوله مجـرد التفكير فـى هذا الاحتمال ، ثم عاد يعقد حاجبيه ، مجيبًا فى صرامة :

ـ سنعتبر هذا تقريرًا سلبيًّا .

تساءل القائد الأعلى ، وكأنما يرغب فى تأكيد الأمر :

ـ وعندئذ .

صمـت الرئيس لحظـة ، ثم شـدّ قامتـه ، مجيبًـا فـى حزم ، لم يخل من ارتجافة توتر واضحة :

ـ عندئذ سنضرب ضربتنا .. بكل السبل الممكنة .

ولم يعلق القائد الأعلى هذه المرة ..

إطـلاقًا ..

* * *

ربما لم يشعر (نور) ، فى حياته كلها بمثل ذلك التوتر ، الذى شعر به ، وهو يدلف وحده إلى ذلك الكهف الرهيب ..

قشعريرة باردة ، سرت فى أوصاله ، وهو يعبر مدخله ، وراحت تتصاعد ، وهو يتوغل فى أعماقه ..

وتتصاعد ..

وتتصاعد ..

لسبب ما ، بدا له الهواء داخل الكهف أكثر برودة ..

ورطوبة ..

وثقلاً ..

فعلى نحو عجيب ، راحت أنفاسه تتلاحق ..

وتتلاحق ..

وتتلاحق ..

لم يدر ما إذا كان هذا بفعل الانفعال ، أم الخوف ، أم شىء ما ، يكمن فى هواء ذلك الكهف ..

وجدرانه ..

وصخوره ..

وغموضه ..

ضوء مصباحه القوى ، كان يكشف الطريق أمامه ، إلى أعمق مدى ممكن ، وينقل إلى عينيه صورة صخور عادية ..

عادية للغاية ..

وعلى الرغم من هذا ، كان يشعر وكأنه محاط بعيون تراقبه ..

وترصده ..

وتتابعه ..

ألف ألف عين ..

على الأقل ..

وفى خطوات حذرة ، وعبر الأجهزة الموصولة بجسده ، راح يفحص الصخور ..

ويلتقط الصور ..

وينقلها إلى زوجته وابنته ..

« هل تسجلين كل شىء يا (سلوى) ؟! »

ألقى سؤاله فى خفوت وحذر شديدين ، وكأنما يخشى أن يسمعه شىء ما من حوله ، فأتاه صوت (سلوى) ، عبر أجهزة الاتصال الخاصة ، وهى تجيب :

ـ نعم .. أسجل كل شىء يا (نور) ، ولا يوجد ما يثير الانتباه ، بأى حال من الأحوال ..

تمتم :

ـ عجبًا !

واصل توغله ، فى أعماق الكهف أكثر ..

وأكثر ..

وأكثر ..

وفى خيمة المتابعة والأبحاث ، تعلق بصر (سلوى) بالمعلومات ، التى تسجلها شاشة جهازها ، وغمغمت فى حيرة :

ـ من هنا ، يبدو كل شىء عاديًّا .

سألتها (نشوى) همسًا :

ـ هل تعتقدين أنهم يدركون ما نفعله ؟!

صمتت (سلوى) بضع لحظات ، قبل أن تجيب فى ثقة :

ـ أظنهم يدركون كل شىء .

لم تكد تتم عبارتها ، حتى انتبهت حواسها كلها دفعة واحدة ، واتسعت عيناها فى شىء من الذعر ، وهى تحدق فى الشاشة ..

وكذلك فعلت (نشوى) ..

ففى ذلك الكهف ، كان يحدث أمر عجيب ..

ومخيف ..

للغاية ..

* * *

باسل
Www.dvd4arab.com

٧ـ طبـول الحرب ..

« معذرة يا سيادة الرئيس .. لا يمكننا الانتظار .. »

نطق القائد الأعلى للمخـابرات العلمية العبـارة ، فـى حزم شديد ، جعل رئيس الجمهورية يعتدل فـى مقعده ، ويسأله بكل التوتر :

ـ حقـًا ؟!

أجابه القائد الأعلى فى سرعة :

ـ لقد حاولنا الاتصال بالمقدم (نور) وفريقه ، إلا أننـا لم ننجح فى هذا ، طوال الساعة السابقة .

قال الرئيس فى حزم :

ـ أرسلوا حوَّامة لاستعادتهم .

هزَّ القائد الأعلى رأسه فى حزم ، مجيبًا :

ـ حتى هذا ، يبدو مستحيلاً يا سيادة الرئيس .

حمل صوت الرئيس توترًا مضاعفًا ، وهو يسأل :

ـ ولمـاذا ؟!

صمت القائد الأعلى لحظة ، وكأنما يستجمع إرادتـه ، ثم أجاب :

ـ الأفضل أن ترى بنفسك ، سيادة الرئيس .

قالها ، ودفع أسطوانة مدمجـة ، عاليـة الكثافـة (*) ، فى جهاز صغير ، فوق الهولوفيزيون ، فى حجرة مكتب الرئيس ، فتكونـت صورة ثلاثيـة الأبعاد للمنطقـة التـى تضم ذلك الكهف ...

صـورة ، بـدت هادئـة فـى البدايـة ، قبـل أن تتكـوَّن دائرة عجيبة ، حول المنطقة كلها ..

دائرة راحت تتحرك ..

وتتحرك ..

وتتحرك ..

وخلال ثوان ، رسمت ما يشبه السوار ، حول المنطقـة كلهـا ..

سوار له لون عجيب ..

لون أشبه بالطمى ..

أو بالدم ..

(*) DVD .

وبمنتهى الدهشة والتوتر ، تساءل الرئيس :

ـ ما هذا بالضبط ؟!

أجابه القائد الأعلى ، فى صرامة شديدة ، حاول بها أن يخفى نيران التوتر ، المستعرة فى أعماقه :

ـ العلماء يقولون إنها أشبه بعاصفة كهرومغناطيسية .

غمغم الرئيس :

ـ أشبه بها ؟!

أومأ القائد الأعلى برأسه ، قائلاً :

ـ نعم .. مجرد تشابه يا سيادة الرئيس ، فهى تشترك معها فى بعض الخواص ، مثل العزل الحرارى ، وعزل الاتصالات المباشرة والإلكترونية ، أما فيما عدا هذين ، فهى تختلف تمامًا ، عن أية ظاهرة طبيعية ، رصدها العلماء ، منذ بدء العلوم المدوّنة .

غمغم الرئيس ، فى حذر عصبى :

ـ أيعنى هذا أنها ..

لم يتم الرئيس عبارته ، إلا أن القائد الأعلى استوعب مغزاها على الفور ، فأجاب دون أن تكتمل :

ـ نعم يا سيادة الرئيس .. إنها ليست ظاهرة طبيعية .

اتسعت عينا الرئيس ، وتراجع فى مقعده ، فى بطء مبهوت ، وراح يحدق فى القائد الأعلى ، الذى تابع :

ـ خبراؤنا يرجحون أنها السبب الرئيسى ، فى عجزنا عن الاتصال بـ (نور) وفريقه ، ويؤكد بعضهم أن أفراد الفريق أنفسهم لم يشعروا بها بعد ، لأنها تدور فى نطاق بعيد للغاية عنهم ، ولكنهم سيدركون وجود أمر غير طبيعى ، مع بدء الخلل فى أجهزتهم ، أو مغيب الشمس ، أيهما أسبق .

سأله الرئيس ، فى خفوت ، يشف عن انفعاله :

ـ ألا تعتقد أنهم يعانون منها ؟!

هزّ القائد الأعلى رأسه نفيًا ، وأجاب :

ـ إنها تعزلهم تمامًا عنا ، فلا تصل اتصالاتهم لنا ، ولا تصل إشاراتنا لهم ، أما خارجها وداخلها ، فكل شىء يسير على ما يرام .. ستعمل أجهزتهم بمنتهى الكفاءة ، ما دامت ترصد ما يدور فى نطاق تلك الظاهرة ، حتى تتضاعف سرعتها ، وتبدأ فى التأثير فى الجانبين ، ولا أحد يمكنه التنبؤ ، بما يمكن أن يحدث ، إذا ما حاولت حوّامة عبور ذلك السوار الرهيب .

مال الرئيس إلى الأمام ، قائلاً :

ـ وكيف يمكننا أن نواجه أمرًا كهذا ؟!

أجابه القائد الأعلى فى حزم :

ـ منذ ساعة واحدة ، كان بإمكاننا مواجهتها بالمقاتلات والصواريخ ، أما الآن ، فسنحتاج إلى سلاح أقوى .

وصمت لحظة ، ثم أضاف فى صرامة :

ـ أقوى بكثير ..

وكان هذا يعنى حتمية اتخاذ القرار الحاسم ..

فورًا ..

★ ★ ★

كان (نور) يتوغل فى ذلك الكهف الغامض المخيف ، عندما بدأ ذلك الخرير يرتفع رويدًا رويدًا ..

وتوقف (نور) ..

لم يكن من الممكن أن يخطئ ذلك الصوت ..

أبدًا ..

إنه خرير مياه ..

مياه تنساب من مكان ما ..

وتوقف (نور) ، وراح يدير ضوء مصباحه فيما حوله ؛ بحثًا عن مصدر ذلك الخرير ..

ولكن كل الجدران كانت جافة ..

وكذلك الأرضية ..

جافة تمامًا ..

« (نور) .. ماذا يحدث عندك ؟! »

انطلق صوت (سلوى) بالجملة فجأة ، فى انفعال جارف ، عبر جهاز الاتصال الخاص ، فانتفض جسد (نور) ، ثم أجاب فى توتر :

ـ لست أرى شيئًا .. ماذا ترصدين أنت ؟!

هتفت فى انفعال :

ـ مياه .

انعقد حاجبا (نور) ، وهو يقول :

ـ إننى أسمع خريرها ، ولكننى لست أراها ..

جاءه صوت ابنته (نشوى) هذه المرة ، وهى تهتف :

- أبى .. الأجهزة التى تحملها ، تحدد موقعك بدقة .. وهذا يعنى أن المياه تحيط بك من كل جانب الآن .

ازداد التقاء حاجبى (نور) فى شدة ، وهو يدير مصباحه فيما حوله ، بكل توتر الدنيا ..

المكان كله كان جافًا ..

لا توجد به آثار للمياه ..

على الإطلاق ..

وعلى الرغم من هذا ، فصوت الخرير يعلو ..

ويعلو ..

ويعلو ..

ومرة أخرى ، هتفت (سلوى) مذعورة :

- (نور) .. إنها تطبق عليك .

حاول أن ينطق ..

أن يقول شيئًا ..

أى شىء ..

ولكن الكلمات لم تخرج من بين شفتيه ..

على الإطلاق ..

انفعاله الجارف حبس فى حلقه الجمل ..

والكلمات ..

والحروف ..

« أبى .. ألأنت بخير ؟! »

حمل صوت (نشوى) كل توترها ، وهلعها ولوعتها ، وهى تصرخ بالسؤال ، فقاوم (نور) ذلك الشىء ، المطبق على لسانه ..

قاوم ..

وقاوم ..

وقاوم ..

وبكل قوته ، هتف :

- لا توجد مياه ..

وعلى الرغم منه ، خرج صوته محشرجًا ..

مختنقًا ..

خافتًا ..

عصبيًا ..

يائسًا ..

وبكل هلعها ، صرخت (سلوى) ، عبر جهاز الاتصال الخاص :

ـ عد يا (نور) .. عد بأقصى سرعة .. أرجوك .

ودون أن ترجوه ، كان هذا ما قرره هو بالضبط ..

أن يغادر ذلك الكهف الرهيب ..

بأقصى سرعة ..

وبأى ثمن ..

ولكن شيئًا ما كان يكبل قدميه ..

وصوت الخرير كان يعلو ..

ويرتفع ..

ويشتد ..

ويصم أذنه ..

ويضيع تركيزه تمامًا ..

وعلى الرغم من هذا ، كان كل شىء من حوله جافًا ..

تمامًا ..

وكان على (نور) أن يستجمع إرادته ..

وقوته ..

وعزمه ..

وحزمه ..

و ....

وينطلق ..

وفجأة ، وجد نفسه يصرخ :

ـ سأعود .

قالها ، وقدمه تندفع إلى الأمام ، فى طريق العودة ..

ومع هبوطها ، على أرضية الكهف ، سمع صوت ارتطامها بالمياه وتوقف دفعة واحدة ..

وانتفض جسده بعنف ..

بمنتهى العنف ..

وبكل ذهول الدنيا ، حدّق فيما كان من حوله جافًا تمامًا ، منذ لحظة واحدة ..

بل منذ أقل من لحظة ..

ففجأة ، بدت له الأرض مغمورة بالمياه ..

والجدران كلها تنزف ..

تنزف بآلاف من شلالات المياه الصغيرة ..

وصوت الخرير يعلو ..

ويعلو ..

ويعلو ..

أما قدماه ، فكانتا تغوصان فى مياه ، ارتفاعها شبر كامل على أقل تقدير ..

وتضاعف ذهول (نور) ..

بل بلغ ذروته ..

فالمياه كانت تنهمر من الجدران فى تدفق مدهش ..

ومنسوبها فى أرضية الكهف يعلو ..

ويعلو ..

ويعلو ..

ووفقًا لكل القواعد العلمية ، كان هذا مستحيلاً ..

فالكهف مفتوح على الخارج ..

وفتحته فى منسوب يقل عن أرضيته ..

هذا يعنى أنه من المحتم أن تندفع تلك المياه الغزيرة خارجه ، فى سرعة مدهشة ..

لا أن تعلو على هذا النحو ..

ولثوان ، وقف (نور) يحدق فيما يحدث فى ذهول ، قبل أن ينتفض جسده كله فى عنف ، وهو يهتف :

ـ إنها ليست مياه طبيعية .

نطقها ، وهو يلتقط علبة شفافة من حزام أدواته ، وينزع غطاءها ، ثم ينحنى ليلتقط فيها كمية من تلك المياه ..

كانت قد بلغت ركبتيه ، وبدت باردة ..

باردة كالثلج ..

وفى حرص زائد ، ثبت (نور) العلبة مرة أخرى ، فى حزام أدواته ، ثم راح يتحرك ، على ضوء مصباحه ، ليشق طريق العودة ..

مسيرته تلك ، أكدت له أنها ليست مياهًا طبيعية حتمًا ..

إنه يدفع جسده عبرها فى صعوبة ، كما لو أنها نوع مشتق من الزئبق ، وليس مجرد مياه عادية ..

وفى أعماقها ، كانت هناك قوة عجيبة ، تعيق تقدمه ..

شعر وكأن آلاف الأيادى المائية تمسك قدميه ..

وساقيه ..

وركبتيه ..

إنها ليست مياه عادية حتمًا ..

« أبى .. إننا لم نعد نراك .. »

صرخت (نشوى) بالعبارة ، عبر جهاز الاتصال الخاص ، فتوقف ، هاتفًا :

ـ أنا هنا يا (نشوى) .

لم يبد أنها قد التقطت صوته ، وهى تهتف فى رعب :

ـ أين أنت ؟

التقى حاجباه مرة أخرى ، وهو يهتف :

ـ (نشوى) .. (سلوى) .. هل تسمعاننى ؟!

أتاه صوتهما تتحدثان ، و(سلوى) تقول فى هلع :

ـ رباه ! أين ذهب ؟!

أجابتها (نشوى) مرتجفة :

ـ لست أدرى يا أمى .. كل شىء متشابك ومرتبك هنا .. ماذا يحدث ؟!

خلع (نور) جهاز الاتصال فى عصبية ، وفحصه بسرعة ، قبل أن تتضاعف حيرته أكثر ..

وأكثر ..

وأكثر ..

كل شىء فى جهاز الاتصال عنده ، يعمل بمنتهى الكفاءة ..

دليل الأعطال الإلكترونى لا يشير إلى خلل ..

أى خلل ..

وهو يسمعهما فى وضوح ..

المشكلة فى أجهزتهما إذن ..

هذا هو التفسير الوحيد ..

وكمحاولة أخيرة ، وبكل قوته ، صرخ :

ـ (سلوى) .. (نشوى) .. أنا هنا .

لم يبد من حوارهما أنهما تسمعانه ، على الرغم من أن الجهاز ظل ينقل إليه حديثهما فى وضوح ..

كانت (سلوى) تقول :

ـ لقد أصابه مكروه .. أنا واثقة من هذا .

أجابتها (نشوى) :

ـ أمى .. لن أحتمل الفكرة .. ربما هو عيب فى نظم الاتصال فحسب ..

غمغمت (سلوى) مرتجفة :

ـ ربما ، ولكننى ..

بترت عبارتها بغتة ، وسمعها (نور) تهتف :

ـ رباه ما هذا ؟! ماذا يحدث فى الخارج ؟

وهتفت (نشوى) بعدها :

ـ ما هذه الأضواء ؟!

سمع وقع أقدامهما ، وهما تعدوان خارج خيمة الأبحاث ، فصرخ عبر جهاز الاتصال :

ـ لا .. لا تذهبا .

كانت المياه قد بلغت وسطه ، إلا أنه لم ينتبه إلى هذا ، وهو يدفع قدميه دفعًا ، فى تلك المياه ، التى صارت أكثر شبهًا بالزئبق(*) ، وقد امتلأ قلبه برعب لا مثيل له ..

رعب ، اشترك فيه ذلك الكهف ..

ومياهه الثقيلة ..

والظلام ..

والغموض ..

والخرير ..

والتساؤل ..

وبينما يحاول الاهتداء بجهاز تحديد الاتجاه الرقمى ، للعودة إلى مدخل الكهف ، نقل إليه جهاز الاتصال الخاص صوتًا ، توقف له قلبه بين ضلوعه ..

(*) الزئبق : عنصر فلزى ، يقع فى الصف الثانى من الجدول الدورى ، عدده الذرى (٨٠) ، ووزنه الذرى (٢٠٠,٥٩) ، ونقطة انصهاره (ـ ٣٨,٨٧°م) ويتميز عن باقى العناصر بخاصيتين غير عاديتين ، فهو المعدن الوحيد السائل ، فى درجة حرارة الحجرة ، وهو أثقل سائل معروف ، وكثافته عالية جدًا .

صوت صرخة رعب بعيدة ، من (سلوى) و(نشوى) ..

وبكل انفعاله ، صرخ :

ـ (سلوى) .. (نشوى) .. أين أنتما ؟!

ولكنه ، فى هذه المرة ، لم يتلق جوابًا ..

أى جواب ..

★ ★ ★

« سنستخدم قنبلة نووية محدودة .. »

نطق الرئيس العبارة فى حزم ، فانعقد حاجبا القائد الأعلى ، وهو يغمغم :

ـ قنبلة نووية ؟!

أومأ رئيس الجمهورية برأسه إيجابًا ، وقال فى توتر حازم :

ـ علماؤنا ابتكروا ، منذ فترة ليست بالقصيرة ، ذلك النوع من القنابل النووية ، محدود الإشعاع والتأثير ، وأفضل ما فيها هو أنه يمكن إلقاؤها ، من ارتفاع كبير جدًا ، ولقد حلقت طائرة خاصة بالفعل ، منذ دقيقة واحدة ، حاملة قنبلتين من ذلك الطراز ، لتلقياهما فوق الهدف مباشرة .

اتسعت عينا القائد الأعلى ، وهو يهتف :

ـ رباه ! (نور) وفريقه ! كان ينبغى أن نمنحهما فرصة للنجاة !

أجاب الرئيس ، فى توتر شديد :

ـ إننا نعجز تمامًا عن الاتصال بهم ، وتحذيرهم ، أو حتى إبلاغهم .

وصمت لحظة ، ثم أضاف فى عصبية :

ـ ثم إن مصير الحضارة كلها فى كفة ، ومصير (نور) ورفاقه فى الكفة الأخرى ، فمن تظنهم يختارون ، لو أنهم هم أصحاب القرار .

صمت القائد الأعلى بضع لحظات ، ثم أجاب فى حزم :

ـ أظنهم قد حسموا اختيارهم ، أكثر من مرة من قبل يا سيادة الرئيس .

انخفض صوت الرئيس بشدة ، وهو يهمس :

ـ بالضبط .

ثم استعاد صوته وحزمه ، وهو يضيف :

ـ على أية حـال ، بعد ست عشرة دقيقة بـالضبط ، سيحسم الأمر كلـه ، وسنكون قد أنقذنـا جيلنـا ، وكـل الأجيال القادمة .

تمتم القائد الأعلى فى أسى :

ـ وخسرنا أعظم فريق علمى ، فى كل الأجيال .

التقط الرئيس نفسًا عميقًا ، وتنهد فى قوة ، قبل أن يغمغم :

ـ أكان هناك حل آخر ؟!

كتم القائد الأعلى كل انفعالاته ، عبر غصـة فى حلقـه ، وهو يجيب :

ـ كـلاً ..

وصمت لحظة ، ثم أضاف ، بكل مرارة الدنيا :

ـ للأسف .

وبدت كلمته أشبه بدمعة ..

دمعة كبيرة ..

ساخنة ..

★ ★ ★

كل رعب الدنيا تجمد ، فى قلب (نور) ..

وبكل قوته ، راح يشق طريقه ..

ويضرب المياه بقدميه ..

ويتقدم ..

ويتقدم ..

ويتقدم ..

ووفقًا لجهاز تحديد الاتجـاه ، كـان المفترض أن يجد مدخل الكهف ، عند المنحنى التالى ..

ولكن المياه كانت تزداد كثافة أكثر ..

وأكثر ..

وأكثر ..

كل خطوة يخطوها ، أصبحت تحتاج إلى جهد ، يفوق البشر ..

كل خطوة ..

لذا ، فقد بـدأ (نـور) يلهث ، ويشـعر بـآلام فـى فخذيه ، وساقيه ، وقدميه ..

وبلغ المنحنى ..

ورأى مدخل الكهف ..

والسماء من خلفه ..

و ....

وتجمد فى مكانه ..

فمدخل الكهف كان هناك ..

ولكن السماء التى بدت من خلفه ، لم تكن تشبه أية سماء ، رآها فى حياته ..

حتى سماء (أرغوران)[*] ..

كانت أشبه بشفق قطبى[**] ، اشتعلت فيه نيران ، من مختلف الألوان ..

(★) راجع قصة (جحيم أرغوران) .. المغامرة رقم (٥٩) .

(★) الشفق القطبى : أضواء قطبية ، تشاهد بصفة أسلسية ، فى ارتفاعات عليا ، فى كل من القطب الشمالى (الشفق الشمالى) ، والقطب الجنوبى (الشفق الجنوبى) ، ويظهر غالبًا فى شكل حزمة ضوئية ، مختلفة الألوان ، سببها دخول الجسيمات الشمسية ، فى مجالات المغناطيسية الأرضية .

نيران مستعرة ..

رهيبة ..

متصلة ..

هائلة ..

ووسط كل هذا ، كانت تنطلق صواعق ..

صواعق بالعشرات ..

أو المئات ..

أو الآلاف ..

ولكن المدهش ، أن هذا كله يحدث بلا صوت ..

بلا أدنى صوت ..

تمامًا ، كما لو أنها فيلم يعرض ، على شاشة هائلة ، فى دار للصم والبكم ..

وأمام ذلك المشهد الرهيب ، تجمد (نور) فى مكانه لحظات ..

لقد دخل الكهف ، منذ ساعة واحدة ، وترك خلفه عالمًا عاديًا ..

معروفًا ..

ومألوفًا ..

فماذا حدث ؟!

مـاذا ؟!

مـاذا ؟!

وعلى امتـداد بصره ، شـاهد الميـاه ، التـى تجـاوزت وسطه ، وقد توقفت عند مدخل الكهـف ، كمـا لـو أن حـاجزًا خفيًّا ، قويًّا ، شفافًا ، يمنعها من الاندفاع خارجه ..

المشهد كله كان مخالفًا لكل ما اعتاده (نور) فى حياته ..

أو حتى فى مغامراته ..

أو خياله ..

كل شىء ..

وبكل انفعاله ، صرخ :

ـ ماذا يحدث ؟! ماذا يحدث ؟!

بدا وكأن كثافة المياه المحيطة به قد تضاعفت أكثر ..

وأكثر ..

وأكثر ..

وكانت أنفاسه مجهدة ..

مرهقة ..

متقطعة ..

ولكن إرادته ، وذعره على زوجته وابنتـه ، كانـا يفوقـان كل ما يشعر به ، مما جعل يدفع قدميه ، عبر ذلك السـائل ، الذى بدا أشبه بجيلاتين نصف متماسك ..

قاتـل ..

وقاتل ..

وقاتل ..

وأخيرًا ، بلغ مدخل ذلك الكهف ..

وبدت له الصورة رهيبة أكثر ..

منسوب المياه كان ينتهى عند المدخل تمامًا ، وشفافيتها تجعله يرصد تلك السماء الرهيبة خلفها ..

ولكنه لم يستطع رؤية القاع ..

لم يستطع رؤية ذلك الوادى الصخرى ، حيث (سـلوى) و(نشوى) ، وخيام الأبحاث ..

لذا ، فقد دفع جسده مرة ثانية ..

وثالثة ..

ورابعة ..

وأخيرًا ، أصبح عند المدخل مباشرة ..

خطوة واحدة ، ويصبح خارج المكان ..

خطوة ، بدت عسيرة ..

عسيرة للغاية ..

فالمياه من حوله صارت سميكة ..

متماسكة ..

قاسية ..

باردة كالثلج ..

وأصبح تحريك قدميه مستحيلاً ..

حتى لخطوة واحدة ..

لقد حاول ..

وحاول ..

وحاول ..

ولكنه لم يستطع أن يخطو تلك الخطوة قط ..

وبكل القهر والعجز فى أعماقه ، صرخ :

ـ لماذا ؟! لماذا تفعلون هذا بنا ؟!

لمــاذا ؟!

ترددت صرخته فى كل أنحاء الكهف ..

وارتجفت لها المياه ..

ارتجفت كما لو أنها قد سمعت ..

وفهمت ..

واستجابت ..

وتفاعلت ..

وبلا مقدمات ، راود (نور) شعور عجيب ..

شعور بأنه ليس وحده ..

بل وسط كائنات عديدة ..

كائنات لا حصر لها ..

وسط شعب كامل ..

أو حضارة كاملة ..

ومرة أخرى ، صرخ :

ـ لماذا ؟! لماذا ؟!

وقبل حتى أن تكتمل صرختـه هـذه المـرة ، تموجـت المياه بعنف شديد ..

ثم راحت حرارتها ترتفع ..

وترتفع ..

وترتفع ..

وتحرر جسده منها دفعة واحدة ..

لم يدر ماذا حدث ، ولكنـه وثب ؛ ليقطع تلك الخطـوة الأخيرة ..

وتجاوز مدخل الكهف ..

وأصبح خارجه ..

ثم توقف ذاهلاً ، وعيناه تتسعان عن آخرهما ..

فما رآه ، فور خروجه من الكهف كان مذهلاً ..

بكل الصور ..

* * *

٨ ـ لغـز الألغـاز ..

« مـاذا ؟! »

هبَّ رئيس الجمهورية من مقعده ، فى حركة عنيفـة ، وهو يهتف بالكلمة ، قبل أن يحدق فى وجه القائد الأعلى للمخابرات العلمية ، قائلاً فى انفعال :

ـ أعد ما قلته مرة أخرى يا رجل .

تنحنح القائد الأعلى ، فى محاولة لتخفيف توتره ، قبل أن يجيب :

ـ تلك الظاهرة ، التى لم نجـد لهـا تفسـيرًا .. توقفت دفعة واحدة يا سيادة الرئيس .

عاد الرئيس يحدق فيه بضـع لحظـات ، قبل أن يهز رأسه فى قوة ، متسائلاً فى عصبية :

ـ ماذا تعنى بأنها قد توقفت ؟!

هزَّ الرجل كتفيه ، وهو يجيب فى لهجة ، شفَّت عن حيرته وقلقه :

ـ كان علماؤنا يتابعون رصدها وتسجيل تطوراتها ، عندما توقفت بغتة ، وبلا مقدمات ، وعاد كل شىء إلى ما كان عليه ؛ وكأن شيئًا لم يكن .

حدق الرئيس فى وجهه للمرة الثالثة ، وهو يقول :

ـ هكذا ؟! بهذه البساطة ؟!

تنهد القائد الأعلى فى عمق ، قبل أن يجيب :

ـ المدهش والمحير يا سيدة الرئيس أن هذا قد حدث بالفعل بهذه البساطة ، حتى إنه أذهل علماءنا تمامًا .

عاد الرئيس إلى مقعده ، متمتمًا بأنفاس مبهورة :

ـ هذا كفيل بإذهال أى مخلوق .

قال القائد الأعلى فى حزم ، لم يخل من توتره :

ـ ذهول العلماء يختلف ، يا سيادة الرئيس ؛ فهو ذهول يستند إلى أسس وقواعد علمية .

تمتم الرئيس :

ـ حقًا ؟!

تابع القائد الأعلى فى انفعال :

ـ كل الظواهر الطبيعية ، يا سيادة الرئيس ، لا يمكن أن تنشأ من العدم ، أو تنتهى إلى فراغ مباغت .. هناك حتمًا مقدمات وتوابع(*) ، فلكى تنشأ ظاهرة ما ، لابد وأن تمنحنا بعض العلامات والمؤشرات ، التى تتنبأ بقدومها ، والتى تشعر بها بعض الحيوانات ، فتبدأ فى التوتر ، على نحو يشف عن قرب وقوع الحدث ، وعندما تنتهى الظاهرة ، أيًّا كانت ماهيتها ، تترك خلفها مرحلة انتقالية ، تعود فيها الأمور إلى سابق عهدها ، أما فى تلك الظاهرة ، التى جزم الكل بأنها ليست طبيعية حتمًا ، نشأ كل شىء بلا مقدمات ، وانتهى دفعة واحدة ، بلا توابع .

صمت الرئيس لحظة حائرة ، قبل أن يتساءل :

ـ وما الذى يمكن أن يعنيه هذا ؟!

هز القائد الأعلى رأسه ، مجيبًا :

ـ لا أحد يعلم .

وللمرة الرابعة ، حدق الرئيس فيه لحظات ، إلا أنه لم يلبث أن هبَّ من مقعده بحركة حادة ، هاتفًا :

(*) حقيقة علمية .

ـ ولكن القنبلة النووية المحدودة .

اتسعت عينا القائد الأعلى عن آخرهما ، وكأنما تذكر هذا الأمر على التو ، وهتف :

ـ رباه !... (نور) وفريقه ..

ثم مال على مكتب الرئيس ، مستطردًا بكل الانفعال :

ـ لابد من إلغاء عملية محو تلك المنطقة فورًا يا سيادة الرئيس .. لابد .

امتقع وجه الرئيس ، وهو يقول :

ـ ولكن .. ولكن هذا مستحيل !

ألقى القائد الأعلى نظرة سريعة على ساعته ، قبل أن يقول ، فى انفعال متصاعد :

ـ ليس مستحيلاً يا سيادة الرئيس .. بقيت دقيقتان ، على لحظة القصف .. يمكنك أن تأمر بإلغاء المهمة ، وعودة الطائرتين ، وسيكون لدينا حتمًا مايكفى من الوقت لـ ...

قاطعه الرئيس فى حدة :

ـ أخبرتك أن هذا مستحيل !

هتف القائد الأعلى فى حدة ، وكأنما أنساه الانفعال أنه فى حضرة رئيس الجمهورية :

ـ ولماذا مستحيل ؟!

تضاعف توتر الرئيس ، وهو يشيح بوجهه ، قائلاً :

ـ فى الحالات القصوى ، عندما يتعلق الخطر بأمر نجهل ماهيته ، تم اعتماد أسلوب خاص للغاية ، فى وزارة الدفاع .. نحن نتروى كثيرًا فى اتخاذ قرار الهجوم ، أو توجيه الضربة الوقائية ، وعندما يستقر رأينا عليهما ، يصدر الأمر بوساطة كود خاص وسرى ، وشديد التعقيد ، يتم تأمينه رقميًا وإلكترونيًا ، من خلال ثلاثة من أجهزة الكمبيوتر المتقدمة ، فى ثلاثة أماكن سرية مختلفة من البلاد ، وهنا تنطلق الطائرات لتنفيذ الأمر ، وتنقطع اتصالاتها تمامًا بنا ، بحيث لا يتمكن أى خصم متقدم من خداعها ، وإقناعها بالعدول عن تنفيذ الضربة ، بأية وسيلة كانت .

احتقن وجه القائد الأعلى ، وهو يقول :

ـ سيدى الرئيس .. هل تعنى أن ...

أجاب الرئيس ، قبل أن ينتهى القائد الأعلى من سؤاله :

ـ نعم .. لاتوجد أية وسيلة فى الوجـود ، لمنـع ذلـك القصف ، أو حتى تغيير الهدف ..

واتسعت عينا القائد الأعلى ، بكل ارتياع الدنيا ..

فعلى الرغم من أن القصف بالقنابل النووية المحدودة ، كـان يبدو لـه فـى البدايـة الحل الأمثـل ، لهذا الموقـف العجيب ، إلا أنه ، فـى تلك اللحظات ، أصبـح الوسيلة الوحيدة ، التى ستقضى على (نور) وفريقه ، وكل من ابتلعهم ذلك الكهف الغامض ..

بعد دقيقة واحدة ..

وإلى الأبد ..

★ ★ ★

خارج الكهف ، توقف (نور) يحدق فيما أمامه ، فى ذهول تام فالصورة التى توقعها ، لم تكن أبدًا تلك التى وجدها ..

على الإطلاق ..

ما رآه من داخل الكهف ، كان يوحـى بأنـه قد انتقل إلى عالم آخر ، أو بعد آخر ..

بعد مختلف ..

وحشى ..

جهنمى ..

رهيـب ..

بعد لن يجد فيه شيئًا مما ألفه ، أو عرفه فى عالمه ..

ولكنه ، بوثبة واحدة ، وجد نفسه فى إطـار مختلـف تمامًا ..

فى عالمه ..

نفس العالم الطبيعى ، الذى تركـه خلفه ، قبـل أن يدخل الكهف ..

سماء صافية ..

زرقاء ..

ممتدة إلى مدى البصر ..

وغيوم قليلة ..

بيضاء ..

متناثرة ..

وبين الجبال الثلاثة الضخمة فى المنطقة ، كان يمتد ذلك الوادى الصخرى المألوف ..

وفيه استقرت خيام الفريق ..

كل شىء ، كان يختلف تمامًا عما رآه من داخل الكهف ، منذ لحظة واحدة ..

كل شىء ..

وبحركة حادة ، استدار يتطلَّع إلى ذلك الكهف ..

ثم تضاعف ذهوله ..

ألف مرة ..

فالكهف لم يكن قط كما تركه .

لقد كان هادئًا ..

صامتًا ..

ساكنًا ..

وجافًا !!

ودار رأس (نور) فى شدة ..

ما التجربة التى خاضها بالضبط ؟!

أوهم ما رآه ، وسمعه ، وخبره ؟!

مجرد وهم ؟!

مستحيل !

مستحيل !

وألف مستحيل !

لقد خاض الوهم وواجهه مرات عديدة من قبل .

وهو لم يكن بهذا الوضوح ..

أبدًا ..

ما رآه لم يكن وهمًا ..

يمكنه أن يقسم على هذا .

ألف مرة ..

أو أنه تصور هذا ..

للحظة واحدة ..

ثم لم تلبث ثقته هذه أن انهارت دفعة واحدة ..

كلاً ..

لا يمكنه أن يقسم بهذا ..

لا يمكنه أن يثق مائة فى المائة ، فى أن ما اختبره ليس نوعًا جديدًا ، أو شديد التطور من الوهم ..

لا يمكنه هذا .

ولكن كل هذا لا يهم الآن ..

المهم هو (سلوى) .. و(نشوى) ..

وبكل سرعته وقدرته ، راح يهبط نحو المخيم الصغير ، وهو يصرخ :

- (سلوى) .. (نشوى) .. أين أنتما ؟!

لم يتلق أية استجابةً من المخيم فتضاعف خوفه وهلعه أكثر ..

وأكثر ..

وأكثر ..

ولم تتوقف صرخاته لحظة واحدة ، وهو يصرخ باسميهما ..

كان أقصى ما يتمناه ، أن يكون ما هو فيه الآن جزءًا من الوهم ..

جزءًا من خيال ، يتجاوز كل الحقائق ..

ولكنه بلغ المعسكر ..

وانتفض جسده كله فى عنف ..

الأجهزة كلها كانت فى موضعها ، وكل البيانات التى التقطتها مسجلة ، على قرص مدمج صغير عالى الكثافة ، داخل جهاز (سلوى) ..

كل الخيام أيضًا كانت سليمة ..

ولكن (سلوى) و(نشوى) لم تكونا هناك ..

بل لم يكن لهما أدنى أثر ..

ووسط المخيم وقف (نور) ، يصرخ مكررًا بكل قوته :

- لماذا ؟! لماذا ؟!

دفن وجهه بين كفيه ، وجسده كله ينتفض على نحو عجيب ..

كان الموقف يفوق قدرته على الاحتمال ، لأول مرة فى حياته ..

لقد جاء يبحث عن مفقودين ، ففقد الجميع ..

(أكـرم) ..

(رمزى) ..

(سلوى) ..

وحتى ابنته (نشوى) ..

ولأول مرة ، يجد ذهنه عاجزًا عن التوصُّل إلى تفسير ..

أى تفسير ..

وبكل انفعاله ، صرخ :

ـ أهو وهم ؟! أهو مجرد وهم ؟!

كان يتمنى لو يرفع كفيه عن عينيه ، فيجد أن كل شىء قد عاد إلى أصله ، وأن كل ما حدث ، منذ وصولهم إلـى ذلك المكان مجرد وهم ..

أو حلم ..

أو خيال ..

ولكنه رفع كفيه على عينيه ، فوجد كل شىء على ما هو ..

واد صخرى جاف ..

خيام خالية ..

جبال شاهقة ..

صمت مطبق ..

وكهف مخيف ، يتطلع إلى كل هذا بنظرة وحشية ساخرة ..

وشامتة ..

وبكل إرادته ، حاول (نـور) السيطرة على انفعالـه الجارف ، وهو يقول لنفسه :

ـ لا .. لا تفقد أعصابك وقدرتك على التركيز يا (نور) .. لاتمنح خصمك مايحتاج إليه لينتصر .. لاتستسلم لليأس .. لقد انتخبك القدر من بيـن جميـع الموجودين لتبقى .. هنـاك حكمة من هذا حتمًا .. هناك هدف ربـانى مـن بقـائك .. هيا يا (نور) .. ركـز أفكـارك .. استرجع كل مـا حـدث منذ البداية .. كل الأحداث ، والمعلومات ، والتفـاصيل .. هيا يا (نور) .. افعلها .. افعلها كما فعلتها من قبل .

صمت ، وراح يستجمع إرادته ..

كل إرادته ..

ويعتصرها ، اعتصارًا ..

وفى أعمق أعماق تلافيف مخه ، الرمادية والبيضاء ، راح يسترجع كل التقارير ..

والتفاصيل ..

والأحداث ..

وحتى الكلمات ..

راح يسترجع ..

ويرتب ..

ويحلل ..

ويبحث عن روابط ..

ومنطق ..

وتفاسير ..

ثم فجأة ، توقف تفكيره كله عند نقطة واحدة ..

عينة السائل الثقيل ، التى حصل عليها من داخل الكهف ..

لو أنها موجودة ، فسيعنى هذا أن كل ما رآه لم يكن وهما ..

أما لو لم تكن هناك ..

لم يحاول إتمام العبارة فى ذهنه ، وهو ينتزع العلبة بسرعة ، من حزام أدواته ، ويتطلع إليها فى انفعال شديد ..

العينة كانت داخل العلبة الشفافة بالفعل ..

ولكنها لم تكن سائلة ..

أو حتى جيلاتينية ..

بل كانت جافة تمامًا ..

كانت أشبه بالرمال ..

نفس الرمال التى وطئها بقدميه ، داخل ذلك الكهف ..

وانتفض جسده كله فى عنف ..

ما الذى يمكن أن يعنيه هذا ؟!

هل أصابه خبل ما ، داخل ذلك الكهف ، وتوهَّم كل ما رآه ، وانحنى يأخذ عينة من الرمال ، متصورًا أنها سائل ما ؟!

هـل ؟!

دار رأسه فى شدة ، وبدا له الأمر محيرًا أكثر ، وعيناه تزوغان فيما حوله ، قبل أن يتوقف بصره عند تلك البقعة ، التى يقع عندها ذلك الكهف ..

و .....

ارتفع رنين جهاز اتصاله الخاص فجأة ، فانتفض جسده فى عنف ، قبل أن يرفعه إلى شفتيه فى سرعة ، ويضغط زره ، هاتفًا :

ـ المقدم (نور) .

أتاه صوت القائد الأعلى ، وهو يهتف فى انفعال :

ـ (نور) .. حمدًا لله أن استعدنا الاتصالات أخيرًا .

قال (نور) ، فى دهشة عصبية :

ـ استعدتموها ؟! ماذا يحدث يا سيدى ؟!

أجابه القائد الأعلى ، بنفس الانفعال :

ـ كارثة يا (نور) .. كارثة ..

هتف (نور) ، وقد انتقلت إليه عدوى الانفعال :

ـ ماذا حدث ؟!

صاح القائد الأعلى ..

ـ سيقصفون منطقة الكهف ، بعد دقيقة واحدة يا (نور) ، بقنبلتين نوويتين محدودتين .

اتسعت عينا (نور) عن آخرهما ، ولم يستطع التفوه بحرف واحد ، فى حين تابع القائد الأعلى ، وانفعاله يتصاعد :

ـ لست أدرى ما الذى يمكنكم فعله يا (نور) ، ولكننا لانستطيع منع هذا .. رباه ! لقد قتلناكم يا (نور) .. قتلناكم ، إننا ...

وأنهى (نور) الاتصال دفعة واحدة ، وكأنما لا يحتمل سماع المزيد ..

وبحركة غريزية ، رفع عينيه إلى أعلى ، يبحث عن طائرتى القصف ..

المنطقة كلها ستفنى بعد أقل من دقيقة واحدة ..

ستفنى تمامًا ..

وسيفنى معها آخر أمل فى عودة المفقودين ..

لو أن هذا كان ممكنًا ..

بل وستفنى معها حياته أيضًا ..

والوقت يمضى فى سرعة ..

فى أقصى سرعة ..

وما من مهرب من هذا ..

إلا ..

توقف بصره وتفكيره بغتة ، عند مكان واحد ، بدا أنه ، قد يحمل آخر أمل فى النجاة ..

ذلك الكهف ..

لم يدر ، لماذا قفز إلى ذهنه بغتة ، ولكن ربما لأن كل ما يتعلق به ، يخالف دومًا كل قواعد الطبيعة المألوفة ..

ربما ..

ودون أن يضيع لحظة أخرى ، فى تفكير إضافى ، أسرع (نور) يتسلق الجبل أمامه ، لبلوغ الكهف ..

وفى اللحظة نفسها ، وصلت طائرتا القصف إلى الهدف ، وحدد البرنامج الرقمى لكلتيهما اللحظة المناسبة بالضبط ..

وبدقة آلية ، لا تحتمل الخطأ ، أسقطت الطائرتان قنبلتيهما .. وكانا انفجارين رهيبين ، ارتجت لهما (سيناء) كلها ، من أقصاها إلى أقصاها ..

انفجارين أبادا وأفنيا منطقة الهدف ..

بكل ما عليها ..

ومن عليها ..

* * *

انتهى الجزء الأوَّل بحمد الله

ويليه الجزء الثانى بإذن الله

(الخطر الجاف)

باسل
Www.dvd4arab.com

روايات مصرية للجيب

ملف المستقبل
سري جدًّا !!

154

الزئبق الجاف

د. نبيل فاروق

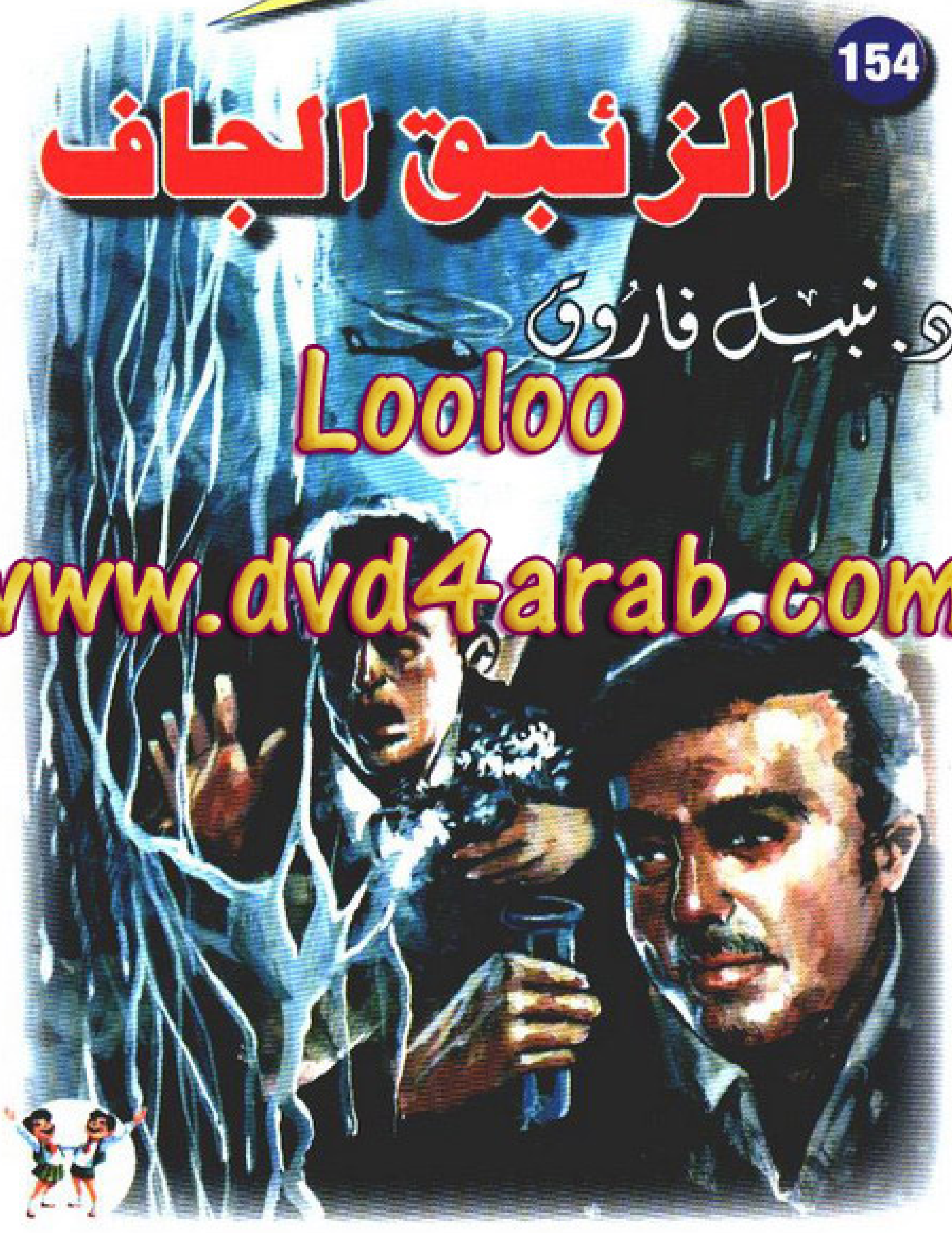

Looloo
www.dvd4arab.com

ملف المستقبل

فى مكان ما من أرض (مصر) ، فى حقبة ما من حقب المستقبل ، توجد القيادة العليا للمخابرات العلمية المصرية ، يدور العمل فيها فى هدوء تام ، وسرّية مطلقة ، من أجل حماية التقدّم العلمى فى (مصر) ، ومن أجل الحفاظ على الأسرار العلمية ، التى هى المقياس الحقيقى لتقدم الأمم .. ومن أجل هذه الأهداف ، يعمل رجل المخابرات العلمية (نور الدين محمود) ، على رأس فريق نادر ، تم اختياره فى عناية تامة ودقة بالغة ..

فريق من طراز خاص ، يواجه مخاطر حقبة جديدة ، ويتحدّى الغموض العلمى ، والألغاز المستقبلية ..

إنها نظرة أمل لجيل قادم ، ولمحة من عالم الغد ، وصفحة جديدة من الملف الخالد ..

ملف المستقبل .

د. نبيل فاروق

1 ـ ضياع ..

« تمَّ محو المشكلة من الوجود يا سيادة الرئيس .. »

تلقّى رئيس الجمهورية الرسالة الصوتية ، عبر جهاز اتصاله الخاص المؤمَّن ، فانعقد حاجباه ، وتطلّع فى صمت إلى القائد الأعلى للمخابرات العلمية ، والذى بدا من الواضح أن الألم يعتصره بشدة ، وهو يغمغم :

ـ رباه ! (نور) وفريقه .

تمتم رئيس الجمهورية بدوره ، فى خفوت شديد :

ـ لم تكن هناك وسيلة أخرى لدرء الخطر .

نطقها ، والذاكرة تنطلق بكليهما إلى ذكرى قريبة .. قريبة للغاية ..

إلى تلك اللحظة ، التى بدأ فيها كل هذا التوتر ، عندما اختفى عالم الأنثروبولوجيا الدكتور (أنور شعبان) ، مع فريق بحث محدود ، داخل كهف غامض ، فى أحد جبال (سيناء) ..

اختفوا ، دون أن يتركوا خلفهم أدنى أثر ..

على الإطلاق ..

وكان من الطبيعى أن يتم إسناد مهمة البحث عنهم ، إلى أقوى فريق علمى ، فى الإدارة كلها ..

فريق (نور) ..

ومنذ اللحظة الأولى ، لم يشعر (نور) بالارتياح قط ، لهذه المهمة بالذات دون أن يحدّد فى أعماقه سببًا لهذا ..

ومنذ هبطت بهم الحوّامة ، فى الوادى الذى يتوسط الجبال الثلاثة ، حيث يقع ذلك الكهف الغامض ، تضاعف شعوره بعدم الارتياح ..

ألف مرة ..

عبارة واحدة ، تركها الدكتور (أنور) خلفه ، كانت تثير فيه كل هذه الانفعالات العجيبة ..

عبارة قال فيها : « إن ما يراه ينتمى إلى سلسلة تطوّر مختلفة .. »

وهذا يعنى أن ما رآه ، داخل ذلك الكهف ، قبل أن يختفى ، شىء غير ما اعتاد رؤيته ، فى أى مكان فى العالم ..

بل ولا يشبهه حتى ...

لقد رأى شيئًا ينتمى إلى حضارة أخرى ..

أو على حد قوله ، سلسلة تطوّر مختلفة ..

والعبارة كانت تضع أمام (نور) عشرات الاحتمالات ..

أو أكثر .. بكثير ..

فهى قد توحى بحضارة لا أرضية ..

أو لا بشرية ..

أو حتى لا مادية ..

كل الاحتمالات كانت واردة ، خاصة وأن الدكتور (أنور) لم يحاول ترك أى تفسير لعبارته ..

واختفى مع فريقه ..

وهناك ، عند تلك المنطقة الغامضة ، واجه (نور) وفريقه أهوالاً تفوق الوصف ..

وتوصلوا إلى حقائق مدهشة ..

فالكهف ، وكل ما به ، لا يشبه إطلاقًا طبيعة المنطقة المحيطة به ..

بل ولا ينتمى إليها حتمًا ..

ثم إنه لم يكن هناك من قبل ..

كل الخرائط القديمة ، وحتى الحديثة ، لم تشر إلى وجوده قط ..

وهذا يضيف لغزًا جديدًا ..

ومخيفًا ..

ثم اختفى (أكرم) ..

اختفى فجأة ، دون أن يترك خلفه أدنى أثر ..

وتبعه (رمزى) ..

وتضاعف توتر (نور) ، ألف ألف مرة ..

وبمبادرة شجاعة ، قرَّر أن يقتحم ذلك الكهف الرهيب ، ليكشف أسراره ، ويبحث فى خباياه عن رفيقيه ..

وهناك ، واجه (نور) أغرب تجربة فى حياته ..

وأعنفها ..

وأخطرها ..

وفى الوقت ذاته ، كان خبراء مركز الأبحاث العلمية يحذرون من أن تلك المنطقة ، توشك على التهام (مصر) كلها كبداية ، والعالم كله فيما بعد ..

ولم يكن هناك سوى حل واحد ، لتفادى ذلك المصير البشع ..

نسف المنطقة كلها ، بقنبلة نووية محدودة ..

بل محوها محوًا ..

ولكن الاتصال بـ (نور) وفريقه لم يكن ممكنًا ..

والخطر كان يتزايد ..

ويتزايد ..

ويتزايد ..

ولم يعد من الممكن الانتظار ..

ولا حتى لإنقاذ (نور) ورفاقه ..

وبقلوب يدميها الألم ، وشجاعة لا تتوافر إلا للقادة ، أصدر الرئيس قراره بنسف المنطقة كلها ، حتى ولو اضطر للتضحية بأعظم رجال مخابرات عصره ..

المقدَّم (نور) ..

وبينما يقاتل (نور) ، داخل ذلك الكهف الرهيب ، ويجاهد لمقاومة سائل عجيب ، أحاط به من كل صوب ، ويستبسل للخروج من مأزقه ، كان الموقف خارج الكهف يشتعل ..

ويتطوّر ..

وعلى نحو بالغ الخطورة ..

ثم خرج (نور) ، مع عينة من ذلك السائل ..

وكانت فى انتظاره مفاجأة ..

مفاجأة رهيبة ..

إلى أقصى حد ..

زوجته وابنته أيضًا اختفيتا ..

كل رفاقه أصبحوا مفقودين هناك ..

عند ذلك الكهف الرهيب ..

وتضافرت كل العوامل ، لتضرب (نور) فى مقتل ..

رفاقه مفقودون ..

ظاهرة غامضة تواجهه ..

والطائرات تستعد لقصف المنطقة كلها ، بقنبلة نووية محدودة ..

ولم يكن هناك أمل فى النجاة ..

أدنى أمل ..

ولسبب مجهول ، لا يمكن وصفه ، أو إيجاد أى منطق مقبول له ، بدا لـ (نور) أن الأمل الوحيد ، فى نجاته من ذلك الانفجار النووى الوشيك ، يكمن هناك ..

فى قلب ذلك الكهف الغامض ..

وبلا تردُّد ، ولأنه ليس لديه ما يخسره ، انطلق (نور) مباشرة نحو الكهف ، والطائرات تقترب ..

وتقترب ..

وتقترب ..

ثم هوت القنبلة النووية على المكان ..

ودوى انفجار رهيب ..

انفجار ، محا المنطقة كلها من الوجود ..

بكل ما عليها ..

ومن عليها(*) ..

(★) راجع الجزء الأول (المفقودون) ... المغامرة رقم (153) .

لقد قضى الأمر ، على الرغم من أن الخطر قد زال بالفعل ، قبيل أن تسقط القنبلة بدقيقتين كاملتين ..

و ......

« كان ينبغى أن نوقف هذا بأى ثمن .. »

نطقها القائد الأعلى للمخابرات العلمية فى مرارة ، وهو يضرب قبضته اليمنى فى راحته اليسرى ، فأشار الرئيس بيده ، مغمغمًا فى أسى :

ـ سبق السيف العزل .. لم تكن هناك وسيلة لمنع هذا قط .

ثم اعتدل فى مقعده ، وأضاف ، محاولاً استعادة حزمه ، وطبيعته القيادية الحاسمة :

ـ ولم تكن أمامنا وسيلة أخرى كما تعلم .

غمغم القائد الأعلى :

ـ ربما .

ثم نهض ، مضيفًا فى مرارة :

ـ وعلى أية حال .. لقد قلتها يا سيادة الرئيس .. سبق السيف العزل .

بدا وكأنه يهم بالانصراف مع نطقها ، فأشار إليه الرئيس بالانتظار ، وهو يسأله فى قلق :

ـ متى سيمكننا التيقن من النتائج ؟!

توقف القائد الأعلى ، محاولاً إزاحة مشاعره جانبًا ، وتصفية ذهنه لدراسة طبيعة الموقف ، قبل أن يجيب :

ـ آثار القنبلة النووية المحدودة ستحتاج إلى عشرين ساعة ، قبل أن تنجلى ، وتصبح المنطقة آمنة للفحص ، وعندئذ ، سنرسل فريق بحث .

سأله الرئيس :

ـ وماذا عن صور الأقمار الصناعية ، والأشعة دون الحمراء ؟!

مطَّ القائد الأعلى شفتيه ، مغمغمًا :

ـ فى وجود التأثير النووى المحدود ، لا يمكننا استخدام هذا أو ذاك .

التقط الرئيس نفسًا عميقًا ، قبل أن يقول فى توتر :

ـ هذا يعنى إذن أننا ، ولمدة عشرين ساعة كاملة ، سنظل كالعميان ، حتى تنجلى تلك الآثار .

زفر القائد الأعلى فى توتر أكثر ، وهو يقول :

ـ للأسف يا سيادة الرئيس .. سنظل كذلك ، طوال الساعات العشرين القادمة ، وسنظل كالضائعين ، نسأل أنفسنا .. ترى كيف انتهى الأمر ؟! كيف ؟! كيف ؟!

وبدا له ، وهو ينطقها ، أن سؤاله ظلّ معلقًا فى سماء حجرة مكتب الرئيس ..

بلا صدى ..

وبلا جواب ..

على الإطلاق ..

★ ★ ★

الانفجار كان رهيبًا ..

عنيفًا ..

ساحقًا ..

فلقد سقطت القنابل النووية المحدودة ، فى ذلك الوادى ، بين الجبال الثلاثة ، فى قلب (سيناء) ، حيث نصب فريق (نور) خيامه ، ووضع كل معداته المتطوّرة ..

ومع الانفجار ، انسحق كل هذا سحقًا ..

لم يتطاير حتى فى الهواء ، وإنما تحوّل فى لحظة واحدة إلى حطام ..

وشظايا ..

وغبار ..

الجبال ظلت صامدة ، إلا أن معالمها تغيَّرت تمامًا ..

صخورها احترقت ..

وذابت ..

وتحطمت ..

وتفجَّرت ..

كهوفها انسحقت ، وأغلقت ، وطمرتها أطنان من الأحجار والغبار ..

وفى السماء ، تكوَّنت سحابة مخيفة قاتمة ، إثر انحسار ذلك الشكل المخيف ، الشبيه بفطر عش الغراب ، الناجم عن الانفجار النووى المحدود ..

ثم هطلت الأمطار على المنطقة كلها ..

أمطار حمضية ، نفَّاذة الرائحة ، غمرت المنطقة كلها ، وتصاعدت مع سقوطها أبخرة خفيفة ، توحى بتفاعلها مع التربة ..

أما ذلك الكهف الغامض ، فقد اختفى ..

اختفى من الوجود ..

تمامًا ..

وبدا من الواضح أن معالم المنطقة كلها قد تغيَّرت ..

وإلى الأبد ..

ولقد دوى ذلك الانفجار مرتين ..

مرة فى قلب الوادى ..

ومرة فى عقل (نور) ..

فى أعمق أعماق عقل (نور) ..

لقد تلقَّى اتصال القائد الأعلى ، الذى حذره من الانفجار ، بعد أن صدمه اختفاء زوجته وابنته ، عندما كان يكافح ذلك السائل العجيب ، فى أعماق الكهف الغامض الرهيب ..

وعلى الرغم من كل ما واجهه وعاناه ، تعلَّق بصره وفكره ، فى تلك اللحظة العصيبة ، بالشىء الوحيد ، والمكان الوحيد ، الذى ربما يحمل لمحة من الأمل ..

بالكهف ..

وبكل طاقته ، راح يتسلَّق الصخور ، حتى بلغ ذلك الكهف ، ووثب داخله .

وهوت القنبلة النووية المحدودة ..

ودوى الانفجار ..

ومع دويه ، شعر (نور) بارتجاج عنيف ، شمل كل خلية من خلايا مخه ، الرمادية والبيضاء ..

بل شعر وكأن مخه قد انفجر داخل جمجمته ..

ولجزء من الثانية ، تصوَّر أن هذا مفعول ذلك الانفجار النووى المحدود ، الذى حدث خارج الكهف ..

ثم انتبه فجأة إلى أنه ليس كذلك ..

فعبر مدخل الكهف ، رأى ذلك الانفجار يحدث فى الخارج ، كما لو أنه على شاشة سينما قديمة ..

نيران ، ودخان ، ولهب ، وصخور تتناثر ، وتتساقط ، وانفجارات ، وشظايا ..

ثم فجأة ، اختفى كل هذا ..

تلاشى المشهد فجأة ، كما لو أن آلة السينما التى تعرضه ، قد أصيبت بعطب مفاجئ ، وتحولّ مدخل الكهف إلى ظلام داكن رهيب ..

وبعدها ساد صمت عجيب ..

صمت لا يشبه أى صمت ، شعر به (نور) ، فى حياته كلها ..

صمت تام ..

كامل ..

مخيف ..

حتى حركة (نور) ، لم يعد لها صوت ..

أدنى صوت ..

وبسرعة مخيفة ، راحت الجدران كلها تفرز ذلك السائل الشبيه بالماء ، والذى أخذ يرتفع ..

ويرتفع ..

ويرتفع ..

وفى هذه المرة ، لم يحاول (نور) المقاومة ..

لم يبذل حتى أدنى محاولة ..

شىء ما فى أعماقه ، جعله يتصورّ أنه قد مات بالفعل ، وأن كل ما يحيط به مجرد هذيان أنفاس أخيرة ..

وفى هذه المرة ، ارتفع السائل حتى صدره ..

ثم تجاوزه إلى عنقه ..

فذقنه ..

واقترب من فمه وأنفه ..

وهنا تلفَّت (نور) حوله ، وكأنما يبحث عن وسيلة للنجاة ، من ذلك السائل ، الذى كاد يغمره تمامًا ..

ولكن العجيب أنه لم يحاول الفرار من مكانه ..

فقط ظلّ واقفًا ..

صامتًا ..

مستسلمًا ..

وتجاوز السائل فمه ..

وأنفه ..

وجبهته ..

ثم ارتفع فى لحظة واحدة ؛ ليبلغ سقف الكهف ..

ولم يعد هناك سنتيمتر واحد من الهواء ..

وأيضًا لم يحاول (نور) المقاومة ..

شىء ما كان يسيطر على عقله ، ويدفع فى أعمق أعماقه طمأنينة عجيبة ، وكأنما اعتاد هذا طوال عمره ..

وفى بطء ونعومة ، راح ذلك السائل يتموَّج ..

ويتموَّج ..

ويتموَّج ..

ومع تموجاته الدافئة ، انطلق عقل (نور) يطرح عشرات الأسئلة والاستفسارات ..

القاعدة العلمية البسيطة تقول : إن السوائل عندما ترتفع ، تزيح الهواء من المكان الذى تحتله تمامًا ..

فأين ذهب هذا الهواء ؟!

ومن أين جاء السائل ؟!

هناك حتمًا نظام دفع وطرد ، يحكم هذه اللعبة كلها ..

تمامًا كما يحدث فى الغواصات ..

نظام يطرد الهواء ، ويدفع السائل ، أو العكس ، وفقًا للموقف المنشود .. السؤال التالى إذن هو : ما الموقف المنشود ؟!

أهو صعود ..

أم هبوط ..

أم انتقال بين الأبعاد ..

أم بين الزمان والمكان ..

ما الذى يحدث بالضبط ؟!

ذلك الكهف منفصل حتمًا عما حوله ، وإلا لما بقى متماسكا ، بعد قصف المنطقة بقنبلة نووية محدودة ..

إنه يعلم ، بحكم دراسته وعمله ، تأثير تلك القنبلة الرهيب ..

يعلم أنها قادرة على محو منطقة كاملة من الوجود ..

ولكنها لم تؤثِّر فى ذلك الكهف العجيب ..

توقف عن الاستطراد فى أفكاره فجأة ، عندما انتبه إلى أن السائل يغمره تمامًا ، من سقف الكهف وحتى أرضيته ..

ولكنه لم يختنق !

لم يشعر بحاجة إلى الهواء ..

بل ولم يحاول حتى أن يتنفس !!

ردود الفعل المنعكسة التلقائية فى مخه ، لم تشعر بافتقار خلاياه إلى الأكسجين ، ولم تدفع رئتاه إلى العمل ..

وهذا يخالف قوانين الطبيعة ..

كل قوانين الطبيعة ..

وفى ذهنه ، لم يكن هناك سوى تفسير واحد لكل هذا ..

أن ذلك السائل لا يحيط به فعليًا ..

إنه وهم ..

مجرد وهم ..

إحساسه بالسائل ، وتغيراته ، ودفئه ، وكثافته ، كلها مجرد وهم ..

وهم ..

وهم ..

وهم ..

لم تكد .. تلك الفكرة تختمر فى رأسه ، حتى تغيَّر قوام ذلك السائل فجأة ، فراحت كثافته تتزايد ..

وتتزايد ..

وتتزايد ..

فى البداية ، أصبح أشبه بالزئبق ..

ثم كالهلام ..

وبعدها تماسك ، حتى لم يعد باستطاعة (نور) أن يتحرك ذراعيه أو ساقيه ، أو حتى يدير رأسه ..

عندئذ فقط ، شعر (نور) بتثاقل فى أنفاسه ، وراح يختنق ..

ويختنق ..

ويختنق ..

ومع اختناقه ، راح يقاوم فى عنف ، إلا أن ذلك السائل ، الذى بدا أشبه بالهلام الثقيل ، كان يكبل حركته تمامًا ..

ثم فجأة ، وبالسرعة نفسها ، راحت درجة حرارته تنخفض ، كما لو أنه يتعرض لوسيلة تبريد رهيبة ..

وخلال ثوان قليلة ، شعر (نور) أنه يتجمَّد ..

شعر بآلام مبرحة ، فى كل خلية من جسده ..

وحاول عقله أن يجد وسيلة للخلاص ..

حاول ..

وحاول ..

وحاول ..

إلا أن البرودة كانت تتزايد بسرعة مخيفة ، حتى تجمَّدت أطرافه كلها ..

وبعدها تجمَّدت مشاعره ..

وانفعالاته ..

وأفكاره ..

ثم ثبتت عيناه ، وكأنما فارقته روحه ..

وعند هذه المرحلة ، راح الضوء العجيب من حوله يخبو ..

ويخبو ..

ويخبو ..

ثم أظلمت الدنيا كلها ..

تمامًا ..

★ ★ ★

2ـ حضـــارة ..

الجميع كانوا هناك ..

سلوى ..

نشوى ..

وأكرم ..

ورمزى ..

وحتى الدكتور (أنور) وفريقه ..

الجميع كانوا هناك ، فى ذلك المكان العجيب ..

لم يكن يشبه أى شىء رآه (نور) ، فى حياته كلها من قبل ..

كانت هناك جدران مائية ، ترتفع لتصنع حواجز ، تخالف كل قوانين الطبيعة ..

جدران باردة كالثلج ..

أو أكثر برودة ..

وفى حذر شديد ، تطلّع (نور) إلى ما حوله ..

الجميع كانوا داخل فقاعات مائية ضخمة عجيبة ..

نائمين ..

أو فاقدى الوعى ..

أو ربما أمواتًا ..

لا يمكنه أن يجزم بأى شىء ، من موقعه هذا ..

ولكن لماذا بقى وحده حرًا ، بلا أية فقاعات تحيط به ؟!

لمـاذا ؟!

لمـاذا ؟!

تحرّك فى حذر ، ليتيقّن من أنه على حق ..

وكان على حق ..

لا توجد حوله أية فقاعات ..

وحده قادر على التحرُّك بحرية ، فى ذلك المكان العجيب ..

وبنفس الحذر ، نهض من رقدته ، وانتبه لأوّل مرة ، إلى أنـه كان يرقد فوق كتلة من ذلك السائل ..

كتلة متماسكة ، دافئة ، لينة ..

تمامًا كالزئبق ..

ولكنها شفافة تمامًا مثل الماء ..

تحسَّس تلك الكتلة بيده ، وحاول أن يدفع أصابعه داخلها ، فاندفعت فى يسر وسهولة ، وتحوَّل السائل من حولها إلى كرات متماسكة ، بفعل التوتر السطحى(*) ..

تمامًا كما يفعل الزئبق(**) ..

وبكل حيرته ، تساءل (نور) : ألك الجدران السائلة أيضًا من النوع نفسه .. أرجأ هذا السؤال ، ليتجه فى لهفة إلى ابنته (نشوى) ، التى ترقد ساكنة ، داخل فقاعة كبيرة ، تسبح فى فراغ المكان ..

وللمرة الأولى ، انتبه إلى أن تلك الفقاعات ليست كروية ، كما يفترض فى أية فقاعة ، طبقًا لقاعدة التوتر السطحى نفسها ..

كانت بيضاوية الشكل ، شديدة المرونة ، كما لو أنها مصنوعة خصيصًا ، لتحتوى تلك الأجساد البشرية ..

(*) التوتر السطحى : مصطلح يطلق على الشد ، الذى يحدث فى سطح السائل ، نتيجة القوى الجزيئية العمودية عليه ، والتى تشده إلى داخل السائل ، وتجبره على أن يسلك سلوك الغشاء المشدود .

(**) الزئبق : عنصر فلزى ، يقع فى الصف الثانى من الجدول الدورى الحديث ، رقمه الذرى (80) ، ونقطة انصهاره (ـ 38.87°م) ، ونقطة غليانه (356.8°م) ، وهو أثقل سائل معروف ، وهو العنصر الفلزى الوحيد ، الذى يصبح سائلاً ، فى درجة حرارة الحجرة .

ولكن هذا لم يكن يعنيه ، فى كثير أو قليل ..

كل ما اهتم به ، هو أن يلصق عينيه بسطح الفقاعة المرن ، لينظر إلى حركة صدر ابنته ..

ولثوان ، راح قلبه يرتجف ، قبل أن يدرك أنها تتنفس ..

إنهم ليسوا موتى إذن ..

وهذا كل ما يهم ..

انتقل بعدها إلى تلك الجدران السائلة ، التى ترتفع أمامه ، لتصنع دائرة ، تحيط بهم جميعًا ..

وتضاعفت دهشته مرة ..

بل ألف مرة ..

فالجدران السائلة ، كانت تموج بحيوية مدهشة ، كما لو أن ذلك السائل يجرى فيها ، من أسفل إلى أعلى ، ومن أعلى إلى أسفل ، فى حركة متصلة لا تتوقف ..

ولقد أوحى إليه هذا بأن تلك الجدران ليست سائلة كما تبدو ..

ربما كانت جدرانًا زجاجية شفافة ، يجرى ذلك السائل بينها ، بفعل مضخات رأسية وسفلية ..

ولكن بصره لم يمكنه من تبيُّن هذا ..

لذا ، فقد مد يده فى حذر ، نحو أحد الجدران ، ولمسه بأطراف أصابعه ، و ....

وتراجع بحركة حادة ، كالمصعوق ..

لا توجد أية جدران زجاجية ..

أو حتى غير زجاجية ..

لقد لامست أنامله ذلك السائل مباشرة ..

واتسعت عينا (نور) عن آخرهما ..

فما يراه أمامه ، كان يخالف كل قانون فيزيائى ، فى الكون كله ..

وهذا مستحيل !

مستحيل !

وألف مرة مستحيل !

تراجع محدقًا فى تلك الجدران المحيطة به ، فى توتر شديد ، ثم أدار عينيه فى المكان ، قبل أن يهتف فى عصبية :

ـ ما الذى يعنيه هذا بالضبط ؟!

بدا له أن صوته يتردد بصدى عجيب ، فى أعماق عقله ..

إلا أنه لم يبلغ أذنيه قط ..

لقد انطلق الهتاف فى داخله ، ولم يتجاوز قط شفتيه ..

تضاعف توتره ، مع إدراكه هذا ، وراح يتلفت حوله فى عصبية بالغة ، محاولاً أن يفهم شيئًا ، مما يدور فى ذلك المكان العجيب ..

ثم فجأة ، لاحظ ذلك الظل ، خلف أحد الجدران السائلة ..

ظلاً بشريًّا ..

أو شبه بشرى ..

وتوترت كل ذرة ، فى كيان (نور) ، وهو يتطلَّع إلى ذلك الظل ، الذى راح يقترب ، من الجانب الآخر للجدار السائل ..

ويقترب ..

ويقترب ..

ثم اخترق ذلك السائل ..

وتجمَّدت مشاعر (نور) لحظة ..

تجمَّدت مع أطرافه ، وهو يحدِّق فى تلك البقعة من الجدار ، حيث تجمَّع السائل كله فى منطقة الاختراق ، ثم تناثر فى شكل كرات مختلفة الأحجام ؛ ليسمح لذلك الشخص بعبوره ..

واتسعت عينا (نور) ..

وعبر ذلك الشخص الجدار ..

وانتفض جسد (نور) بعنف ..

بمنتهى العنف ..

فذلك الذى عبر الجدار السائل ، كان شخصًا لا يمكن أن يتواجد فى مثل هذا المكان ..

على الإطلاق ..

★ ★ ★

« هذا تطوّر غير طبيعى على الإطلاق .. »

نطق رئيس فريق العلماء العبارة ، فى توتر ملحوظ ، وهو يقف أمام القائد الأعلى للمخابرات العلمية ، الذى انعقد حاجباه فى شدة ، وهو يتراجع فى مقعده ، متسائلاً :

ـ ما الذى يعنيه هذا بالضبط ؟!

وضع العالم أمامه مجموعة من التقارير ، التى تحوى معادلات ومصطلحات علمية معقدة ، وهو يجيب بنفس التوتر :

ـ المفترض ، وفقًا لكل النظريات والقوانين العلمية ، أن تنحسر آثار القنبلة النووية المحدودة ، خلال عشرين ساعة تقريبًا ، وهذا أحدث ما توصل إليه العلم ، فى تحجيم الانبعاث الإشعاعى النووى ، الناجم عن القنابل المحدودة ، ولكن ما يحدث فى هذه الحالة ، هو أن الإشعاع ينحسر بسرعة تفوق هذا بكثير ..

اعتدل القائد الأعلى ، وهو يسأله :

ـ ألا يمكن أن تكون هناك أية عوامل ، يمكن أن ...

قاطعه رئيس فريق العلماء فى توتر ، دون أن ينتبه إلى ما فى مقاطعته من مجافاة للذوق والقواعد :

ـ لا توجد أية عوامل يا سيدى .. من الناحية التى أمكننا رصدها على الأقل .

ثم مال نحوه ، مضيفًا ، فى لهجة تحمل رنة عصبية :

ـ ثم إن سرعة الانحسار ، أكبر من أن يستوعبها أى عامل علمى معروف .

تساءل القائد الأعلى ، فى حذر ، لم يدرك هو نفسه مغزاه :

ـ كم سيستغرق هذا الانحسار ، وفقًا لملاحظاتكم ، ورصدكم ؟!

تردَّد رئيس الفريق لحظة ، قبل أن يجيب ، فى عصبية شديدة :

ـ ساعة واحدة .

اتسعت عينا القائد الأعلى فى دهشة بالغة ، وكاد يثب من مقعده ، وهو يهتف :

ـ مستحيل ؟!

أومأ رئيس الفريق برأسه ، مؤكدًا إجابته السابقة ، فانعقد حاجبا القائد الأعلى فى شدة ، وتراجع فى مقعده ، مغمغمًا :

ـ كيف ؟! كيف يمكن أن يحدث هذا ؟! سرعة الانحسار ارتفعت عشرين ضعف سرعتها المعهودة !! ما الذى يمكن أن يعنيه هذا ؟!

ارتجف صوت رئيس فريق العلماء ، وهو يقول :

ـ لا يمكن أن يعنى سوى أمر واحد .

وصمت لحظة ، ازدرد خلالها لعابه ، قبل أن يضيف فى حزم :

ـ هناك قوى ما ، تعمل على سحب النشاط الإشعاعى من المنطقة ، على نحو يفوق كل تقديراتنا وإمكانياتنا .

اتسعت عينا القائد الأعلى ، وانقبضت أصابعه فى توتر ، فتابع رئيس الفريق فى عصبية :

ـ وهذا يعنى أننا ما زلنا نواجه تكنولوجيا شديدة التطوّر ، تفوق كل ما وصلنا إليه ، فى عصرنا هذا .

شعر القائد الأعلى بتوتر لا محدود ، وهو يتمنى لو يغوص فى مقعده ، أمام ذلك اللغز ، الذى ما زال يواصل إرباك أعظم علمائه ، بعد أن فقد أخطر وأنجح فريق علمى ، فى (مصر) ..

بل فى العالم أجمع ..

وبعد دقيقة كاملة من الصمت ، اعتدل القائد الأعلى فى مقعده ، وقال :

ـ أريد تقريرًا عن تطوّر الموقف ، كل عشر دقائق ، وأريد أن يجتمع الكل لدراسة الظاهرة وتطوراتها ، والبحث عن الحلول اللازمة للتعامل معها .

واستعاد صوته قوته وصرامته ، وهو يضيف :

ـ سنرجئ كل الأمور الأخرى مؤقتًا ، ولنمنح هذا الموقف أولوية مطلقة .. أريد حسمه قبل أن تنتهى هذه الساعة .

تردَّد رئيس الفريق ، وتنحنح فى عصبية ، جعلت القائد الأعلى يسأله فى حدة :

ـ ماذا هناك أيضًا ؟!

تردَّد الرجل لحظة أخرى ، قبل أن يجيب :

ـ الواقع أن دراساتنا قد استغرقت نصف الساعة تقريبًا ، و ...

قاطعه القائد الأعلى فى عصبية :

ـ وماذا ؟!

التقط رئيس الفريق نفسًا عميقًا وأجاب فى سرعة ، قبل أن يفقد شجاعته :

ـ ولم يتبق أمامنا سوى نصف الساعة فحسب ، وبعدها .. الله ـ سبحانه وتعالى ـ وحده يعلم ، ماذا سيكون مصيرنا !

وفى هذه المرة ، اتسعت عينا القائد الأعلى ، ولم يحر جوابًا .. أى جواب !

★ ★ ★

بمنتهى الذهول ، حدَّق (نور) فى ذلك القادم ..

وبكل ما تفجَّر فى أعماقه من انفعالات ، هتف :

ـ أنت ؟!

ثم انطلقت صرخة من أعمق أعماق حلقه ، مكملة :

ـ إذن ، فهو حلم .

ابتسم (محمود) ابتسامته العجيبة الهادئة ، وهو يقول :

ـ ليس حلمًا يا (نور) .. إنه أمر يتجاوز هذا بكثير .

غمغم (نور) ، وهو يدير عينيه مرة أخرى فيما حوله ، وكأنما يحاول التيقن من حقيقة ما يمر به :

ـ يتجاوزه ؟!

أومأ (محمود) برأسه إيجابًا ، وقال :

ـ الحلم يا (نور) هو تعبير عن صراع ما ، بين العقل الواعى والعقل الباطن ، ومحاولة لإصلاح ورتق مشكلات الواقع ، بأحلام وآمال المستقبل ، وهذا يعنى أنه فى مجمله ليس مرتبطًا بالواقع ، أو حتى بالمنطق .

أشار (نور) لما حوله ، وهو يقول متوترًا :

- وماذا عما حولنا هنا ؟!

اتسعت ابتسامة (محمود) ، وأشار بدوره إلى رأس (نور) ، وهو يقول ، بصوت بدا شديد العمق :

- رؤيا يا (نور) .. اتصال عقلى بينى وبينك .. إنها وسيلتى الوحيدة ، للولوج إلى عقلك ، وايصال رسائلى إليك .

سأله (نور) ، وقد غلب اهتمامه توتره :

- ولماذا دومًا ، فى مثل هذه الظروف ؟!

بدا ارتياح عميق ، فى صوت (محمود) ، وهو يقول :

- كان ينبغى أن أتوقع أنك ستتوصلّ إلى هذا ، بعقليتك العلمية البوليسية الفريدة ؛ فمن المدهش يا (نور) أنك واقعى للغاية ، وعلى الرغم من هذا ، فعقلك لديه قدرة نادرة ، على تخيّل أمور وأوضاع ، قد لايدركها البشر فى حياته قط .

راح عقل (نور) يهضم تلك الكلمات ، ويديرها فى أعمق أعماق مخه ، وهو يقول فى حذر :

- الاتصال بينى وبينك له شروط ، وظروف مناسبة إذن .

غمغم (محمود) بصوته العميق :

- بالضبط .

تابع (نور) ، فى شىء من الحماس :

- وأهم شروط حدوث الاتصال ، هو أن أكون أنا فى حالة استرخاء تام ، أو غيبوبة عميقة ، فى حين تكون أنت قلقًا بشأننا .

أشار (محمود) بسبّابته ، قائلاً :

- تمامًا كما يحدث فى الاتصال العقلى الفائق ، بين من يمتلكون الموهبة من البشر يا (نور) .. ففى حالة الاتصال الفائق (التليباثى) ، يكون المرسل دومًا فى حالة انفعال ، أو (أدرينيرجيا) ، والمستقبل فى حالة استرخاء ، أو (كولينيرجيا) (*) .

التقى حاجبا (نور) فى شدة ، وهو يتمتم :

- هو اتصال عقلى فائق إذن .

أشار (محمود) بسبّابته ، قائلاً فى حزم عميق :

- وليس حلمًا .

عاد (نور) يدير عينيه فيما حوله ، قبل أن يتساءل فى اهتمام بالغ ، امتزج بالكثير من التوتّر والقلق :

- ولكن لماذا ؟! لماذا حدث هذا الاتصال يا (محمود) ؟! ما الذى يقلقك بشأننا هذه المرة .

(★) هذا ما تقوله الدراسات الخاصة بالاتصالات فوق العقلية (التليباثى) .

مال (محمود) نحوه ، وبدا صوته شديد العمق ، كما لو أنه يأتى من بئر سحيقة ، وهو يجيب :

ـ مستقبلكم .. مستقبلكم يا (نور) .

تراجع (نور) بحركة حادة ، مغمغمًا :

ـ مستقبلنا ؟!

مع قوله ، تبدَّلت ملامح (محمود) فجأة ، واكتست بألوان وظلال غير بشرية ، فاتسعت عينا (نور) أكثر ..

وأكثر ..

وأكثر ..

وانتفض جسده ..

انتفض بمنتهى العنف ، عندما انبعث من بين شفتى الواقف أمامه صوت معدنى آلى ، يقول :

ـ (س ـ 18) فى خدمتك يا سيِّدى(★) .

وفى تلك اللحظة فقط ، هبَّ (نور) من رقاده ..

وبمنتهى الذهول ، حدَّق فيما أمامه ..

(★) راجع قصة (المقاتل الأخير) .. المغامرة رقم (47) .

وارتطم بصره ، فى لحظة استيقاظه ، بذلك الوجه الأخضر ، والعينين الحمراويين ، والزى المميَّز ، فهتف بكل دهشته :

ـ (س ـ 18) .

كان يتوقَّع سماع تلك العبارة الوحيدة ، المسجلة فى برنامج (س ـ 18) ، بكل اللغات المعروفة ..

إلا أنه لم يسمع شيئًا ..

كان ذلك الواقف أمامه نسخة طبق الأصل من (س ـ 18) ، إلا أنه بدا جامدًا ساكنًا ، كتمثال من الصلب المطلى ..

ولثوان ، تجمَّد (نور) فى مكانه ، محدقًا فى نسخة (س ـ 18) ، قبل أن ينهض فى حذر ، ويقترب منه ، ثم يتحسسه بأنامله ..

إنه ليس (س ـ 18) حتمًا ..

صحيح أن له نفس الملامح ، إلا أنه ليس هو ..

بل ، إنه ليس حتى معدنيًا ..

ملمسه يبدو أشبه بملمس المخمل ، أو شىء من هذا القبيل ..

وفى توتر بلا حدود ، أدار (نور) عينيه فيما حوله ، محاولاً معرفة أين هو بالضبط ..

كان وسط قاعة كبيرة مظلمة ، إلا من البقعة التى كان يرقد فيها ، والتى يقف على مقربة منها شبيه (س ـ 18) ..

ولم يكن بإمكانه تحديد مصدر الضوء بالضبط ..

ولكن ما أفزعه بحق ، هو ذلك الفراش ، الذى كان يرقد فوقه ، منذ لحظة واحدة ..

إنه نفس الفراش ، الذى رآه فى رؤياه ، منذ دقيقة واحدة ..

فراش شبه سائل ..

شفاف ..

رقيق ..

دافئ ..

ومتماسك ..

أما باقى القاعة ، فقد كان مظلمًا تمامًا ، حتى إنه يستحيل عليه رؤية ما به ، ولولا الصدى ، الذى يصنعه صوته ، لما أدرك حتى اتساع القاعة ، أو عمقها ..

راودته فكرة أن يتحرك داخلها ؛ ليكشف ما تحويه ، إلا أنه لم يلبث أن تراجع ، خشية أن يتجاوز بهذا حدود الأمان ، التى لا يدرى عنها شيئًا ..

ولدقيقة كاملة ، وقف فى مكانه ساكنًا ، يدير الأمور كلها فى رأسه ، قبل أن تملأ الصرامة ملامحه ، ويشد قامته فى وقفة عسكرية صارمة حاسمة ، ويقول بصوت مرتفع :

ـ حسنًا .. هأنذا هنا .. لقد انتصرتم .. وماذا بعد ؟!

سمع صدى صوته يتردَّد عدة مرات ، داخل القاعة الواسعة المظلمة ، فكرَّر بكل قوته :

ـ ماذا بعد ؟!

لثوان ، ظلَّ صدى صرخته يتردَّد دون جواب ..

ثم فجأة ، أضيئت القاعة كلها ..

وبضوء مبهر للغاية ..

ضوء أغشى عينى (نور) لنصف دقيقة كاملة ، أصابه خلالها اضطراب شديد ، قبل أن ينفرج جفناه فى بطء ، ويتطلع إلى ما تحويه تلك القاعة ..

وعندئذ ، انتفض جسده فى عنف ..

فما رآه من حوله ، فى عالم الواقع ، كان نسخة طبق الأصل ، مما رآه فى رؤياه ..

الفقاعات بيضاوية الشكل ..

والجميع داخلها ..

الجميع بلا استثناء ..

وقبل حتى أن تكتمل انتفاضتـه ، انشق أحد الجدران السائلة أمامه ، وظهر من خلفه ذلك الشىء ..

وكانت الانتفاضة أكثر عنفًا هذه المرة ..

فذلك الشىء كان رهيبًا بحق ..

وإلى أقصى حد ..

★ ★ ★

3ـ الشــىء ..

كل شىء بدا عجيبًا محيِّرًا ، بالنسبة لفريق علماء مركـز الأبحاث ، التابع للمخابرات العلمية المصرية ، وهم يحاولون سبر غموض ما يحدث هناك .. فى قلب (سيناء) ..

فمع الانحسار السريع للإشعاعات النووية المحـدودة ، مـن منطقـة الهدف ، كـانت كل وسـائل رصدهـم تسـتعيد قدراتهـا ، وترسل المزيد والمزيد من الصور والمنحنيات ، والمعلومات ..

ومع كل معلومة تصل ، كان الغموض يتضاعف ..

ويتضاعف ..

ويتضاعف ..

فعلى الرغم من أن القنابل النووية المحـدودة قد سحقت المنطقة كلها ، إلا أن صور الأقمار الصناعية ، ونتائج المسح الحـرارى ، كلها تشير إلى أن ذلك الكهف ما زال هناك ..

لقد تغيَّر موقعه ، ليتناسب مع تغيُّر التضاريس ، إثر الانفجار العنيف ، إلا أنه بقى كما هو ، بلا تغيير ..

نفس المدخل ..

والاتساع ..

وتلك الصخرة الكبيرة ، التى تخفى مدخله ..

وكان هذا ينافى أى منطق ..

أى منطق على الإطلاق ..

ولأن النتائج لا يمكن تصديقها ، فقد أعاد فريق العلماء فحص المنطقة ، وأعاد حساباته كلها مرة ..

وثانية ..

وثالثة ..

وفى كل مرة ، كان يحصل على النتائج نفسها ..

ذلك الكهف باق ..

مهما حدث ..

ومهما كانت الظروف ..

وبمنتهى اليأس ، غمغم رئيس فريق العلماء :

ـ هذا لا يصدَّق ..

أشار أحد العلماء بيده ، قائلاً :

ـ ولكنه حقيقة ، تواجهنا ساخرة طوال الوقت .

قلب رئيس الفريق كفيه ، فى حيرة مستسلمة ، وهو يقول :

ـ المشكلة أنه ينبغى أن نقدم تقريرًا وافيا ، بآخر ما لدينا من نتائج ، إلى القائد الأعلى مباشرة ، خلال سبع دقائق فحسب .

قال عالم آخر فى حسم :

ـ فلنفعل إذن .

تردَّد رئيس الفريق لحظة ، ثم قال فى عصبية :

ـ هل سنخبره بهذا ؟!

أجابه العالم ، فى حسم أكثر :

ـ سنخبره بما توصلنا إليه ، وسواء أرضاه هذا أم أزعجه ، فهى الحقيقة ، ومن الضرورى أن يعرفها كاملة ، غير منقوصة أو مُزَيَّنة ؛ حتى يمكنه اتخاذ القرار المناسب بشأنها .

اندفع آخر يقول :

ـ هذا صحيح .. مهمتنا ليست إسعاد المسئولين ، ولكن تبصيرهم بحقائق الأمور .

تردَّد رئيس الفريق مرة أخرى ، ثم لم يلبث أن تنهَّد ، قائلاً فى استسلام بائن :

ـ فليكن .

« مستحيل ! »

هتف القائد الأعلى بالكلمة فى ذهول ، وهو يطالع ذلك التقرير ، ثم رفع عينيه إلى رئيس الفريق ، هاتفًا فى استنكار :

ـ أتعنى أن ذلك الكهف لم يمس ؟!

أومأ رئيس الفريق برأسه إيجابًا ، وهو يقول فى توتر :

ـ كما لو أنه لم يتعرض قط لما حدث يا سيِّدى .

كرَّر القائد الأعلى :

ـ ولكن هذا مستحيل !

قالها ، ونهض من خلف مكتبه ، وعقد كفيه خلف ظهره ، وبدا وكأنه غارق فى أفكار شديدة التوتر ، طوال دقيقتين كاملتين ، قبل أن يلتفت مرة أخرى إلى رئيس الفريق ، قائلاً فى حزم :

ـ من الواضح أن الأمر يتجاوز إذن حدود سلطاتى وقدراتى .. يتجاوزها بكثير .

واحتبست أنفاس رئيس فريق العلماء ..

تمامًا ..

★ ★ ★

بانتفاضة قوية ، تراجع (نور) إلى الخلف ، وهو يحدِّق فى ذلك الشىء ، الذى يتقدَّم نحوه ..

وعلى الرغم من سعة اطلاعه ، وغرابة ما واجهه فى حياته ، وجد نفسه عاجزًا تمامًا عن توصيف ذلك الشىء ..

كان عبارةً عن تكوين مائى ..

كتلة من السائل ، تتحرَّك على نحو منتظم ، وتنبض بإيقاع واضح ، يؤكِّد أنها ، على الرغم من مظهرها .. حية ..

وخلال حركة ذلك الشىء ، كان يتشكَّل فى أكثر من هيئة ، ويصدر منه صوت أشبه بخرير المياه ..

وتراجع (نور) أكثر ، وذلك الشىء يتقدَّم نحوه ..

ويتقدَّم ..

ويتقدَّم ..

ثم توقف ذلك الشىء ..

توقَّف بالقرب من منتصف القاعة ..

ومع توقفه ، توقَّف (نور) أيضًا ..

ولدقيقة أو يزيد ، ظلّ كلاهما جامدًا فى مكانه ، وكأنما ينتظران اللحظة المناسبة للتواصل ..

ثم فجأة ، راحت كتلة السائل تتخذ هيئة جديدة ..

وانتفض (نور) ، وتراجع خطوة أخرى حادة ، قبل أن يحدّق فى ذلك الشىء بمنتهى التوتر ..

كانت كتلة السائل تتغيَّر ، وتستطيل ، وترتفع ، وتتخذ هيئة مألوفة بالنسبة لـ (نور) ..

هيئة بشرية ..

وخلال دقيقة واحدة ، أصبح أشبه بجسم بشرى سائل ..

وبدا الأمر أكثر مدعاة للدهشة والذهول ..

وفى توتر ، قال (نور) :

ـ فليكن .. لقد أثبت قدراتك .. ماذا بعد ؟!

فوجئ بالجواب يقتحم عقله ، بصوت أشبه بماء ينسكب :

ـ ماذا بعد .. إنك تفرط فى استخدام هذا المصطلح أيها المقدم !

اتسعت عينا (نور) ، وهو يقول فى عصبية :

ـ أهذا نوع من الاتصال العقلى الفائق ؟!

أجابه الصوت نفسه ، فى أعماق عقله :

ـ إنها وسيلة للتواصل أيها المقدّم ؛ فلغتنا تختلف عن كل اللغات المعروفة لديكم على السطح .

هم (نور) بإجابة العبارة ، إلا أنه لم يلبث أن توقَّف عند كلمة بعينها ، فقال فى دهشة متوترة :

ـ على السطح ؟! ماذا تعنى بهذا المصطلح ؟

صمت ذلك الشىء طويلاً هذه المرة ، ثم لم يلبث ذلك الصوت أن انسكب فى عقل (نور) ، قائلاً :

ـ من المؤكَّد أن ألف سؤال وسؤال يدور فى رأسك أيها المقدم ، فوفقًا لدراستنا ، أنت أكثر المجموعة ذكاءً وفضولاً .

تجاهل (نور) كل هذا ، وهو يكرِّر فى إصرار :

ـ ماذا تعنى بكلمة (السطح) هذه ؟!

كان ذلك الشىء أمامه يبدو مدهشًا للغاية ، مع تكوينه البشرى ، وملامحه المموَّجة بحركة السائل ، التى لا تتوقف لحظة واحدة ، من السريان فى التكوين بأكمله ، كما لو كان وعاءً زجاجيًّا مفرغًا ، يحوى محركًا قويًّا داخليًّا ، يقلب السائل طوال الوقت ..

ولقد صمت الشىء طويلاً ، إثر تكرار (نور) لسؤاله ، وبدا وكأن حركة السائل داخله قد تضاعفت ، قبل أن يعود ذلك الصوت إلى عقل (نور) ، حاملاً لمحة صارمة :

ـ لست هنا لتطرح الأسئلة .

وهنا عقد (نور) ساعديه أمام صدره ، وقال فى حزم :

ـ عظيم .. هذا يقودنا إلى السؤال التالى إذن .

وقسا صوته على نحو صارم ، وهو يضيف :

ـ لماذا نحن هنا بالضبط ؟!

كان يتوقع فترة انتظار وصمت أخرى ، إلا أنه فوجئ بالجواب يأتيه بسرعة ، عبر خلايا عقله :

ـ لتجيب أسئلتنا .

وعلى الرغم من بساطة الجواب ومباشرته ، شعر (نور) معه بشىء من الحيرة ، دعاه إلى الصمت ، وهو يحدق فى ذلك الشىء ، محاولاً إعادة ترتيب أفكاره ، وفهم ما يدور حوله ..

أما ذلك الشىء ، فقد ظلَ هادئًا ، صامتًا ، وكأنما ينتظر الجواب ، بكل الصبر والهدوء ..

ثم فجأة ، قال (نور) ، فى شىء من الحدة :

ـ ما أنت بالضبط ؟!

أجابه ذلك الصوت المنسكب فى عقله :

ـ وفقًا لمعلوماتنا ، كان ينبغى أن يكون التساؤل هو : من أنت ؟ وليس ما أنت ؟!

قال (نور) بمنتهى الحزم :

ـ كلا .. إننى أتساءل : ما أنت بالضبط ؟!

صمت ذلك الشىء لحظات ، ثم قال :

ـ لست أفهم ما تشير إليه .

بدا (نور) عنيفًا متحفزًا ، وهو يقول :

ـ بل أنت تفهم جيدًا ، ولكنك تراوغ لسبب ما ..

ثم اقترب منه فى حزم مضيفًا :

ـ وأنا أبغض المراوغة بكل أحوالها ، وأفضل المواجهات المباشرة الواضحة .

ظلّ ذلك الشيء صامتًا ساكنًا ، و(نور) يقترب منه ..

ويقترب ..

ويقترب ..

كل ما حدث ، هو أن حركة السائل راحت تتزايد ..

وتتزايد ..

وتتزايد ..

ومع تزايدها ، بدأ ذلك الشيء يتماسك أكثر ، في حين أخذت شفافيته تقل على نحو ملحوظ ، كما لو أنه يتحول من الحالة السائلة ، إلى حالة صلبة ، فقطع (نور) ما تبقى بينهما بقفزة واحدة ، ومد يده ليمسك ذلك الشيء ، قائلاً في صرامة :

ـ أخبرني ، ما الذي يحدث بالضبط ؟!

لم يكن قد أتم تساؤله ، عندما حدث فجأة أمر عجيب ..

عجيب للغاية ، حتى أن جسد (نور) كله قد انتفض بعنف وذعر..

بمنتهى العنف ..

ومنتهى منتهى الذعر ..

★ ★ ★

صمت رئيس الجمهورية طويلاً ، وهو يطالع تلك الصور ، المباشرة والحرارية التي تم رصدها ، من موقع الانفجار ، وركّز اهتمامه لدقيقتين كاملتين ، على ذلك الكهف ، الذي اكتفى بإبدال موقعه ، في المنطقة نفسها ، ثم لم يلبث أن أطلق من أعماق صدره زفرة ملتهبة ، وتراجع في مقعده ، قائلاً :

ـ من الواضح أننا نواجه أمرًا لا قِبل لنا به ، ولن تجدي معه قوانا .

قال القائد الأعلى في توتر :

ـ ولا يمكننا السكوت عنه أيضًا يا سيادة الرئيس .

أشار الرئيس بيده ، قائلاً :

ـ وماذا يمكننا أن نفعل ؟!

لم يجد القائد الأعلى جوابًا للسؤال ، فاكتفى بالتلويح بذراعيه ، وهو يتجه نحو منتصف الحجرة ، ثم لم يلبث أن غمغم :

ـ لهذا كنا نحتاج إلى (نور) وفريقه .

قال الرئيس في عصبية :

ـ من المؤكّد أنه لدينا فرق علمية أخرى .

تنهَّد القائد الأعلى ، مغمغمًا :

ـ بالتأكيد .

كان يريد أن يضيف أن أى فريق من فرق المخابرات العلمية ، لن يقارن أبدًا بفريق (نور) ، إلا أنه احتفظ بهذا فى أعماقه ، وهو يقول :

ـ ولكن ما من فريق سيضيف المزيد لما لدينا ..

ثم التفت إلى الرئيس ، مضيفًا :

ـ سنرسل فرقة مسلحة .

تساءل الرئيس فى دهشة :

ـ وماذا يمكن أن تفعل ؟!

أجاب القائد الأعلى فى سرعة :

ـ لا شىء .

ومع تضاعف الدهشة ، على وجه الرئيس ، أكمل بنفس السرعة :

ـ التدخل العسكرى لن يكون مجديا ، مع أمر كهذا ، نجهل تمامًا ماهيته وقدراته ، ولكن الفرقة ستحاصر المنطقة ، وستكون إشارة دائمة إلى أننا نتابع الموقف ، ونستعد لمواجهته ، و ....

لم يستطع إتمام عبارته ، فأطبق شفتيه ، وتطلع إلى الرئيس ، الذى انعقد حاجباه ، وراح يدير الأمر فى رأسه ، محاولاً فهم ما سيفضى إليه ..

وبينما يتطلعان إلى بعضهما البعض ، خيم عليهما صمت عميق ..

صمت حائر ..

مضطرب ..

ورهيب ..

★ ★ ★

رد فعل ذلك الشىء للمسة (نور) ، كان عجيبًا للغاية ..

فقبلها بلحظة واحدة ، كان كيانًا سائلاً ، يموج بالحركة المتصلة ، ويومض بضوء متغيِّر مدهش ..

ثم لمسه (نور) ..

وفى لحظة واحدة ، تحوّل ذلك الشىء ، من الحالة شبه السائلة ، إلى الحالة الصلبة ..

ودفعة واحدة ..

وما أن لمسه (نور) ، حتى تحوَّل فجأة إلى كتلة من التراب ، تساقطت أرضًا ، لتصنع كومة صغيرة ، عند قدمى رجل المخابرات العلمية ..

وبكل دهشته ، حدَّق (نور) فى تلك الكومة ..

فما حدث أمام عينيه ، كان يكسر كل قوانين الفيزياء المعروفة ..

ذلك الشىء تحوَّل بقفزة واحدة ، من الحالة شبه السائلة ، إلى الحالة الصلبة ، دون المرور بأية مراحل وسيطة ..

شىء اشبه بعكس حالة (التسامى)(*) ، المعروفة فى الفيزياء الطبيعية ..

ثم تراجع (نور) ..

تراجع فى حذر شديد ، وعيناه معلقتان بكتلة الرمال ..

ولثوان ، ظلَّ كل شىء ثابتًا جامدًا ، قبل أن تحدث فجأة ظاهرة أخرى ، أكثر إثارة للدهشة ..

فكتلة التراب تلك استعادت بغتة حالتها السائلة ، وأيضًا بقفزة واحدة ، ثم راحت تسرى على الأرضية اللامعة للمكان ، كما لو أن شيئًا ما يجذبها ، نحو تلك الجدران السائلة العالية ..

(*) التسامى : حالة تتحوَّل فيها المادة ، من الحالة الصلبة ، إلى الحالة الغازية ، دون المرور بالحالة السائلة .

وعندما بلغتها ، امتزجت بها ، وتعادلت معها ، وأصبحت جزءًا منها ..

وعاد السكون يخيِّم على القاعة كلها ..

وشعر (نور) بالرهبة ..

رهبة عجيبة ، سيطرت على كل حواسه ، وهو يدير عينيه فى تلك الفقاعات شبه الكروية ، التى تحوى أجساد رفاقه ، والقاعة الواسعة ، التى لايمكنه تحديد مصدر إضاءتها بالضبط ، والجدران السائلة ، دائمة الحركة ، التى تحيط بها وأدرك ، وربما للحظة الأولى ، أن ذلك الخرير العجيب ، الذى يصدر عن الجدران السائلة له إيقاع ما ..

إيقاع منتظم ، رتيب ، يضفى على القاعة كلها حالة عجيبة ..

حالة من الهدوء ، والوقار ..

والرهبة ..

وفى توتر بالغ ، هتف (نور) :

- إلى متى سيستمر هذا العبث ؟!

خُيِّل إليه أن إيقاع ذلك الخرير قد تغيَّر ..

أصبح أكثر عمقًا ..

وأقل سرعة ..

وحتى الحركة فى الجدران السائلة ، أبطأت على نحو ملحوظ ..

هناك شىء ما ، يفعله حديثه مع المكان ..

استجابة ما ، لنبرات صوته ، أو كلماته ..

أو ربما لأسئلته ..

والتوصُّل إلى معنى هذا يحتاج إلى تجربة ما ..

تجربة جعلته يقول فى حزم :

ـ ذلك الشىء ، الذى واجهنى منذ قليل ، لم يكن واحدًا منكم .

تغيَّر الإيقاع مرة أخرى ، فواصل (نـور) ، وهو يتابع التغيرات بمنتهى الدقة والاهتمام :

ـ إنه شىء ما صنعتموه .. شىء أشبه بالرجال الآليين فى عالمنا .. أشبه بهذا .

استدار يشير إلى نموذج (س ـ 18) ، فتغير إيقاع الخرير أكثر وأكثر ، وراحت حركة الجدران السائلة تتزايد ..

وتتزايد ..

وتتزايد ..

ومع تزايدها ، ارتفع حماس (نور) للتجربة ، وهو يضيف :

ـ إنه كما قلتم .. محاولة تواصل .. وسيلة للعبور إلى العقول مباشرة ، وهى ليست وسيلة جديدة ، بالنسبة لفريقى ولى .. لقد اختبرنا هذا أكثر من مرة ، ونعرف أنه الوسيلة المثلى ، للتواصل بين كائنات من عوالم مختلفة .

اقترب فى حديثه من نموذج (س ـ 18) ، وهو يتابع فى انفعال ، وعيناه مازالتا ترصدان التغيرات المتتابعة ، فى إيقاع الخرير وحركة السائل غير المنتظمة :

ـ حتى نموذج (س ـ 18) ، انتزعتوه من أعمق أعماق خلايا ذاكرتى ، ووضعتموه أمامى هنا ؛ لدراسة ردود أفعالى بشأنه .

وصمت لحظة مفكرًا ، قبل أن يضيف فى حزم :

ـ ربما لأنكم عجزتم عن فهمه ، أو ربط قدراته بمدى ما توصلنا إليه من تقنية .

تسارع إيقاع الخرير بشدة ، عند هذه النقطة ، وارتفع صوته ، حتى بدا أشبه بشلال منهمر فى المكان ، فى نفس الوقت الذى بدأ فيه ذلك السائل ، المكوِّن للجدران ، يغلى على نحو مخيف ، وتنبعث منه أضواء مختلفة الألوان ، انعكست على وجه (نور) ، وعلى تلك الفقاعات شبه الكروية ، التى تسبح فى فراغ القاعة ، محتوية أجساد رفاقه ..

ولكن (نور) تابع بمنتهى الحزم :

ـ إنكم ترصدوننا منذ زمن طويل .. ذلك الكهف ، الذى قادنا إليكم ، ليس كهفًا حقيقيًا .. لهذا لم تكن صخوره متناسبة مع ما حولها .. إنه وسيلة انتقال .. وسيلة تنقل راصديكم ، أو وسائل رصدكم ، من عالمكم إلى عالمنا ، والعكس ..

تلاشى حزمه بغتة ، مع علامات اعتصار العقل ، التى بدت فى ملامحه وصوته ، وهو يتابع :

ـ صوت خرير الماء ، الذى سجلته أجهزتنا ، كان صوت تلك الأشياء ، التى ترسلونها للتواصل ، أو لجمع المعلومات ..

راح ذهنه يستعيد عدة مشاهد وأحداث بسرعة كبيرة ، وهو يواصل فى شىء من الشرود :

ـ وكان من الطبيعى ألا نعثر على أى أثر لها ؛ لأنها تمتلك تلك القدرة الفريدة ، على التحوّل من الحالة السائلة إلى الصلبة .. والعكس .. إنها تتحرك بانسياب السوائل ، وتتجمَّد لتصبح صخورًا ، لا يمكن تمييزها عن أية صخور طبيعية .

صمت فجأة ، وانعقد حاجباه ، وهو يعتصر عقله أكثر وأكثر ..

ومع صمته ، اتصل إيقاع الخرير ، حتى لم يعد خريرًا ، بل هديرًا قويًا ، وتألَّقت الجدران السائلة ، وبدا وكأنها ستنفجر ، من حركة السائل العنيفة فيها ..

ولم يبد على (نور) أنه يشعر بكل هذا ، وهو يفكِّر ..

ويفكِّر ..

ويفكِّر ..

ثم فجأة ، تألَّقت عيناه ..

تألقتا ببريق مدهش ، يعرفه كل من تعامل معه من قبل ..

وفى حماس عجيب ، وحزم واثق شديد ، أشار بيده إلى تلك الجدران السائلة ، وهو يهتف :

ـ ولكنكم لم تأتوا من عالم آخر .. بل من عالمنا نفسه .. تمامًا كما قال الدكتور (أنور) فى أوراقه .. أنتم أتيتم من سلسلة أخرى من التطوّر .

وبدا صوته شديد الصرامة والحزم ، وهو يضيف :

ـ من تحت السطح .

مع قوله الأخير هذا ، قفز ذلك الهدير فجأة ، ليتحوّل إلى ما يشبه هزيم الرعد ..

ثم تفجرت تلك الجدران السائلة بالفعل ..

تفجّرت ، دون أن يتناثر السائل منها ..

ولا حتى نقطة واحدة منه ..

ومع انفجارها ، رفع (نور) ذراعه ليحمى وجهه وعينيه ، وعندما خفضها ، اتسعت عيناه عن آخرهما ..

فالتطوّر هذه المرة كان شاملاً ..

وعنيفًا ..

للغاية ..

★ ★ ★

4ـ تحت الاختبــار..

حلّقت تلك الحوّامات العسكرية الخمس ، فوق منطقة الهدف ، فى قلب (سيناء) ، وقال قائد حوّامة المقدمة ، عبر جهاز اتصال خاص ، يرتبط بالقيادة مباشرة :

ـ وصلنا إلى منطقة الهدف ، وننتظر أوامركم .

لم تمض لحظة واحدة من الصمت ، قبل أن يأتيه الجواب بمنتهى الحزم :

ـ نفـذ .

مع الأمر الحازم المقتضب ، هبطت الحوّامات الخمس فى ذلك الوادى الكبير ، بين الجبال الثلاثة ، وقبل حتى أن تلامس الأرض ، قفز منها الجنود ، وراحوا ينتشرون فى المنطقة ، وفقًا لخطة مسبقة ، وحمل كل منهم سلاحه فى تحفز ، وهو يتخذ موقعه ، فى حين راح فريق منهم يركب مجموعة من الأجهزة والأسلحة الثقيلة ، ويوجّهها إلى ذلك الكهف ، وقائد الفريق يجرى اتصاله بالقيادة ، قائلاً :

ـ تم اتخاذ المواقع المحددة .. كل الأسلحة وأجهزة الرصد فى موضعها .. فى انتظار الأوامر التالية .

مضت لحظات من الصمت هذه المرة ، قبل أن يأتيه الجواب فى حزم :

ـ تمركزوا فى مواقعكم ، حتى تصلكم أوامر جديدة .

قال قائد الفريق فى حسم :

ـ عُلِمَ وينفذ .

أنهى الاتصال ، واستدار يلقى أوامره لرجاله ، الذين اتخذوا مواقعهم فى حزم وتحفز ، وتوجهت كل آلاتهم وأجهزتهم وأسلحتهم نحو ذلك الكهف ، الذى بث فى نفوسهم رهبة عجيبة ، على الرغم من جهلهم بكل تاريخه السابق الرهيب ..

ولدقائق طويلة ، ران على الجميع صمت مهيب ..

ثم فجأة ، التقطت الأجهزة صوتًا ، يأتى من داخل الكهف ..

صوتًا أشبه بهدير ..

هدير مياه تندفع فى قوة ..

عبر الكهف ..

وفى توتر شديد ، تطلع الكل إلى ذلك الكهف ، وتحفزت كل حواسهم ، وصوت الهدير يرتفع ، ويقترب .. ويقترب ..

ويقترب ..

ثم فجأة ، تدفَّقت المياه من ذلك الكهف فى قوة ..

تدفقت ، كما لو أنها تأتى من بحيرة ضخمة كبيرة ..

وفى شدة ، انهمرت المياه من الكهف إلى الوادى ..

ونظرًا للأوامر المشدَّدة ، لم يتحرَّك أحد الجنود من مكانه ، والمياه تتدفق حولهم ، وتجرى بين أقدامهم ، وتملأ الوادى ..

ولكن أعصابهم أخذت تتوتَّر فى شدة ، عندما راح منسوب الماء يرتفع ..

ويرتفع ..

ويرتفع ..

ومع ارتفاعه ، توتَّرت أعصاب الجنود أكثر ..

وأكثر ..

وأكثر ..

وفى عصبية ، أمسك قائد الجنود جهاز اتصاله الخاص ، ولم يستطع كبح ذلك التوتر الشديد فى صوته ، وهو يقول للقيادة :

ـ أمور عجيبة تحدث هنا .. المياه تتدفق من ذلك الكهف ، وتغمر الوادى ، وتكاد تغرق أجهزتنا كلها ، ولسنا ندرى من أين ، ولا كيف تأتى ..

مرَّت لحظات ، قبل أن يأتيه صوت القائد الأعلى شخصيًّا ، وهو يقول فى حزم :

ـ حاول جمع عينات من ذلك الماء ، وأرسلها فورًا إلى مركز الأبحاث يا رجل .

نطق القائد الأعلى أمره هذا ، وهو يتحرَّك فى مكتبه فى توتر شديد ، فأتاه صوت قائد الفريق ، وهو يقول ، فى صوت حمل رنة فزع ، يندر أن يحملها صوت جندى محترف :

ـ سيِّدى .. المياه ترتفع بسرعة مخيفة .. إنها ليست مياهًا بالمعنى المعروف .. إنها أكثر لزوجة ، و ....

وفجأة ، بتر قائد الفريق عبارته بشهقة قوية ، قبل أن ينقل جهاز الاتصال ، فى حجرة القائد الأعلى صرخته ، وهو يقول :

ـ رباه ! ما هذا بالضبط ؟!

انعقد حاجبا القائد الأعلى ، فى توتر شديد ، وهو يلتفت إلى جهاز الاتصال فى انفعال ، هاتفًا :

ـ ماذا هناك يا رجل ؟! ماذا حدث ؟! ماذا يحدث عندك ؟!

نقل إليه جهاز الاتصال الخاص صرخات عديدة ، تمتزج فيها الدهشة بالذعر والألم ، فصاح مرة أخرى :

ـ ماذا يحدث عندك ؟!

ولكن جهاز الاتصال توقف عن البث فجأة ، قبل أن ينبعث منه ذلك الصوت العجيب المتصل ..

صوت خرير مياه ..

ومرة أخيرة ، صرخ القائد الأعلى :

ـ ماذا يحدث عندكم ؟! ماذا يحدث ؟!

وبخلاف صوت الخرير ، لم يحصل القائد الأعلى على جواب ..

أى جواب ..

★ ★ ★

« (نور) .. ماذا بك ؟! »

نطق (أكرم) السؤال وهو يبتسم ، ويلوّح بيده أمام وجه (نور) ، الذى انتفض ، وحدّق فيه بدهشة ، جعلت (سلوى) تتساءل فى قلق :

ـ ماذا هناك يا (نور) ؟! لماذا توقفت فجأة على هذا النحو ، وكأنك رأيت شبحًا ؟!

وغمغمت (نشوى) فى توتر :

ـ أبى .

أشار إليها (رمزى) بالهدوء ، وهو ينهض إلى (نور) ، قائلاً :

ـ مهلاً .. أظن الأمر يحتاج إلى متخصّص مثلى .

انتفض جسد (نور) مرة أخرى ، وهو يحدّق فيما أمامه ، فى ذهول شديد ..

فمنذ لحظة واحدة ، انفجرت تلك الجدران السائلة ، فرفع يده ليحمى وجهه من انفجارها بحركة غريزية ، وأغلق عينيه لحظة ..

لحظة واحدة لا غير ..

* * *

وعندما خفض ذراعه ، وفتح عينيه ، كان كل شىء قد تبدّل .. تمامًا ..

لم تعد هناك قاعة ..

أو جدران سائلة ..

أو فقاعات شبه كروية ..

ولكن كل رفاقه كانوا هناك .. حوله ..

فى مقر الفريق ، داخل إدارة المخابرات العلمية ..

فى قلب (القاهرة) الجديدة ..

كل شىء كان كما عهده هناك ..

الآلات ..

والأجهزة ..

وشاشات الرصد ..

والخرائط الرقمية ..

ورفاقه ..

كلهم كانوا فى أماكنهم التى اعتادها ..

وبخير صحة وعافية ..

(سلوى) ..

و(نشوى) ..

و(رمزى) ..

و(أكرم) ..

كلهم التفوا حوله ، و(رمزى) يسأله فى اهتمام :

ـ أهى رؤيا ما يا (نور) ؟!

لم يجب (نور) سؤاله ، وإنما حدق فيه فى دهشة واضحة ، ثم نقل بصره إلى النافذة ، حيث السماء الصافية المشرقة من خلفها ..

وبكل ذعرها ، غمغمت (سلوى) :

ـ رباه ! ماذا أصابه ؟!

هزَّ (أكرم) رأسه فى عصبية ، قائلاً :

ـ لست أدرى .. كان يتحدث إلينا فى مرح ، منذ لحظة واحدة ، ثم فجأة أصابه ذلك الشرود والذهول .

اغرورقت عينا (نشوى) بالدموع ، وهى تتحسَّس وجه والدها ، قائلة ، بصوت أقرب إلى البكاء :

ـ أبى .. ماذا أصابك ؟!

إنها ليست وهمًا ..

هذا أول ما جال بخاطر (نور) ، عندما شعر بأصابعها تتحسَّس وجهه ، فمد يده بدوره يتحسَّس وجهها ، وقاوم كل ما يشعر به من انفعالات جارفة فى أعماقه ، وذهول ما له من حدود ، وحاول أن يبتسم ، وهو يقول بصوت ، خرج على الرغم منه أجش مختنقًا :

ـ أنا بخير .

تطلَّع إليه الجميع فى قلق أكثر ، وتحسَّس (أكرم) مسدسه بحركة غريزية ، وهو يقول فى توتر :

ـ (نور) .. إنك تحتاج إلى إجازة طويلة .

تمتم (نور) ، وهو يبحث عن أقرب مقعد إليه :

ـ نعم .. أعتقد هذا .

تبادل الجميع نظرة متوترة ، مع بعضهم البعض ، قبل أن تقول (سلوى) فى حزم ، حمل نبرات جزعها على زوجها :

ـ سأتقدم بطلب إجازة فورًا .

أدار عينيه فى وجوههم بحيرة ، وحاول أن يستوعب ما حدث ، خلال تلك اللحظة الماضية ، ثم لم يلبث بصره أن توقف عند النافذة ، وراح يتطلَّع إلى ذلك المشهد خارجها ..

كل شىء كما ألفه تمامًا ..

كل شىء ..

ولكن كيف ؟!

كيف انتقلت الأمور إلى هذه النقطة ؟!

كيف ؟!

كيف ؟!

تركَّز بصره طويلاً على النافذة ، ورفاقه من حوله يتهامسون ، محاولين معرفة ما أصابه ، فى حين ظلّ هو صامتًا ..

شاردًا ..

ساكنًا ..

وفى جمود شديد ، تعلَّق بصره بتلك النافذة ..

وراح عقله يعمل ..

ويعمل ..

ويعمل ..

ما يحدث هنا مستحيل !

مستحيل تمامًا !!

حتى الانتقال الآنى ، لا يمكن أن يتحقق بهذه السرعة ..

إنها مجرد لحظة ..

لحظة واحدة ، نقلته عبر الزمان والمكان ..

لحظة واحدة لا غير ..

توقُّف تفكيره لحظة ، وهو يحدق فى تلك السحابة الشبيهة بالأرنب ، التى بدت فى الركن العلوى من النافذة ، ثم عاد يدير عينيه مرة أخرى فى المكان ، ليتيقن من أنه ليس وهمًا ..

وكان كل شىء كما عهده بالفعل ..

لذا ، فقد هزّ رأسه فى قوة ، مغمغمًا :

ـ هناك تفسير ما حتمًا .

لمس (أكرم) كتفه فى حذر ، وهو يسأله بمنتهى القلق :

ـ هل تحتاج إلى مساعدة يا صديقى ؟!

شعر (نور) بلمسته على كتفه ، فأدار عينيه إليه ، قائلاً :

ـ لست أعتقد أنه يمكنك مساعدتى ، فى هذا الشأن .

تحسَّس (أكرم) مسدسه مرة أخرى ، وهو يتساءل فى حيرة :

ـ ولِمَ لا ؟!

لم يجب (نور) تساؤله هذه المرة ، وإنما اكتفى بزفرة متوترة ، وهو يعيد بصره إلى النافذة ، وإلى تلك السحابة الشبيهة بالأرنب ، فى الركن العلوى منها ، و ...

وفجأة ، انتفض جسده مرة أخرى ..

وانعقد حاجباه فى شدة ..

هذا ما كان يبحث عنه بالضبط ..

الدليل ..

الخطأ الخفى ، فى اللوحة كلها ..

« هذه السحابة ثابتة .. »

هتف (نور) بالعبارة فى حزم ، وهو يهب من مقعده بحركة حادة ، فتطلَّع إليه رفاقه جميعهم فى دهشة ، وغمغم (رمزى) فى حيرة :

ـ ماذا تعنى بهذا يا (نور) ؟!

تجاهله (نور) تمامًا ، وبدا وكأنه لا يتحدَّث إلى أحد منهم ، وهو يقول فى حزم وانفعال :

ـ حضارتكم كلها نشأت تحت السطح ؛ لذا لم تنتبهوا إلى ذلك الخطأ .. السحب فى عالمى لا يمكن أن تظل ثابتة فى موضعها أبدًا .. إنها تتحرك طوال الوقت ، بفعل عوامل شتى(*) .

تبادل رفاقه نظرة دهشة حائرة ، إلا أنه واصل تجاهلهم له تمامًا ، وهو يهتف ، متحدثًا إلى ما لا يرونه :

ـ هذا يعنى أنه ، على الرغم من التلامسات ، والشعور الواضح بها ، إلا أن كل هذا مجرد وهم .

مضت لحظة من الصمت ، قبل أن يسمع فى وضوح أشبه بخرير الماء يقول بالعربية ، فى لكنة عجيبة :

ـ بل هو اختبار .

(*) حقيقة .

مع العبارة ، عاد كل ما حوله يتلاشى مرة أخرى ، لتعود تلك القاعة الواسعة الكبيرة ..

وفى هذه المرة ، كانت خالية تمامًا ..

خالية ، وشديدة الاتساع ..

بلا حدود ..

لم تكن هناك تلك الفقاعات شبه الكروية ..

ولا الجدران السائلة ..

أو حتى كومة الرمال ..

لم يكن هناك شىء على الإطلاق ..

فقط (نور) ، فى ساحة خالية هائلة ، ذات أرضية لامعة ، وفراغ بلا حدود ..

ولثوان ، ظل (نور) صامتًا ، يقاوم ذلك الارتباك ، الذى صنعته به تلك التحولات المتتالية ، ثم لم يلبث أن صرخ فى حدة :

ـ إلى متى ستتواصل هذه اللعبة السخيفة ؟!

كان لصرخته صدى قوى ، فى ذلك الفراغ الهائل ، إلا أن ذلك الصدى ، لم يكن قد تلاشى بعد ، عندما أتاه الجواب ، بذلك الصوت

الشبيه بخرير المياه ، والذى تردَّد فى المكان بنفس الصدى ، دون أن يمكنه تحديد مصدره :

ـ يبدو أنها قد بلغت نهايتها .

تلفَّت (نور) حوله فى توتر ، محاولاً تحديد مصدر الصوت ، قبل أن يهتف فى عصبية :

ـ ومتى نكشف الأوراق ؟!

أتاه الجواب فورًا :

ـ لم يحن وقت كشف الأوراق بعد .. صحيح أننا هنا ، من قبل أن تتواجدوا أنتم ، إلا أننا لم نبدأ فى استكشاف السطح إلا مؤخرًا جدًا .

توقف (نور) عند العبارات كلها ، وقال فى انفعال :

ـ هنا من قبل أن نتواجد ؟! استكشاف السطح ؟! ما الذى يعنيه كل هذا ؟!

أجابه الصوت فى خرير هادئ :

ـ المفترض أنه يمكنك استيعاب الأمر أيها المقدَّم ، فوفقًا لدراساتنا ، وما أخضعناك له من اختبارات ، أنت أكثر أفراد مجتمعك ذكاءً ، وقدرة على استيعاب ما يفوق إدراك العامة ، ونحن ندرك جيدًا ما تعنيه مثل هذه المزية النادرة ؛ فالافتقار إلى الخيال يقف حائلاً

دومًا ، بين العقول والتطوّر ، وعجز الإنسان عن تخيل مـا يفوق اعتياده ، هو السبب الرئيسى فى تأخر الكشوف العلمية دومًا .

قال (نور) فى عصبية :

ـ إنك لم تجب تساؤلى بعد .

أجابه ذلك الخرير فى هدوء :

ـ فى أعماقك تعرف الجواب جيدًا ، ولكنه يثير فزعك وقلقـك ، لذا فأنت ترغب فى أن نؤكده لك فحسب .

قال (نور) ، فى عصبية أكثر :

ـ أهى مراوغة ، للفرار من الجواب ؟!

بدا وكأن ذلك الصوت الخريرى قد تجاهله تمامًا ، وهو يكمل قائلاً :

ـ ولكنه ضعف الخيال مرة أخرى .. ذلك الضعف ، الذى جعل علماءنا يقضون سنوات طوال ، متصورين أنه لا توجد حياة على السطح ، وهو الذى جعل الآلاف من مبدعينا ومفكرينا يؤكـدون ، فى ثقة متناهية ، أننا صورة الحياة الوحيدة المتاحة ، وأن كل ما عدا هذا مجرد خيال .

امتقع وجه (نور) ، وهو يستمع إلى هذا ، وحـاول عقلـه أن يجد تفسيرًا مختلفًا لمـا يـراه ويسمعه ، إلا أن ذلـك الصوت لـم يمهله فرصة للتفكير ، وهو يواصل فى هدوء :

ـ حتى عنـدما بـدأتم تجـاربكم النـووية ، وتفجيراتكم تحـت الأرضيـة ، تم رصدهـا باعتبارهـا كـوارث طبيعيـة ، نشـأت عـن تزحـزح الصـفائح الأرضـية ، وتم بمنتهى العنف رفض كل النظريات ، التى عزت هذا إلى وجود كائنات عاقلة على السـطح ..

غمغم (نور) بأنفاس مبهورة :

ـ إذن ، فأنتم هنا بالفعل ، من قبلنا ؟!

تابع الصوت ، وكأنه لم يسمع تعليقه :

ـ ثم تطورت علومنا ، وبدأنا برنامجنا الجديد ، الذى اعتمد على إطلاق بعض أجهزتنا إلى السطح ... وعندئذ أدركنا وجودكم .

كرَّر (نور) ، فى انبهار أكثر :

ـ أنتم هنا قبلنا ؟!

ومرة أخرى ، تجاهله ذلك الصوت تمامًا ، وتابع :

ـ جنسكم كـان مفاجأة كبيـرة لنـا .. ومخيفـة أيضـًا ، مع كل مـا رصدنـاه من عنفكم ، وعدوانيتكم ، وحروبكم العنيفـة ، مـع بعضكم البعض ، دون مبرِّر منطقى واضح .. وكان من الطبيعى أن نخفى هذا الكشف المدهش عن شعبنا ، حتّى لا نثير موجة من الهلع والذعر ، إذا ما أدرك أنه هنـاك مخلوقات عاقلة ، لا يفصله

عنها سوى غلاف أرضنا ، وتتميَّز بنوازع استعمارية مسيطرة مجنونة .. وفى الوقت ذاته ، كان من الضرورى أن نعمل على دراستكم أكثر ، وأن نستوعب الاختلافات الجوهرية ، بين جنسكم وجنسنا .

قال (نور) بأنفاس متلاحقة :

ـ ألهذا كنتم تختطفوننا ؟!

هنا فقط ، توقف ذلك الصوت عن تجاهله ، وأجاب :

ـ بالتأكيد .. إن بشرتكم تختلف تمامًا عن بشرتنا ، وأجسادكم تحوى بعض المواد ، التى لا تعرفها أجسادنا ، ربما لتعرضكم إلى ذلك النجم الضخم الذى تطلقون عليه اسم الشمس ، والذى لسنا ندرى كيف تحتملون حرارته المباشرة ، كما أن تعامل أجسادكم مع الجاذبية يختلف عن تعامل أجسادنا معها ، على الرغم من تشابهنا فى التكوين الخارجى ، إلى حد كبير .

قال (نور) ، وقد غلب فضوله العلمى توتره :

ـ ولكن تكنولوجيتكم تختلف تمامًا عن تكنولوجيتنا .

أتاه الصوت ، مجيبًا :

ـ هذا أمر طبيعى ، فحضارتنا نشأت فى وسط مختلف تمامًا ، له معطيات لا تشبه معطيات وسطكم ، واختلاف الضغط والحرارة ، وقوة الجاذبية(*) ، أعطى المواد لدينا خواص فيزيائية ، تختلف عنها لديكم .

قال (نور) ، وصوته يحمل لمحة من اللهفة :

ـ مثل تلك المادة ؟!

مضت لحظة من الصمت ، قبل أن يجيب ذلك الصوت الخريرى :

ـ لو أنك تقصد (الزوريوم) ، فهو ليس من العناصر الطبيعية فى عالمنا أو عالمكم .. إنه عنصر صناعى ، توصل إليه علماؤنا ، منذ دورة زمنية كاملة لدينا ، ولم ندرس بعد كم تساوى من زمنكم الخارجى ، ولكنه ، لو أمكننا ترجمة المصطلح جيدًا ، نوع من العناصر الذكية ، التى نستخدمها فى صناعة تكنولوجيتنا الحديثة ، إذ أن جزيئاته لديها قدرة فريدة ، على التحوُّل ، من الحالة الصلبة إلى السائلة ، وفقًا لما تتلقاه منا من إشارات ، كما أن قدرتها على التماسك لا تتأثر بحالتها ، مما يمكنها من التشكل فى أية هيئة ، أو وسط يحيط بها .

(*) الهبوط تحت مستوى سطح البحر ، يزيد من الضغط الجوى ، ومن قوة جذب الأرض ، كما أن الحرارة ترتفع تدريجيًا ، كلما اقتربنا من مركز الكرة الأرضية .

غمغم (نور) :

ـ معدن أشبه بالحرباء إذن(*) .

أجابه ذلك الصوت :

ـ لسنا نعرف ما هى الحرباء ، ولكن المعدن الوحيد ، الذى عثرنا عليه فى عالمكم ، ويتشابه فى تركيبه مع (الزوريوم) ، هو ما وجدناه فى بعض أجهزتكم ، وتطلقون عليه اسم (الزئبق) .

انعقد حاجبا (نور) فى شدة ، وهو يقول :

ـ مستحيل ! ذلك الشىء لا يشبه (الزئبق) فى هيئته أو خواصه مطلقًا .

حمل الصوت شيئًا من الخرير الساخر ، وهو يقول :

ـ أمر طبيعى ، فزئبقكم عنصر طبيعى ، أما (الزوريوم) ، فهو عنصر صناعى ذكى ، كما سبق أن أخبرناك .

كانت المعلومات أغزر من أن يستوعبها عقل (نور) بهذه السرعة ، فهتف فى توتر :

ـ مهلاً .. مهلاً .

(*) الحرباء : زاحفة صغيرة ، بطيئة الحركة ، تعيش على الأشجار ، فى (إفريقيا) وجنوب (آسيا) ، يتغيّر لون جلدها بانفعالاتها ، وتغير حدة الضوء ، ودرجة الحرارة ، وهى شائعة فى (مصر) فى الحدائق وتتغذى على الحشرات ، عيناها جاحظتان ، تديرهما فى كل الاتجاهات ، ولسانها يكاد يبلغ طول جسدها ، وتصطاد به الحشرات .

ثم أغلق عينيه فى قوة ، وهو يلوّح بيده ، وكأنما يخشى أن يفقد بعض ما استوعبه من معلومات ، قبل أن يفتحهما دفعة واحدة ، ويحمل صوته توترًا شديدًا ، وهو يسأل :

ـ ولكن مهلاً ! لماذا تخبرنى بكل هذا ، ما دمتم تسعون إلى إخفاء ما كشفتموه .

أجابه ذلك الخرير فى هدوء :

ـ لا ضير من إخبارك أيها المقدّم .

وصمت لحظة ، ثم أضاف فى حزم :

ـ فلن يعود أحدكم إلى السطح أبدًا .

وانتفض قلب (نور) فى عنف .

* * *

5 ـ اللغــز ..

منذ نهاية الاحتلال(*) ، لم يشهد مركز الأبحاث ، التابع للمخابرات العلمية المصرية ، مثل هذا التوتر الانفعالى ، وكل علمائه تقريبًا ، يحاولون فهم واستيعاب ما حدث هناك ..

فى قلب (سيناء) ..

فعلى الرغم من انحسار أثر القنابل النووية المحدودة ، على نحو لا يقبل الشك ، لم تسجل آلات تصوير الأقمار الصناعية ، أو حتى آلات الرصد الحرارى ، أية لمحة إيجابية ، يمكن أن تفسر ما حدث ..

كان كل شىء يسير على ما يرام ، حتى بدأ تدفق المياه ، من ذلك الكهف الغامض الرهيب ..

ثم فجأة ، انقطعت كل وسائل الاتصال ..

كلها توقفت عن العمل ، دون مبرِّر منطقى واحد ..

فقط الاتصال الصوتى ظل مستمرًا ؛ لينقل حالة من الذعر ، ما لها من مثيل ، عبر موجات الراديو فائقة القصر ..

(*) راجع قصة (الاحتلال) ... المغامرة رقم (76) .

وبعدها عاد كل شىء للعمل ..

وعادت الأقمار الصناعية ، ووسائل الرصد الحرارى تنقل المشهد فى وضوح ..

وكان كل شىء فى مكانه ..

فيما عدا فرقة الجنود ..

آلاتهم ظلت فى موضعها ..

وكذلك أسلحتهم ..

ولكن ما من بشرى واحد ..

كلهم اختفوا ..

ودون أدنى أثر ..

وكان هذا مذهلاً ..

ومحيرًا ..

ومربكًا ..

وبكل عصبية ، أشار القائد الأعلى إلى الشاشة الخالية ، وهو يسأل رئيس فريق العلماء :

- أين ذهبوا ؟!

هزَّ رئيس الفريق رأسه فى حيرة مرتبكة ، دون أن يحر جوابًا ، فتراجع القائد الأعلى ، دون أن يرفع عينيه عن الشاشة الخالية ، وقال فى حدة غاضبة :

- لا يمكننا أن نظل غارقين فى جهلنا بما يحدث ، على هذا النحو .. لا بد وأن نعلم شيئًا .. أى شىء .

ارتجف صوت رئيس الفريق ، وهو يقول :

- كل ما يمكننا الجزم به ، هو أن الأمور تتطورَّ .

التفت إليه القائد الأعلى بمنتهى القلق ، وهو يتساءل :

- تتطورَّ ؟!

أومأ رئيس الفريق برأسه ، قائلاً :

- بالتأكيد ، ففى البداية كان الأمر ساكنًا ، ثم تحولّ إلى اختطاف غامض ، وبعدها إلى هجوم مباشر ، على فرقة مسلحة كاملة .

غمغم القائد الأعلى :

- هذا يندرج أيضًا ، تحت قائمة الاختطاف .

أشار رئيس الفريق بيده ، وهو يقول :

- لم يكن بهذا الوضح فى البداية .

التقى حاجبا القائد الأعلى ، وهو يفكِّر فى الأمر ، قبل أن يسأل ، فى قلق شديد :

- وما الذى يمكن أن يعنيه هذا ؟!

تردَّد رئيس الفريق لحظة ، ثم اندفع يقول ، وكأنما حسم أمرًا ما :

- هذا يتوقف على السبب الرئيسى ، الذى تركوا من أجله الأسلحة والمعدات خلفهم .

ضاعف الجواب من قلق وتوتر القائد الأعلى ، وهو يسأل :

- ماذا تعنى ؟!

واصل رئيس الفريق اندفاعه ، وهو يجيب :

- فريقى لديه احتمالان فقط ؛ لتفسير هذا الأمر ، أولهما أن الوسيلة ، التى يستخدمونها ، لنقل الأجساد ، لاتصلح لنقل الأسلحة والمعدات ، مما يضطرهم إلى تركها خلفهم ، وثانيهما أنهم يتركون كل هذا خلفهم ؛ ليرسلوا لنا رسالة ما .

تساءل القائد الأعلى ، وتوتره يتضاعف :

ـ أية رسالة ؟!

أجاب الرجل فى سرعة :

ـ يريدون أن يخبرونا أن أسلحتنا ومعداتنا بدائية ، لا تعنى لهم شيئًا .

تراجع القائد الأعلى بحركة حادة ، واتسعت عيناه فى شىء من الارتياع ، وقد بدا له الاحتمال الثانى مخيفًا للغاية ..

أما رئيس الفريق ، فقد انخفض صوته ، وهو يضيف فى حذر :

ـ هذا هو الأرجح .

بدا صوت القائد الأعلى مختنقًا مبحوحًا ، وهو يسأله :

ـ ولماذا ؟!

التقط الرجل نفسًا طويلاً ، وكأنما يحاول تهدئة ذلك الانفعال الجارف ، المستعر فى أعماقه ، قبل أن يجيب :

ـ لأن الدكتور (أنور شعبان) ومجموعته ، قد اختفوا فى البداية ، مع كل أجهزتهم ومعداتهم ، وهذا يعنى أن الغزاة ...

قاطعه القائد الأعلى ، وهو ينتفض هاتفًا :

ـ غزاة ؟!

تطلّع إليه الرجل فى توتر شديد ، وبدا وكأنه قد انكمش على نفسه ، وهو يجيب مضطربًا :

ـ ألا يبدو هذا لك واضحًا يا سيّدى ؟! إنه رأى توصلنا إليه ، واتفقنا عليه جميعًا .. ما يحدث هو طليعة غزو ... غزو من عالم آخر ..

واتسعت عينا القائد الأعلى ..

إلى أقصى حد ..

★ ★ ★

« هل تسعون لإبادتنا ؟! »

ألقى (نور) سؤاله فى عصبية ، محاولاً للمرة الألف ، البحث عن مصدر ذلك الصوت الخريرى ، الذى يتحدّث إليه ، ومضت لحظة طويلة من صمت ثقيل ، قبل أن يسمعه يجيب :

ـ وجود محترفين مثلكم ، يهدّد وجودنا نحن بالفناء .

قال (نور) فى حدة :

ـ لذا ، فإفناؤنا هو الوسيلة الوحيدة ؛ لحمايتكم من الفناء .

مرّت لحظة صمت أخرى ، ثم أتى الجواب مقتضبًا :

ـ لو اقتضى الأمر .

كان جوابًا مخيفًا ، جعل (نور) يدور حول نفسه ، وهو يهتف فى غضب وحدة :

ـ ومن قال إن هذا من حقكم ؟!

أتاه الجواب هادئًا :

ـ إنه حق الدفاع المشروع ، الذى تؤمنون به على السطح .

صاح (نور) :

ـ الدفاع عن من ، وضد من ؟! لو أنكم هنا من قبل أن نوجد نحن ، فلماذا لا يستمر كل منا فى مساره ، دون أن يدس أنفه فى شأن الآخر ؟! لماذا لا بد وأن ينزاح أحدنا ، ليفسح مجالاً لمن لا يمكن أن يشاركه مساحته .. نحن نحيا على سطح الكوكب ، وأنتم فى أعماقه ، أى أن كلينا يحتل مساحة ، لابد وأن نتعاون للحفاظ عليها ، لا أن نتقاتل لهدمها .

طال الصمت هذه المرة ، وكأن بعضهم يحاول استيعاب المنطق ، أو ترجمة حوار (نور) ، قبل أن يأتى الجواب ، بنفس الصوت الهادئ ، الشبيه بخرير منتظم :

ـ عجيب أن يتحدَّث أحد كائنات السطح بهذا المنطق ؛ فلو أنكم تؤمنون به ، لما كانت كل هذه الحروب والصراعات بينكم ، ولما اخترعتم وابتكرتم وطوَّرتم كل أسلحة الدمار الرهيبة ، التى حاولتم مواجهتنا بها .. لقد فجرتم مادة شديدة الإشعاع فى المنطقة ، كانت تكفى لتلويث تربتها طويلاً ، ولولا أن تدخلنا بتكنولوجيتنا لسحب آثارها ، لما سلمنا من أمرها .. أهذه فكرتكم عن المحافظة على السطح الواحد ، الذى يضم كل الكائنات ؟!

لم يستطع (نور) مناقشته ، عند هذه النقطة ، وإنما عض شفته السفلى فى مرارة ، وهو يسترجع كل ما فعله الإنسان بأقرانه ، عبر قرون طويلة من القتال والصراع والتناحر ..

بل وكل ما ابتكره ، من أسلحة مدمرة شاملة وعنيفة ..

الآن فقط أدرك أن كراهيته للقتل والتدمير ، كانت شعورًا آدميًا طبيعيًا ، على الرغم من كل ما وجهه إليه العديدون ، من انتقادات عنيفة أو ساخرة فى هذا الشأن ..

ذلك الصوت ، أيًا كان مصدره ، على حق تمامًا .

كيف يمكن أن يطالب جنسًا بالإبقاء على جنس آخر ، وجنسه نفسه لا يبقى على بعضه البعض ؟!

كيف ؟!

وفى يأس آسف ، غمغم (نور) :

ـ ليس هذا هو الأسلوب الوحيد ، للتعامل مع الآخرين ..

سأله الصوت بنفس الهدوء :

ـ أى أسلوب تعنى ؟!

أجاب فى مرارة :

ـ الهيمنة والسيطرة .. ليس من الضرورى أن يتم التعامل دومًا من هذا المنطلق .. هناك أيضًا التعايش ، والتكامل ، و ...

قاطعه الصوت فى حزم :

ـ والاستغلال .

لم يعلِّق (نور) على القول ، فتابع الصوت بنفس الحزم :

ـ مشاهداتنا سجلت حالات عديدة ، تظاهر فيها بعضكم بالتعاون مع البعض الآخر ، ثم استغل هذا التعاون ؛ لاستنزاف كل موارده وخيراته ، وكشف كل أسراره ، وبعدها انقض عليه ، وسحقه سحقًا .

أطلق (نور) زفرة حارة ، قبل أن يقول :

ـ وأنتم تنوون سحقنا ، قبل أن نسحقكم .

أجابه الصوت فى هدوء :

ـ هذا يبدو عادلاً .

عضَّ (نـور) شفته السفلى فـى مرارة ، ولـم ينطق بحرف واحد ، إزاء هذه العبارة الأخيرة ..

فعلى الرغم من بغضه لهذا ، إلا أنه يعلم تمامًا ، كم هذا الحديث صادق ..

أول ما سيفعله مسئولو عالمه ، عندما يعرفون بأمر ذلك العالم السفلى ، هو أن يسعوا لمعرفة كل شىء عنه ..

ثم السيطرة عليه ..

وكما يحدث دومًا ، ستكون لديهم مبرِّراتهم ..

حماية أمنهم القومى ..

وقاية عالمهم ، من خطر محتمل ..

أو حتى إضافة قوة وثروات جديدة ..

دائمًا هناك مبرِّر ما ..

أى مبرِّر ..

ولا يمكنه أن يعد صاحب ذلك الصوت ، أيًّا كانت ماهيته ، بأن هذا لن يحدث ..

لا يمكنه أن يخدعه ..

ولكن الثمن سيكون غاليًا ..

حياته ..

وحياة كل رفاقه ..

ويا له من ثمن !

ولو أن هذا هو كل الثمن ، لما تردَّد لحظة واحدة فى دفعه ..

فمنذ التحق بالمخابرات العلمية المصرية ، ومنذ كوَّن فريقه هذا ، كان يدرك جيدًا أنهم جميعًا ، قد وضعوا أرواحهم على أكفهم ، من أجل هذا الوطن ..

وأنهم مستعدون دومًا لمنحه حياتهم ، إذا ما كانت ثمنًا لرفعته ونصرته .. ولكن المشكلة أن استسلامه الآن ، يعنى أن يتعرَّض وطنه كله لأكبر خطر ..

بل أن يتعرَّض عالمه كله له ..

وهو لا يمكن أن يسمح بهذا ..

أبدًا ..

« أين الباقون ؟! »

شدّ (نور) قامته ، وهو يلقى السؤال فى حزم ، لا يتفق مع موقفه ، فصمت ذلك الصوت بضع لحظات ، قبل أن يتساءل بدوره :

ـ وما شأنك بهم .. لو أن مصيركم كلكم واحد ، فلماذا تنشغل بأمرهم ..

أجابه (نور) بمنتهى الحزم :

ـ لأنهم رفاقى .

سأله الصوت فى اهتمام :

ـ أهذا مبرِّر كاف ، لتموت من أجلهم ؟!

شدّ (نور) قامته أكثر ، وهو يجيب :

ـ دون أدنى تردُّد .

فى هذه المرة ، طال صمت ذلك الصوت الخريرى الغامض ..

طال ..

وطال ..

وطال ..

ثم فجأة ، أظلمت القاعة كلها ، وارتفع فيها صوت أشبه بهدير شلال قوى ..

وبحركة غريزية ، تراجع (نور) ..

فمع الهدير القوى ، تصوَّر أن أطنانًا من المياه ستنهال عليه من كل صوب ، لتغرقه تمامًا ..

ولكن شيئًا لم يحدث ..

فقط تواصل ذلك الهدير لحظات ، قبل أن يتوقف بغتة ..

ومع توقفه ، أضيئت القاعة كلها دفعة واحدة ..

ارتفعت فيها عدة شهقات ..

ومع الانبهار بالضوء المباغت ، أغلق (نور) عينيه ، ثم فتحهما ، وهو يتساءل ما الذى سيجده هذه المرة ..

وكان ما وجده مفاجئًا هذه المرة أيضًا ..

مفاجئًا للغاية ..

★ ★ ★

حمل صوت القائد الأعلى كل توتره وقلقه وانفعاله ، وهو يقف أمام رئيس الجمهورية ، قائلاً :

ـ الأمر يزداد تعقيدًا فى كل لحظة ، والخطر يقترب أكثر وأكثر ، ولو أنها مقدمات غزو خارجى ، كما يتوقَّع فريق علمائنا ، فلابد وأن نتحرك بأقصى سرعة ، وإلا فقدنا كل شىء .

تساءل رئيس الجمهورية فى توتر :

ـ وماذا بيدنا لنفعله ؟! لقد حاولنا منع ذلك الشىء ، الذى مازلنا نجهل ماهيته بالضبط ، ولكن كل وسائلنا وأقواها فشلت ، و ...

قاطعه القائد الأعلى فى توتر :

ـ ليس كل وسائلنا ، يا سيادة الرئيس .

حدَّق الرئيس فى وجهه بدهشة ، وتساءل فى توتر :

ـ ماذا تبقى لنا ، بعد القنابل النووية المحدودة ؟! من المستحيل بالطبع أن تقصد القنابل النووية الشاملة ، أو الـ ....

مرة أخرى ، قاطعه القائد الأعلى فى انفعال :

ـ قنبلة الأعماق .

فى هذه المرة ، كانت دهشة الرئيس عارمة ، وهو يقول :

ـ قنبلة الأعماق ؟! لست أظنك تقصد استخدام قنبلة بحرية فى ....

وعلى الرغم من مجافاة هذا لكل القواعد ، دفع الانفعال القائد الأعلى إلى مقاطعة الرئيس للمرة الثالثة ، وهو يقول :

ـ لم أكن أقصد قنبلة الأعماق البحرية يا سيادة الرئيس ، وإنما تلك القنبلة الجبلية ، التى ابتكرها البريطانيون ، فى الحرب العالمية الثانية ؛ لبلوغ تلك الأنفاق ، التى بناها (هتلر) فى قلب جبال (ألمانيا) ، والتى طوَّرها الأمريكيون فيما بعد ، لتحفر الأرض ، وتنسف المخابئ تحت الأرضية ، فى حرب الخليج الأولى ، عام 1991م(*) ، ثم قمنا نحن بتطويرها مؤخرًا ، لتحمل رءوسًا نووية محدودة ، إلى أعماق كبيرة ، فى باطن الأرض .

تساءل الرئيس فى حيرة قلقة :

ـ وبِمَ ستفيدنا قنبلة كهذه ؟!

أشار القائد الأعلى إلى خريطة (مصر) ، التى تحتل جدارًا كاملاً ، فى مكتب الرئيس ، وقال :

ـ الفحص بالموجات فوق الصوتية الفائقة ، عبر الأقمار الصناعية ، كشف لنا حقيقة مدهشة ، بشأن ذلك الكهف الغامض ، ففى كل التقارير الأولية ، كان يحوى داخله شبكة ممرات معقدة ، تنتهى دومًا بجدار حائل على عمق مائة متر ، ولكن الفحص أثبت أن ذلك الجدار هو نهاية زائفة للكهف ، الذى يمتد فعليًا إلى مسافة كبيرة للغاية ، فى أعماق الأرض .

(*) حقيقة .

غمغم الرئيس مبهوتًا :

ـ أعماق الأرض ؟! وما الذى يمكن أن يعنيه هذا ؟!

أشار القائد الأعلى بيده مرة أخرى ، وهو يجيب :

ـ ما اتفقت عليه آراء العلماء والخبراء ، وهو أن ذلك الغزو ، أيًا كانت ماهيته ، أو كان مصدره ، يأتينا من هناك .

وضرب سطح الخريطة بسبَّابته ، مضيفًا :

ـ من أعماق الأرض .

حدَّق الرئيس طويلاً فى الخريطة ، محاولاً فهم أو استيعاب ما ، يمكن أن يعنيه هذا ، ثم لم يلبث أن تمتم فى توتر :

ـ هل تنوى مهاجمة الأعماق ؟!

لوَّح القائد الأعلى بيده ، قائلاً :

ـ لقد جربنا المواجهة عند السطح ، وخسرنا كل الجولات ، على الرغم من كل محاولاتنا ، ولم يعد لدينا ما يمكن أن نخسره أكثر من هذا .

وصمت لحظة ، ليحمل صوته بعدها نبرة عسكرية حازمة ، وهو يضيف :

ـ سنطلق قنبلة الأعماق ، نحو ذلك الممر ، الممتدّ من الكهف إلى باطن الأرض ، ونعمل على توجيهها عن بعد ، حتى تبلغ نهاية الممر ، وعندئذ ..

تطلّع إليه الرئيس فى شحوب ، دون أن ينتظر باقى العبارة ، التى لم يتمها القائد الأعلى قط ، وكأنما يدرك عقم إتمامها ، ثم تراجع الرئيس فى مقعده ، وشبّك أصابع كفيه أمام وجهه ، قائلاً :

ـ انفجار نووى محدود ، على عمق كبير ، فى باطن الأرض ، تحت أرض (مصر) مباشرة .

غمغم القائد الأعلى :

ـ ما من سبيل آخر .

تابع الرئيس ، وكأنه لم يسمعه :

ـ ارتجاج عنيف .. اضطراب داخلى .. زلازل .. نتائج لا يمكن التنبؤ بها .

تساءل القائد الأعلى ، فى شىء من الصرامة :

ـ هل ننتظر حتى يبدأ الغزو ، يا سيادة الرئيس ؟!

رمقه الرئيس بنظرة متوترة طويلة ، ثم أطلق من أعماق صدره زفرة عصبية ، ولوّح بيده ، قائلاً :

ـ أرجو ألا نكون فى سبيلنا إلى توقيع وثيقة موتنا .

ثم اعتدل ، وأضاف فى مرارة :

ـ ولكن ما من سبيل آخر .. أطلقوا قنبلة الأعماق .

وكانت البداية ..

بداية النهاية ..

★ ★ ★

6 ـ فى العمـــق ..

فى هذه المرة ، عاد الجميع بحق ..

القاعة كلها أضيئت ، وظهر فيها كل المفقودين ..

الدكتـور (أنـور شـعبان) ، وأسـتاذة الجيولوجيـا الدكتـورة (نهى) ، ومندوبا هيئة الآثار (مكرم) و(ياسر) ..

وأفراد فريق (نور) ..

وكانت الدهشة من نصيبهم هم هذه المرة ..

كلهم حدّقوا فى وجه (نور) ، وفيما حولهم ، وكأنهم يفيقون من سبات عميق ، أو غيبوبة طويلة ..

وران على القاعة كلها صمت رهيب ..

صمت متوتر ..

غامض ..

مضطرب ..

ثم كان (أكرم) هو أول من كسر هذا الصمت ، وهو يهتف :

ـ رباه ! ماذا يحدث ؟!

تطلّع إليه (نور) فى حذر ، وهو يتساءل : أهى حقيقة هذه المرة ، أم أنها جزء من اختبار الوهم الطويل ؟!

وبكل خوفها وانفعالها ، اندفعت ابنته (نشوى) نحوه ، وألقت نفسها بين ذراعيه ، هاتفة ، فى صوت أقرب إلى البكاء :

ـ أبى ؟! أين نحن ؟! وما الذى أتى بنا إلى هنا ؟!

احتواها (نور) بين ذراعيه فى حنان ، وصرخ قلبه بأنــه من المستحيل أن يكون هذا وهمًا ، فهمس فى أذنها فى ارتياح :

ـ اطمئنى يا صغيرتى .. والدك هنا لحمايتك .

لم يدر ما إذا كانت عبارته صادقة أم لا ، إلا أن كل ما أراده ، فى تلك اللحظة ، هو أن يبث فيها شيئًا من الاطمئنان ..

ومن المؤكد أنه نقل إليها ما أراد ؛ فقد أراحت رأسها على صدره ، مغمغمة فى خوف :

ـ ماذا سيفعلون بنا يا أبى ؟!

ربّت عليها فى حنان ، وزوجته (سلوى) تندفع نحوه بدورها ، فضمها إليه أيضًا ، و(أكرم) يقول فى عصبية :

ـ إذن فقد ظفروا بك أيضًا يا (نور) .

تمتم (نور) مبتسمًا فى شحوب :

ـ المهم أننا معًا يا صديقى .

اقترب الكل من بعضهم البعض ، وقال (رمزى) :

ـ ولكن أين نحن بالضبط ؟!

قبل أن يجيب (نور) تساؤله ، اندفع الدكتور (أنور) يقول :

ـ عندهم .. فى عالمهم .

كان صوته شديد الاضطراب ، كما بدا وجهه شاحبًا ، كوجوه مرافقيه الثلاثة ، والدكتورة (نهى) تقول مرتجفة :

ـ لا .. لا يمكننى أن أصدق مايحدث .. كل الصور الجيولوجية التى درسناها ، لم تشر إليهم قط .

وهتف مندوب هيئة الآثار (مكرم) :

ـ ولا نحن أيضًا يمكننا أن نشير إليهم .. إننا لم نر أيهم ، حتى هذه اللحظة .

جذبت العبارة انتباه (نور) ، فسأله :

ـ كيف أتيتم إلى هنا إذن ؟!

تبادل الأربعة نظرة حائرة ، قبل أن يقول الدكتور (أنور) ، فى صوت حمل رنة شك وحيرة :

ـ لا يمكننى أن أجيب سؤالك بدقة ، ولكن كل ما أذكره هو أننا قد دخلنا إلى ذلك الكهف ، وعثرنا فيه على آلات مدهشة .

أكملت الدكتورة (نهى) فى انفعال :

ـ آلات مصنوعة كلها من الماء .. أو من سائل أشبه بالماء .. آلات ليس لها مثيل فى عالمنا .

هتف مندوب هيئة الآثار (ياسر) :

ـ ثم فجأة ، أحاطوا بنا .

تبادل أفراد فريق (نور) نظرة متوترة ، فتابع المندوب الآخر (مكرم) ، فى عصبية واضحة :

ـ مخلوقات مائية .. كتل من الماء ، تتخذ هيئات شبه بشرية ، خرجت من جدران الكهف ، وأحاطت بنا من كل صوب .

ارتجف صوت الدكتورة (نهى) فى شدة ، مع إضافتها :

ـ ثم انقضت علينا .

هتف (أكرم) :

ـ ووجدتم أنفسكم هنا .

تبادل الأربعة نظرة شديدة التوتر ، قبل أن يغمغم الدكتور (أنور شعبان) فى توتر :

ـ بالضبط .. انقضوا علينا ، فغبنا عن الوعى ، أو فقدنا الإحساس به تمامًا ، ولم نستعد إدراكنا ، إلا لنجد أنفسنا فى هذه القاعة .

غمغم (أكرم) فى عصبية :

ـ هذا ما أصابنى أيضًا .

تمتم (رمزى) :

ـ وأنا .

وتبادلت (سلوى) نظرة متوترة مع (نشوى) ، قبل أن تقول :

ـ ونحن أيضًا .. لقد هاجمونا فى المعسكر .. مياه تدفّقت من الكهف ، وأحاطت بنا ، ثم فجأة ، تحولّت إلى تلك المخلوقات السائلة .

وهتفت (نشوى) :

ـ أشعة الليزر لم تؤثر فيها .

مطّ (أكرم) شفتيه ، وقال فى حدة :

ـ وكذلك رصاصات مسدسى .

قالها ، وهو يتحسّس مسدسه بحركة غريزية ، وأدهشه كثيرًا أن وجده فى موضعه ، فتمتم مستطردًا :

ـ ولهذا تركوه .

قال (نور) فى حزم ، وهو يدير عينيه فى وجوههم جميعًا :

ـ إذن فقد جمعونا كلنا هنا لسبب ما .

أشار (رمزى) بسبّابته ، قائلاً :

ـ السؤال هو : لماذا ؟! لماذا جمعونا ، ولم يحاولوا التخلُّص منا جميعًا .

كان (نور) يهم بإجابة سؤاله ، عندما اندفع الدكتور (أنور) ، يجيب فى عصبية :

ـ ليدرسونا .

استدار إليه الجميع فى توتر بالغ باستثناء (نور) ، الذى عقد حاجبيه فى ضيق ، و(أكرم) يهتف مستنكرًا :

ـ يدرسوننا ؟! لماذا ؟! أنحن فئران تجارب لهم ؟!

أشار الدكتور (أنور) بسبّابته ، مجيبًا :

ـ بالضبط .

استفز الجواب (أكرم) بشدة ، وهم بالصياح مستهجنًا ، ولكن الدكتورة (نهى) قالت مضطربة :

ـ وفقًا لما نتصوره ، بحكم خبرتنا ودراستنا ، فهذه الحضارة تسبق حضارتنا بملايين السنين .

اندفع الدكتور (أنور) يكمل :

ـ ربما بدأت على السطح مثلنا ، ثم انتقلت للعيش تحته ؛ بسبب كارثة بيئية رهيبة .. الانفجار الذى أودى بالديناصورات مثلاً(*) ، أو العصر الجليدى ، الذى لم تعد الحياة تطاق معه على السطح ، فلجأ البشر إلى الأعماق ، حيث الدفء والأمل .

تساءلت (سلوى) فى حيرة :

ـ لو أن هذا صحيح ، فلماذا لم تعد تلك الحضارة إلى السطح ، بعد نهاية العصر الجليدى ؟!

أجابتها الدكتورة (نهى) :

(*) تشير إحدى النظريات ، التى ناقشت انقراض الديناصورات ، قبل ظهور الإنسان ، إلى سقوط نيزك ضخم ، دمر الحياة على وجه الأرض ، وقضى على الديناصورات كلها ، ثم نشأت الحياة بعد زوال آثاره الرهيبة .

ـ ربما لأن عجلة التطور قد توقفت مع الكارثة ، واعتاد أهل تلك الحضارة العيش فى الأعماق ، واندثر تاريخهم تدريجيًا ، فلم تعد الأجيال التالية منهم تدرك أنهم قد بدءوا على السطح ، بل وربما استنكر بعضهم مجرد الفكرة .

غمغم (نور) :

ـ هذا ما حدث بالفعل .

استدارت العيون كلها إليه ، وهتف مندوب هيئة الآثار (مكرم) :

ـ وكيف تعرف هذا ؟!

أشار (نور) بيده إشارة مبهمة ، وقال :

ـ هم أخبرونى .

انعقد حاجبا (أكرم) فى شدة ، وحدّق (رمزى) فى وجه (نور) بدهشة ، شاركه فيها (سلوى) و(نشوى) ومندوبا هيئة الآثار ، فى حين غمغمت الدكتور (نهى) فى عصبية :

ـ هم ؟!

أما الدكتور (أنور) ، فقد هتف بمنتهى اللهفة :

ـ هل التقيت بهم ؟! هل رأيتهم ؟! أخبرنا كيف يبدون ؟! أهم تلك الكائنات السائلة ، أم ....

قبل أن يتم تساؤلاته ، دوت فى المكان بغتة فرقعة قوية ، ألجمت ألسنة الجميع ، ودفعتهم إلى حركة عشوائية مضطربة ، قبل أن يسحب (أكرم) مسدسه ، هاتفًا :

ـ ما هذا بالضبط ؟!

لم يكن قد أكمل عبارته ، عندما تساقطت تلك الفقاعات الكبيرة فجأة ، من سقف القاعة ..

فقاعات سائلة ، لامعة ، ضخمة ، تشبه تمامًا كرات من الزئبق ، المعروف فى عالمنا ، ولكنها شفافة كبيرة ..

وتراجع الكل بحركة حادة ..

تراجعوا مبتعدين عن تلك الفقاعات ، التى راحت تتحوّر فى سرعة ، كما لو أن يدًا خفية تعمل على تشكيلها ، والتمعت صورتهم على سطحها الشفاف نصف المصقول ، وهى تتشكل ..

وتتشكّل ..

وتتشكّل

ثم اتسعت عيون الجميع فى دهشة بالغة ..

فما تحوّلت إليه هذه الفقاعات الزئبقية كان عجيبًا ..

ومثيرًا ..

للغاية ..

★ ★ ★

اتسعت عينا رئيس الفريق العلمى عن آخرهما ، وهو يحدّق فى وجه القائد الأعلى ، فى مزيج من الذعر والدهشة والاستنكار ، قبل أن يقول ، فى عصبية شديدة :

ـ سيّدى .. هذا أمر بالغ الخطورة ، إلى حد لا يمكنكم تصوّره .

قال القائد الأعلى فى صرامة :

ـ إنها ورقتنا الأخيرة ، وواجبى يحتم علىّ أن ...

قاطعه رئيس الفريق فى حدة :

ـ وواجبى يحتم علىّ تحذيركم ، من مغبة هذا التصرّف ، وتبصيركم بعواقبه .

تراجع القائد الأعلى ، واستمع إليه فى توتر ، وهو يتابع فى انفعال شديد :

- منذ تسعينيات القرن العشرين ، دخلت (مصر) حزام الزلازل ، وأصبحت عالقة ، فوق صفائح أرضية جيولوجية غير مستقرة ، وانفجار عنيف كهذا ، فى أعماق الأرض ، فى منطقة (سيناء) ، كفيل بإصابة تلك الصفائح القارية غير المستقرة ، باضطراب مفاجئ عنيف ، لا يمكن التنبؤ بنتائجه قط ، فقد تأتى على هيئة زلزال قوى ، يتجاوز تسع درجات ، وفقًا لمقياس ريختر(*) ، أو موجة مد رهيبة هائلة ، تضرب شواطئ (مصر) ، والمنطقة المجاورة ، بارتفاع ثلاثين مترًا على الأقل ، وبقوة سحب تكفى لإبادة مدن ساحلية كاملة ، وإغراق قاطنيها فى أعماق البحر ، أو على هيئة تشققات تحت أرضية ، تدفع الحمم الملتهبة إلى السطح ، لتغمر (مصر) كلها ، من أقصاها إلى أقصاها .. باختصار ، تفجير تلك القنبلة قد يعنى دمارًا ، يفوق كل ما قد نتوقَّعه من ذلك الغزو .

بلغ توتر القائد الأعلى مداه ، هو يستمع إليه ، فنهض من خلف مكتبه ، وقال فى عصبية :

- ألديكم وسيلة أخرى إذن ؟!

(*) مقياس ريختر : نظام رقمى ، يسجل شدة الهزات الأرضية ، ابتكره عالم الزلازل الأمريكى (تشارلز ريختر) ، عام 1935م ، بلغ أعلى مقدار مسجل له (8.9) ، عام 1906م ، فى المحيط الهادى ، وفى اليابان عام 1933م ، والمقياس يقسم الزلازل إلى اثنتى عشرة درجة .

قلّب رئيس الفريق كفيه مستسلمًا ، وقال فى يأس :

- كلا للأسف .

أطلق القائد الأعلى من أعمق أعماقه زفرة متوترة عصبية ، وهو يلوِّح بيده ، قائلاً :

- ابحثوا إذن عن وسيلة لتفادى تلك الآثار المدمرة ، التى تتحدث عنها .

هزَّ الرجل رأسه فى عنف ، قائلاً فى عصبية :

- تفادى الآثار الجانبية للانفجار مستحيلة .. كل ما يمكننا هو تحديد أفضل منطقة ، يمكن اختيارها للتفجير ، لتقليل التداعيات إلى أقل حد ممكن ولكن مهما فعلنا ، ستكون النتائج أعنف مما يمكن تصوُّره .

شعر القائد الأعلى باختناق شديد ، مع محاصرته بتلك النتائج المخيفة ، فقال فى حدة :

- لا يمكننا الوقوف ساكنين .. لا بد وأن نفعل شيئًا .. أى شىء .

لم يجد الرجل جوابًا لهذا ، فاكتفى بقلب كفيه فى استسلام شديد ، دون أن ينطق بحرف واحد ، إلا أن القائد الأعلى التفت إليه ، قائلاً بمنتهى الصرامة :

ـ ابحثوا عن حل .

هزَّ رئيس الفريق رأسه فى استسلام ، وهو يقول فى يأس :

ـ مستحيل ! تفجير قنبلة نووية ، تحت قشرة الأرض ، فى أعماق (سيناء) ، لايمكن أن يمر دون أن ...

بتر عبارته بغتة ، وانعقد حاجباه فى شدة ، فانتبه القائد الأعلى ، وهتف به فى لهفة :

ـ هل وجدت الحل ؟!

تردَّد الرجل لحظة ، قبل أن يجيب ، فى حذر شديد :

ـ الحمم .

سأله القائد الأعلى بكل انفعاله :

ـ ماذا عنها ؟!

أشار رئيس العلماء إلى تلك الخريطة الجيولوجية ، التى أحضرها معه ، وقال فى توتر ، ما زال يحمل الكثير من الحذر :

ـ ماذا لو استخدمنا قنبلة الأعماق مع رأس تفجيرية عادية ، وليس رأس نووية محدودة .

سأله القائد الأعلى فى ترقُّب :

ـ وبِمَ يفيدنا هذا ؟!

عاد يشير إلى الخريطة ، مجيبًا ، وقد زال الكثير من حذره :

ـ لو أننا أحسنا توجيه القنبلة ، نحو تلك المنطقة ، فستفجِّر هذه الطبقة تحت الأرضية ، فتنطلق الحمم من باطن الأرض ، وتنسكب فى ذلك الممر الغامض ، الممتد من الكهف إلى الأعماق ، و ...

هتف القائد الأعلى ، مكملاً فى حماس :

ـ ونترك لقوى الطبيعة مهمة التعامل ، مع أولئك الغزاة ، فى باطن الأرض .

رفع رئيس العلماء يده ، وصاح فى حماس أكبر :

ـ بالضبط .

تألَّقت عينا القائد الأعلى ، وأشار إلى رأس الرجل ، قائلاً بمنتهى الحماس :

ـ كنت أعلم أن هذه العقول العبقرية ستجد مخرجًا حتمًا .

غمغم رئيس العلماء :

ـ لم يكن هناك مخرج آخر .

هتف القائد الأعلى :

ـ وهو مخرج رائع .. ما من قوة فى الكون كله ، يمكنها أن تتفوقَ على قوى الطبيعة ..

قالها ، وأصابعه تضغط أزرار جهاز اتصاله الخاص ، ليلقى أوامره الجديدة الصارمة ..

وليطلق شرارة الحرب ، نحو قوى ما زال يجهل الكثير عنها .. الكثير جدًا ..

★ ★ ★

« رباه ! إنها أجهزتنا .. »

هتفت (سلوى) بالعبارة فى ذهول ، وهى تحدق فى تلك الأجهزة والمعدات ، التى تكوَّنت من فقاقيع الزئبق الشفاف ..

كانت نماذج طبق الأصل من كل المعدات والأجهزة ، التى أحضرها الفريق معه ، عندما بدأ مهمته هذه ..

حتى الكمبيوتر الشخصى الخاص بـ (نشوى) ، كان يستقر هناك ..

أو هو نموذج طبق الأصل منه ..

نموذج زئبقى شفاف ..

بل نصف شفاف ..

فما أن تكوَّنت تلك الأجهزة والمعدات ، حتى راح ذلك الزئبق الشبيه يتماسك ويتصلب ، حتى أصبح مادة قوية ، اقتربت منها (سلوى) ، ولمستها بأصابعها ، قبل أن تغمغم :

ـ مدهش !

شعر (أكرم) بتوتر شديد ، جعله يصوِّب مسدسه إلى تلك الأجهزة الزئبقية ، وهو يقول فى حدة :

ـ أى عبث شيطانى هذا ؟!

أجاب (نور) فى خفوت :

ـ (الزوريوم) .

هتفت (نشوى) بكل دهشتها :

ـ الـ .... ماذا ؟!

فى حين ارتجفت سبَّابة الدكتور (أنور) مع صوته ، وهو يشير بها نحو (نور) ، هاتفًا فى انفعال :

ـ لقد أخبروك .. لقد أخبروك .

وسألته الدكتورة (نهى) فى توتر فضولى :

ـ وما هذا الـ .. (الزوريوم) ؟!

أجاب (نور) ، وهو يتحسَّس الأجهزة ، التى تماسكت ، وتحوَّلت إلى نسخ صلبة ، مماثلة تمامًا لأجهزة فريقه :

ـ إنه عنصر ذكى ، له جزيئات حيوية ، يمكنها التنقُّل ، من الحالة السائلة إلى الصلبة والعكس ، وباستطاعتها أن تتخذ أية هيئة تريد .

قالت (نشوى) فى حزم ، جعلها أقرب ما تكون شبهًا لأبيها :

ـ ليس المهم هيئتها ، وإنما السؤال هو : هل يمكن أن تعمل بنفس الكفاءة ؟

قالتها ، وتبادلت نظرة حذرة مع أمها ، ثم اتجهت كل منهما إلى جهازها ، وتعلَّقت كل العيون بأصابعهما ، التى راحت تعمل على الأجهزة الشبيهة ، قبل أن تقول (سلوى) بمنتهى الدهشة :

ـ رباه ! إنها تعمل بنفس الكفاءة .

أضافت (نشوى) فى توتر :

ـ ليس هذا فحسب ، ولكن ذاكرتها تحمل كل ما كانت تحمله أجهزتنا الأصلية .

اتسعت عينا (رمزى) ، وهو يقترب منهما ، قائلاً :

ـ إلى هذا الحد ؟!

شعر (أكرم) بتوتر أكثر ، وقبض على مقبض مسدسه بمنتهى القوة ، وهو يقول :

ـ هذا لا يروق لى .

أجاب (نور) ، دون أن يرفع عينيه ، عن تلك الأجهزة الزئبقية الشبيهة :

ـ وأنا كذلك .

هتف الدكتور (أنور) ، فى حماس شديد :

ـ ولكن هذا مدهش .. رائع .. فريد .

سألته الدكتورة (نهى) فى عصبية :

ـ ما الذى يبهجك إلى هذا الحد ؟!

أجابها فى حماس شديد :

ـ ألا يمكنك إدراك هذا ؟! أين حاستك العلمية إذن ؟! إنها فرصة نادرة ، لا يمكن أن تتاح لعالم ، إلا مرة واحدة فى الزمان كله .

حدَّق فيه مندوبا هيئة الآثار فى دهشة مستنكرة ، وهتف أحدهما فى استهجان :

ـ أية فرصة ؟! إننا ضائعون !

لوّح الدكتور (نور) بذراعيه كلتيهما فى حماس شديد ، وهو يقول :

ـ بل نحن محظوظون .. لقد منحنا القدر فرصة مدهشة ؛ لدراسة حضارة أخرى من داخلها ، ورصد مصادر قوتها ، وتاريخها ، وتطوّرها .. أى عالم فى التاريخ حظى بمثل هذا ؟!

صاح به (مكرم) فى حدة :

ـ بل أى عالم أحمق مجنون ، يمكن أن يفكّر بأسلوبك هذا ؟!

وهتف (ياسر) :

ـ هذا الرجل مجنون حتمًا .

لم يكد ينطقها ، حتى انطلقت شهقة قوية ، من حلق (سلوى) ، فالتفت إليها الجميع ، وسألها (نور) فى اهتمام متوتر :

ـ ماذا هناك يا (سلوى) ؟!

أشارت إلى جهازها ، مجيبة :

ـ هذا الجهاز يعمل جيدًا .

لم يفهم (نور) ما تعنيه ، فى حين سألها (أكرم) فى عصبية :

ـ وما الجديد فى هذا ؟!

عادت تشير إلى شاشة جهازها ، مجيبة :

ـ لقد التقط ارتجاجًا عنيفًا ، على ارتفاع ثلاثمائة متر ، من موقعنا هذا .

غمغم (نور) فى قلق :

ـ عند سطح الأرض ؟!

تابعت ، دون أن تتوقف عند عبارته :

ـ ارتجاج ناشئ عن جسم اخترق طبقات الأرض ، ويتجه إلى منطقة قريبة من موقعنا هذا .

وأدارت عينيها ، لتتطلّع إلى عينى (نور) مباشرة ، وهى تضيف ، بصوت شديد الارتجاف :

ـ منطقة تقود مباشرة إلى قلب الأرض .. إلى بحيرة كبيرة .

غمغمت الدكتورة (نهى) فى ارتياع :

ـ بحيرة .

أجابتها (سلوى) ، بصوت أكثر ارتجافًا :

ـ نعم .. بحيرة من الحمم الملتهبة .

واتسعت عيون الجميع عن آخرها ..

بمنتهى الرعب .

★ ★ ★

7 ـ الحمم ..

« نصف الساعة فحسب ، ويحدث الانفجار .. »

نطقها رئيس فريق العلماء فى توتر ، وهو يتابع الإحداثيات ، التى تتراص بتتابع سريع ، على شاشة جهاز كبير ، فسأله القائد الأعلى ، عبر جهاز اتصال مرئى خاص :

ـ هل يسير كل شىء على ما يرام ؟!

أجابه الرجل ، دون أن يفارقه توتره :

ـ نعم يا سيّدى .. أجهزة الحفر الليزرية ، مع الرءوس شبه الماسية ، تقوم بعملية الحفر ، على نحو ناجح منتظم ، والقنبلة تشق طريقها ، وفقًا للخريطة الجيولوجية ، نحو بحيرة حمم تحت أرضية ، متخذة مسارًا يربط تلك البحيرة ، بالممر الممتد فى ذلك الكهف الغامض إلى العمق ، وما أن تصل إلى هناك ، وتنفجر ، حتى تندفع الحمم ، إلى حيث نريد .

غمغم القائد الأعلى :

ـ عظيم .

صمت رئيس العلماء لحظة ، ثم قال فى حذر :

ـ سيسير كل شىء على ما يرام ، بافتراض سلبية رد الفعل .

جعلت العبارة الأخيرة القائد الأعلى يعتدل على مقعده ، قائلاً فى توتر بالغ :

ـ ماذا تعنى ؟!

تردّد رئيس العلماء لحظة ، قبل أن يجيب :

ـ إننا لا نعلم كيف سيردون على هجومنا هذا .

تراجع القائد الأعلى فى مقعده فى بطء ، وهو يتطلّع إلى الرجل ، ثم لم يلبث أن قال ، فى عصبية واضحة :

ـ ما نفعله يندرج تحت بند الدفاع ، لا الهجوم .

لوّح الرجل بيده ، قائلاً :

ـ لست أظن المسميات والمصطلحات ستصنع فارقًا فى الأمر .. لقد أطلقنا نحوهم قنبلة ، كفيلة بتدمير المكان ، الذى اتخذوه نقطة انطلاق لهم ، ولو أننا فى موضعهم ، لما وقفنا ننتظر هكذا ساكنين .

قال القائد الأعلى فى حدة :

ـ لو أننا فى موضعهم ، لما بادرناهم بالهجوم ، دون أى مبرّر .

تردَّد رئيس العلماء لحظة ، وبدا من الواضح أنـه يدير جوابًا ما فى رأسه ، قبل أن يلقى به ، فهتف القائد الأعلى فى عصبية :

ـ هات ما لديك يا رجل .

تردَّد الرجل لحظة أخرى ، ثم اندفع قائلاً :

ـ الواقع أننا قد درسنا هذا الموقف كله ، ولم يمكننا حسم هذه النقطة بالتحديد ؛ فهم لم يبادروا بأى هجوم .

هتف القائد الأعلى فى حدة :

ـ وماذا عن اختطاف الدكتور (أنور) ومجموعتـه .. وفريق (نور) ؟!

تراجع الرجل خطوة ، وهو يجيب :

ـ ربما كان هذا دفاعًا عن النفس .

لم يكن من الممكن أبـدًا إهمـال هذا الاحتمـال ، لـذا فقد حـدَّق القـائد الأعلـى فـى وجهـه لحظـة ، ثـم عـاد يتـراجع فـى مقعـده ، ويدير الفكرة فى رأسه ، ثم تمتم :

ـ مهما كانت البدايات ، لم يعد هناك مجال للتراجع .

وكانت عبارته هذه سليمة تمامًا ..

فوفقًا لبرنامج قنبلة الأعماق ، لم يكن من الممكن أبدًا إيقافها ، بعد أن تبدأ عملية الحفر ..

وهذا يعنى أن الانفجار آت لاريب ..

والحمم ستنطلق حتمًا ، من باطن الأرض ، إلـى ذلـك النفق ، الذى يربط الكهف بعالم الأعماق ..

وعندئذ ستلتهم كل شىء ..

وكل شخص ..

بلا رحمة ..

★ ★ ★

بكل توتر الدنيا ، راحت (سلوى) تتابع ، على شاشة الجهـاز الزئبقى البديل ، تقدم قنبلة الأعماق ، نحو بحيرة الحمم ..

وبكل ذعر الدنيا ، هتفت الدكتورة (نهى) :

ـ سنحترق كلنا .. الحمم ستتدفق هنا ، وتلتهم كل شىء .. لن ننجو .. لن ننجو أبدًا .

وانهار مندوبا هيئة الآثار تمامًا ، وراحا يصرخـان علـى نحو هستيرى ، فهتف (نور) بـ (رمزى) :

ـ مهمتك يا صديقى .

اندفع (رمزى) إليهما ، محاولاً تهدئتهما ، فى حين بدا الدكتور (أنور) ذاهلاً ، وهو يقول :

ـ ولكن لماذا ؟! لماذا فعلوا هذا .

انعقد حاجبا (أكرم) فى شدة ، وهو يحاول البحث عن جواب ما ، ويده تلوِّح بمسدسه ، دون هدف واضح ، فى حين التقط (نور) نفسًا عميقًا ، محاولاً السيطرة على أعصابه ، وهو يسأل (سلوى) و(نشوى) :

ـ كم تبقى أمامنا ؟!

أجابته (سلوى) فى توتر :

ـ اثنتان وعشرون دقيقة ، قبل أن تنفجر القنبلة ، فى بحيرة الحمم ، وست دقائق إضافية تقريبًا ، قبل أن تصل إلى هنا .

قالت الدكتورة (نهى) فى انهيار :

ـ سنموت قبل مضى نصف هذه الدقائق الست .. الغازات والأبخرة ، التى ستنطلق من الحمم الملتهبة ، ستبلغنا قبل الحمم نفسها .

كان منطقها سليمًا ، من الناحية العلمية ، إلا أن (نور) حافظ على تماسكه وهدوئه ، بقلب ينافس الأسود ، وهو يقول :

ـ هذا يعنى أن أمامنا عشرين دقيقة تقريبًا ؛ لنجد حلاً لهذا الأمر .

صرخت الدكتورة (نهى) :

ـ أى حل ؟! أى حل ؟! إنك تتحدَّث عن قوى الطبيعة .. أكثر القوى جبروتًا ، فى عالمنا كله .. لا أحد يمكنه أن يقف أمامها ، أو يتصدَّى لها .. لا أحد أمكنه مقاومة الفيضانات ، أو الأعاصير ، أو الثورات البركانية .

تجاهل (نور) حديثها تمامًا ، وهو يقول لـ (نشوى) :

ـ ماذا لو انفجرت القنبلة ، ولم تبلغ الحمم هذا المكان ؟!

هزَّت (نشوى) رأسها نفيًا ، وهى تراجع الخرائط الجيولوجية للمنطقة كلها ، وقالت فى يأس واضح :

ـ لا يوجد مسار آخر .

وأكملت (سلوى) مرتجفة :

ـ مسار القنبلة يحتم تدفق الحمم هنا .

وأضاف (أكرم) فى عصبية :

ـ ولسنا نملك أية وسيلة للمقاومة ، ونحن سجناء هنا كالفئران .

انعقد حاجبا (نور) فى شدة ، وأدار بصره فى عيون الجميع ، قبل أن يتراجع ، إلى منتصف القاعة ، ثم يهتف بكل قوته :

ـ وماذا عنكم ؟!

تطلّع إليه الجميع فى دهشة ، ولكنه تابع فى عصبية :

ـ ماذا ستفعلون ، لحماية عالمكم هذا ؟!

مضت لحظات من الصمت ، غمغم خلالها (أكرم) مشدوهًا :

ـ ماذا أصابك يا (نور) ؟!

صرخ (نور) مكرّرًا :

ـ ماذا ستفعلون ؟!

ومع صرخته الأخيرة هذه ، دوت فى القاعة فرقعة قوية .. فرقعة صمّت آذان الجميع ، قبل أن تتألّق جدرانها كلها بضوء عجيب ، يتحرك بسرعة مدهشة ، جعلت الدكتورة (نهى) تصرخ ..

وتصرخ ..

وتصرخ ..

ثم فجأة ، توقف ذلك الضوء ، وثبت تمامًا ..

ومع ثباته ، انبعث ذلك الصوت ، الشبيه بخرير المياه ، وهو يقول بتلك اللغة العربية ، ذات اللكنة العجيبة :

ـ عالمنا آمن .

انتفضت أجساد الجميع مع العبارة ، واتسعت عينا الدكتور (أنور) ، وهو يقول مبهورًا :

ـ إنهم هم .

ردّد (أكرم) ذاهلاً ، وهو يدور حول نفسه ، ملوحًا بمسدسه فى كل الاتجاهات :

ـ هم ؟!

تابع الصوت ، وكأنه لا يشعر حتى بوجودهم :

ـ أنت قلتها أيها المقدم .. تكنولوجيتنا تفوق كل ما توصلتم أنتم إليه بكثير .. ربما لأننا هنا قبلكم بكثير .. كثير جدًا .

هتف الدكتور (أنور) ، وكأن علمه هو كل ما يشغله :

ـ كيف نشأتم ؟! ومتى ؟!

مرة أخرى ، تجاهله ذلك الصوت تمامًا ، وتابع حديثه ، بذلك الخرير العجيب :

ـ أسلحتكم ، مهما بلغت قوتها ، لا يمكنها أن تزلزل دفاعاتنا ، التى نطورَها منذ ملايين السنين .. قنبلتكم ستنفجر فى بحيرة الحمم ، ولكن شيئًا لن يصيب عالمنا ، أو يصيبكم .

تبادل الكل نظرة صامتة انفعالية ، ثم تساءل (نور) فى حذر :

ـ هل ستغيرون مسار الحمم ؟!

أجابه الصوت فى هدوء :

ـ كلاً .. الحمم ستنطلق إلى أعلى ، عبر المسار الذى ستحفره قنبلتكم فقط ، لأنها لن تجد مسارًا آخر تسلكه .

تساءلت الدكتورة (نهى) فى عصبية :

ـ وكيف هذا ؟!

أجابها الصوت ، فى هدوء بالغ :

ـ لأن الكهف لن يكون هناك .. ولا الممرات ، التى تقود منه إليكم ، أو إلى عالمنا .. كل هذا سينتقل فورًا ، قبل لحظة واحدة من انفجار القنبلة .. قنبلتكم .

اتسعت عيون الكل فى دهشة متسائلة ، وهتف (أكرم) فى عصبية شديدة :

ـ أى عبث هذا ؟! أريد أن أفهم ما يحدث هنا ..

ربُت (رمزى) على كتفه ، مغمغمًا :

ـ هذا يحتاج إلى عقلية مختلفة يا صديقى .

التفت إليه بحركة حادة ، هاتفًا فى غضب :

ـ ماذا تعنى بقولك هذا ؟! ماذا تعنى ؟!

أما (نور) ، فقد تساءل بكل القلق :

ـ ماذا تعنى بأن كل هذا سينتقل .

صمت الصوت بضع لحظات ، ثم قال :

ـ ربما يفوق هذا إدراككم .

قالت (نشوى) فى حدة :

ـ لو أنك اختبرت ما واجهناه ، لما نطقت هذه العبارة الحمقاء .

صمت الصوت طويلاً هذه المرة ، حتى تصوُر الكل أنه لن يجيب أبدًا ، فتطلعت (سلوى) إلى شاشة الجهاز الزئبقى البديل ، وقالت فى توتر شديد :

ـ ست عشرة دقيقة فقط تبقت .

وكرُرت الدكتورة (نهى) فى انهيار :

ـ لا فائدة .. سنموت جميعًا .

مع آخر حروف كلماتها ، عاد ذلك الصوت الخريرى يقول :

ـ هل يمكنكم استيعاب الانتقال الزمكانى ؟!

بدت حيرة مرتبكة على وجه (أكرم) ، فى حين بدا التوتر على وجوه الجميع ، و(نشوى) تغمغم :

ـ انتقال زمكانى ؟! تعنى أنكم ستنقلوننا جميعًا ، عبر الزمان والمكان .

أتاها الجواب رهيبًا :

ـ لن ننقلكم وحدكم .. بل سننقل شعبنا كله .. كل شىء سيقفز عبر الزمان والمكان ، إلى نقطة ما فى المستقبل ، تتجاوز مرحلة الخطر تمامًا .

اتسعت العيون كلها فى دهشة ، وهتف (نور) :

ـ آه .. هذا ما فعلتموه إذن ، عندما انفجرت القنابل النووية المحدودة .. انتقلتم إلى المستقبل ، عبر الزمان والمكان .

حدّق فيه الكل بذهول ، وغمغمت (سلوى) مبهوتة :

ـ قنابل نووية محدودة ؟! متى حدث هذا ؟!

جاء الصوت ليمنع (نور) من إجابتها ، أو شرح ما حدث على السطح ، وهو يقول :

ـ كانت مجرد قفزة محدودة للغاية ، عبر الزمان والمكان ، لساعات ودقائق قليلة ، ولكننا هذه المرة سنقفز قفزة كبيرة .. قفزة تكفى لتفادى كل ما ستواجهه المنطقة ، إثر انفجار القنبلة وتستمر حتى ينسى الكل تداعياتها ، ومعها قصتنا كلها .. باختصار .. قفزة إلى مرحلة زمكانية آمنة .

تبادل الكل نظرة شديدة التوتر ، وهتف (نور) :

ـ وما هى تداعيات انفجار القنبلة .

مضت لحظة طويلة من الصمت ، قبل أن يقول ذلك الصوت فى هدوء شديد :

ـ لسنا نظن أنه سيسعدك أن تعرف هذا .

فجّرت الإجابة ذعرًا عنيفًا ، فى نفوس الجميع ، فصرخت الدكتورة (نهى) ، وانهار مندوبا هيئة الآثار ، وتراجع الدكتور (أنور) مذعورًا ، وشهقت (سلوى) و(نشوى) ، وهتف (أكرم) ، وهو يلوّح بمسدسه :

ـ أيها الأوغاد .

أما (نور) ، فقد صاح فى غضب:

ـ ليس من حقكم أن تفعلوا هذا .. ليس من حقكم .

صرخت (سلوى) ، مع نهاية عبارته ، فاستدار الكل إليها ، ليسمعوا (نشوى) تقول فى انفعال ، وهى تشير إلى شاشة الجهاز الزئبقى البديل :

ـ أبى .. الزمن يتسارع ، على نحو مخيف .

حدّق الكل فى شاشة الجهاز الشبيه ، وخفقت قلوبهم فى عنف ، مع الساعة الرقمية ، فى ركن الشاشة ، والتى راحت أرقامها تتغيَّر بسرعة مخيفة ، فصرخ (نور) مرة أخرى :

ـ ليس من حقكم .

لم تكد صرختة تكتمل هذه المرة ، حتى اهتزَّت الأجهزة الزئبقية فى عنف ، وراحت تفقد تكوينها ، وتستعيد قوامها الزئبقى شبه السائل ، فصرخت (سلوى) :

ـ ماذا يحدث يا (نور) ؟! ماذا يحدث ؟!

وبكل عصبية الدنيا ، راح (أكرم) يطلق رصاصات مسدسه من حوله ، صائحًا :

ـ أيها الأوغاد .. أيها الأوغاد .

امتزج دوى رصاصاته بصرخات الجميع ، والأجهزة البديلة تتحوَّل كلها مرة أخرى ، إلى فقاعات زئبقية شفافة ، وضوء القاعة يخفت ..

ويخفت ..

ويخفت ..

ومع صرخة أخيرة ، أظلمت القاعة تمامًا ..

وفور إظلامها ، شعر الكل بضغط هائل على عقولهم وأجسادهم ..

ضغط يفوق قدرتهم على الاحتمال ..

ولمرة أخيرة ، صرخ (نور) :

ـ ليس من حقكم .

ثم هوى عقله فى بئر عميقة ..

أو فى كهف ..

كهف مظلم .. بلا نهاية ..

* * *

« دقيقتان فحسب ، ويحدث الانفجار .. »

انعقد حاجبا القائد الأعلى فى توتر شديد ، عندما سمع عبارة رئيس فريق العلماء ، عبر جهاز الاتصال الخاص ، وتراجع فى مقعده ، محاولاً السيطرة على انفعاله ، وهو يستعيد كلمات الرجل ..

لا أحد يدرى ، كيف سيكون رد الفعل ..

هناك شىء ما حتمًا فى الأعماق ..

شىء ربما جاء من أعماق الفضاء ، ليستقر فى أعمق أعماق كوكب الأرض ..

شىء غامض ..

مجهول ..

مخيف ..

ربما هى مقدمة غزو بالفعل ..

غزو ، اختار مسارًا مختلفًا هذه المرة ، فبدلاً من أن يسقط من أعلى ، انقض من أسفل ..

من تحت الأرض ..

عبر كهف رهيب ..

كهف لا يشبه أى كهف آخر ، عرفته الأرض كلها ..

ولقد عجز كل العلماء عن فهم ما يحدث ..

أو حتى توقُّع خطوة تالية ..

كل ما أمكنهم الجزم به ، هو أن ذلك الشىء يمثل الخطر ..

كل الخطر ..

لهذا كانت محاولات مواجهته ..

ولهذا كانت القنبلة ..

قنبلة الأعماق ..

دقيقة وبضع ثوان ، وتنفجر هناك ..

فى أعماق الأرض ..

ومع انفجارها ، ستندلع حرب ، لا أحد يمكنه التنبؤ بأبعادها ..

أو مداها ..

أو نتائجها ..

فالغزاة ، أيًا كانت ماهيتهم ، لن يقفوا صامتين ، أمام هجوم مباشر كهذا ..

سيكون هناك حتمًا رد فعل ..

رد فعل مجهول ..

وهذا أمر حتمى ، لايمكن أن يكون الخوف منـــه مـبررًا ، للسكوت على مقدمات غزو كهذا ..

هكذا الحرب ..

لا أحد يربحها على طول الخط ..

ولا أحد يخسرها ، دون قتال عنيف ، ومقاومة حتى آخر رمق ..

« دقيقة واحدة ، ويحدث الانفجار .. »

تردَّد صوت رئيس الفريق ، عبر جهاز الاتصال الخاص ، فـاعتدل القائد الأعلى فى مقعده ، وتعلَّق بصره بتلك الخريطة الجيولوجية الرقمية أمامه ، التى ترسم مسار قنبلة الأعماق ، وهى تشق طريقها ، نحو بحيرة الحمم ، عبر ذلك النفق ، الذى يقود من الكهف إلى ..

« ربـــاه ! »

نقل جهاز الاتصال الخاص صرخة رئيس فريق العلماء المذعورة ، فوثب القائد الأعلى من مقعده ، هاتفًا :

ـ ماذا حدث يا رجل ؟!

ارتجف صوت رئيس العلماء بشدة ، وهو يقول :

ـ النفق .. ذلك النفق ..

أعاد القائد الأعلى بصره إلـى الخريطـة الرقميـة الجيولوجية ، وهو يهتف :

ـ ماذا به ؟!

لـم يكد يلقى السؤال ، حتـى انتفض جسده كلـه فـى عنـف ، وحدَّق فى الخريطة بمنتهى الذهول ..

وأدرك تمامًا أنه لم يكن بحاجة إلى الجواب ..

فعلى الشاشة ، بدا الجواب واضحًا .

جليًا ..

ومخيفًا ..

ذلك النفق لم يعد هناك ..

لقد اختفى فجأة ، وكأنه لم يكن هناك أبدًا ..

اختفى النفق ..

والممرات ..

وحتى الكهف نفسه ..

وبمنتهى الذهول ، غمغم القائد الأعلى :

ـ مستحيل !

أتاه صوت رئيس العلماء ، عبر جهاز الاتصال ، وهو يقول فى انهيار شديد :

ـ رباه ! الحمم لن تجد مسارًا آخر .. ستتفجَّر هنا .. فى قلب (سيناء) ، وستغمر منطقة كبيرة .. ستكون هناك زلازل عنيفة .. وفيضانات .. إنها كارثة .. كارثة رهيبة يا سيِّدى .

اتسعت عينا القائد الأعلى عن آخرهما ، وحدَّق فى شاشة تلك الخريطة الجيولوجية الرقمية فى ارتياع ، ورئيس العلماء يصرخ ، بكل انفعاله وانبهاره :

ـ كارثة .. كارثة رهيبة .. لقد دمرنا (مصر) كلها أيها القائد .. (مصر) كلها ..

وامتقع وجه القائد الأعلى ، بكل ارتياع الدنيا ، وتعلَّق بصره تمامًا بتلك الخريطة ، وهو يسقط على مقعده ..

وعلى الشاشة ، راح العد التنازلى يتواصل ..

ويتواصل ..

ويتواصل ..

عشر ثوان تبقت قبل الانفجار .

قبل الكارثة ..

وصرخ رئيس فريق العلماء :

ـ سامحنا يا إلهى ! سامحنا .

أما القائد الأعلى ، فقد تجمَّد على مقعده ، وعيناه معلقتان بالشاشة فى يأس تام ..

ست ثوان تبقت ..

خمس ..

أربع ..

اثنتان ..

واحدة ..

ودوى الانفجار ..

★ ★ ★

8 ـ زمن آت ..

كل شىء كان مضطربًا ..

مرتبكًا ..

عنيفًا ..

كل شىء ..

لم يشعر (نور) ، فى حياته كلها ، بآلام تفوق ما شعر به ، فى تلك اللحظات القليلة ..

كان وكأنه يسبح فى أعماق سحيقة ، والضغط على جسده كبير ..

كبير للغاية ..

ولأنه يسبح فى الأعماق ، كان تنفسه عسيرًا ..

ثقيلاً ..

مرهقًا ..

لذا ، فقد قاوم ..

وقاوم ..

وقاوم ..

« استرخ يا (نور) .. هذه هى الوسيلة الوحيدة .. »

أتاه صوت (محمود) هادئًا ، ففتح عينيه ، وحدَّق فيه فى دهشة بالغة ، قبل أن يقول :

ـ أيعنى هذا أننى فى غيبوبة عميقة ؟!

ابتسم (محمود) ، واقترب منه ، قائلاً :

ـ أصبحت تدرك متى نلتقى يا صديقى .

تلفَّت (نور) حوله ، وحاول أن يمد بصره عبر الفراغ الهائل ، الذى يحيط به من كل صوب ، فغمغم (محمود) :

ـ ألم تعتد هذا بعد يا صديقى ؟!

أومأ (نور) برأسه إيجابًا ، وتساءل :

ـ ماذا عن الباقين ؟!

أجابه (محمود) فى هدوء :

ـ ما أصابكم ليس هينًا يا (نور) ، وأجساد البشر غير مؤهلة لهذا الانتقال الزمكانى الكبير .

سأله (نور) فى إصرار :

ـ ماذا عنهم ؟!

صمت (محمود) بضع لحظات ، ثم أجاب فى هدوء :

ـ سيتعافون يا (نـور) .. لـولا اعتيادهم مثل هذه الأمور ، لكانت العواقب وخيمة .

هتف (نور) فى ارتياع :

ـ أيعنى هذا أنهم مصابون ، على نحو ما ؟!

كرَّر (محمود) فى حزم :

ـ سيتعافون يا (نور) .

وصمت لحظة ، ثم أضاف فى أسى :

ـ على عكس الآخرين .

انتفض جسد (نور) ، وهو يقول :

ـ ماذا تعنى ؟!

ربت (محمود) على كتفه ، قائلاً :

ـ ستعرف كل شىء يا (نور) .. ستعرف كل شـىء ، عندما تستعيد وعيك .

شعر (نور) بالدهشة ، عندما شـعر بيده لأول مـرة ، فتطلع إليه فى دهشة ، وغمغم :

ـ يبدو أن اتصـالنا هذه المـرة ، أقوى من كل مـرة أخرى يا (محمود) .

ابتسم (محمود) ابتسامة باهتة ، وهو يجيب :

ـ هذا صحيح يا (نور) .

ثم مال نحوه ، مضيفًا :

ـ ربما بفضل رحلتكم ، عبر الزمكان .

جعلت العبارة (نور) ينتفض من أعماقه وهو يقول فى توتر :

ـ ماذا تعرف عما حدث يا (محمود) ؟!

أشار (محمود) بيده قائلاً :

ـ إنها قفزة يا (نور) ، قفزة غير مألوفة ، عبر الزمان والمكان .. ليس انتقالاً زمنيًّا عاديًّا ، كذلك الذى خاضه الفريق من قبل ، فى أكثر من مرة ، حتى ألفه واعتاده(*) .. إنه حالة خاصة ، فى اتجاه واحد .. حالة يمكنك أن تصفها بأنها لارجعية ..

انعقد حاجبا (نور) ، وهو يقول :

ـ أحتاج إلى مزيد من التفسير يا (محمود) .

أومأ (محمود) برأسه متفهمًا ، وقال :

ـ إنه ليس انتقالاً عبر نهر الزمن يا (نور) .. بل هو أمر مختلف .. قفزة عبر محورى الزمان والمكان معًا .. قفزة إلى المستقبل وحده .. أسلوب ربما يتوصل إليه العلم الأرضى ، بعد جيلين أو ثلاثة .

(*) راجع قصص (عبر العصور) ، (أسرى الزمن) ، (شيطان الأجيال) ، و(الزمن = صفرًا) .. المغامرات أرقام (54) ، (55) ، (56) ، و(100) .

سأله (نور) فى قلق :

ـ أتعنى أننا لم نعد فى زمننا ؟!

هزَّ (محمود) رأسه نفيًا ، وهو يقول :

ـ ولا حتى فى المكان ، الذى انطلقتم منه يا (نور) .

سأله (نور) ، وقد تضاعف قلقه فى شدة :

ـ أين أصبحنا إذن يا (محمود) ؟!

صمت (محمود) بضع لحظات ، قبل أن يجيب :

ـ فى المستقبل يا (نور) ... مستقبلكم .

مع الكلمة ، انتفض (نور) فى عنف ..

انتفض أو شعر بجسده ينسحب فجأة ، من ذلك الفراغ الهائل ، المحيط به من كل صوب ..

كان وكأنه ينطلق ، عبر نفق طويل مظلم ..

أو كهف عميق ..

عميق ..

عميق إلى أقصى حد ..

ثم فجأة أيضًا ، استعاد وعيه ..

وبحركة حادة ، فتح عينيه ، وهبّ جالسًا ، وحدّق فيما حوله ، بمنتهى الدهشة والتوتر ..

لقد اختفت القاعة ..

لم تعد هناك فقاعات شبه كروية ..

أو أشباه أجهزة زئبقية ..

أو جدران سائلة ..

لم يعد هناك أى شىء ..

فقط صخور ، وأحجار ، وأرضية ترابية صخرية ..

تمامًا كما كان عليه ذلك الكهف ..

ومن حوله ، كان رفاقه كلهم فاقدى الوعى ..

أو هكذا بدوا ..

وفى توتر حذر ، نهض (نور) ، يتحسَّس تلك الصخور والأحجار المحيطة به ، وكأنه يحاول التيقن مما يراه ..

إنها صخور حقيقية ..

هذا ليس وهمًا ..

ليس وهمًا على الإطلاق ..

مضت لحظة ، حاول فيها أن يستوعب الموقف كله ، ثم أسرع يفحص رفاقه فى توتر بالغ ..

(أكرم) و(رمزى) كانت حالتهما مقبولة ، أما (سلوى) و(نشوى) ، فقد كانت أنفاسهما قصيرة ، ونبضاتهما بطيئة غير منتظمة ، على نحو جعله يهتف فى ارتياع :

ـ رباه ! ماذا يحدث ؟! ماذا يحدث ؟!

مع هتافه ، أدار عينيه إلى الركن ، و ...

وانتفض جسده كله ..

فهناك ، كان يستقر هيكلان عظميان ، يرتديان نفس الثياب ، التى كان يرتديها مندوبا هيئة الآثار ، (مكرم) و(ياسر) .. وعلى مقربة منهما ، كانت الدكتورة (نهى) ملقاة أرضًا ، وقد اتسعت عيناها عن آخرهما ، وتغضن جلدها على نحو مخيف ، كما لو أن عمرها قد قفز ثلاثين سنة إلى الأمام دفعة واحدة ..

وكانت تفتقر إلى كل مظاهر الحياة ..

أجساد ثلاثتهم لم تستجب لتلك القفزة ، التى وصفها (محمود) بأنها لارجعية ، عبر الزمان والمكان ..

ولكن الرجلين لقيا مصرعهما على الفور ..

أما هى ، فقد عاش جسدها ، بقفزة واحدة ، وكل تطورات العمر وربما ماتت بالشيخوخة ..

فى لحظة واحدة ..

انتقل بسرعة إلى الدكتور (أنور) ، الذى كان فاقد الوعى بدوره ، إلا أن أنفاسه المنتظمة كانت تشير إلى أنه على ما يرام ..

لذا ، فقد عاد (نور) إلى ابنته وزوجته ، يحاول إنعاشهما وإسعافهما ، وهو يقول بمنتهى التوتر :

ـ ساعدنى يا إلهى ! ساعدنى .

سمع من خلفه سعالاً قويًا ، ميز صوت صاحبه على الفور ، قبل حتى أن يقول (أكرم) فى توتر :

ـ (نور) .. أين نحن ؟!

كان ينهض بدوره ، ويحدق فيما حوله ، بكل توتر الدنيا ، ثم اتسعت عيناه عن آخرهما ، وهو يتطلع إلى ما أصاب الرجلين والمرأة ، وهتف بكل عصبية :

ـ ماذا أصابنا يا (نور) ؟!

أجابه (نور) ، وهو يواصل محاولة إسعاف زوجته وابنته :

ـ إنها قفزة يا صديقى .. قفزة عبر الزمان والمكان .

هتف (أكرم) :

ـ إلى أين ؟!

لم يستطع (نور) إجابته ..

أو لم يحاول هذا ..

فهو نفسه يجهل ، أين أصبحوا !!

كل ما يعرفه ، هو أنهم فى المستقبل ..

مستقبلهم ..

ولكنه لا يدرى متى بالضبط .

ولا أين ..

ندت من (رمزى) حركة ، فى تلك اللحظة ، توحى بأنه يوشك على استعادة وعيه ، فالتفت إليه (أكرم) ، قائلاً :

ـ هل .. هل الجميع بخير ؟!

أجابه (نور) فى انفعال :

ـ أتعشَّم هذا ..

لم يكد ينطقها ، حتى التقطت مسامعهما معًا ، تلك الأصوات ، التى تقترب من موقعهما ..

كان وقع أقدام عديدة يقترب ..

ويقترب ..

ويقترب ..

وبكل التوتر ، نهض (نور) ، يتطلَّع إلى حيث تأتى الأصوات ، فى حين سحب (أكرم) مسدسه ، وهو يقول فى عصبية :

ـ ماذا هذه المرة ؟!

اقترب وقع الأقدام أكثر وأكثر ، ثم راحت بعض الأضواء تتراقص ، على نحو يوحى بأن أصحاب الأقدام يحملونها ..

وفجأة ، ظهروا هناك ..

عند أول منحنى ..

وصوَّب (أكرم) مسدسه ، هاتفًا :

ـ لو تحرَّك أحدكم ، فسوف .

قبل أن يتم هتافه ، تألَّقت ثياب القادمين ، على نحو ملحوظ ..

كانوا كلهم يرتدون ما يشبه أزياء الفضاء القديمة ، بنسيجها اللامع ، وتلك الخوذات على الرءوس ..

ولقد تألق الزى ، حتى بهر عينى (نور) و(أكرم) ، فضغط هذا الأخير زناد مسدسه ، صارخًا :

ـ لن تظفروا بى أبدًا .

ضغط زناد مسدسه مرة ..

وثانية ..

وثالثة ..

ولكن رصاصاته لم تنطلق ..

أما القادمون ، فقد صوَّب أحدهم ما يشبه طبق الاستقبال الفضائى نحو الرجلين ..

وانطلقت من ذلك الشىء موجة قوية ..

موجة ضربت (نور) و(أكرم) فى عنف ..

موجة اخترقت جسديهما ..

وعقليهما ..

وكيانهما كله ..

وفى ألم رهيب ، صرخ (نور) :

ـ لماذا ؟! لماذا ؟!

أصابته موجة أخرى ، من ذلك الشىء ، فانتفض جسده بمنتهى العنف .. ثم غاب عن الوعى مرة أخرى ..

غاب تمامًا ..

فى هذه المرة ، كانت الغيبوبة عجيبة ..

عجيبة إلى أقصى حد ..

ففيها ، شعر (نور) أنه يسبح فى فراغ رهيب ..

ولم يحدث أى اتصال ، بينه وبين (محمود) ..

فقط فراغ ..

فراغ بلا حدود ..

ثم راح ذلك الفراغ يقل ..

وينكمش ..

ويتلاشى ..

وعاد (نور) يشعر بما حوله ..

لم يكن قد فتح عينيه بعد ، عندما شعر أنه يرقد على فراش ناعم وثير ، داخل مكان هادئ نظيف ..

وفى بطء حذر ، فتح عينيه ، وتطلّع إلى ما حوله ..

ولقد كان شعوره صحيحًا تمامًا ، بالنسبة إلى المكان ..

وليس بالنسبة إلى الفراش ..

فما يرقد عليه لم يكن فراشًا بالمعنى المعروف ..

بل كان وسادة هوائية ترفعه عن الأرض ، بحيث يبدو وكأنه يحلّق بجسده ، على ارتفاع متر واحد من الأرض ..

ومن حوله ، كانت هناك أجهزة عديدة ..

أجهزة لم ير مثلها قط ..

أجهزة ذات شاشات هولوجرامية ، ثلاثية الأبعاد ، تبدو كلها وكأنها تسبح فى فراغ الحجرة ، وعليها منحنيات مجسمة ، متعددة الأشكال والألوان ..

وعلى جسده ، كانت هناك قطع صغيرة ، تلتصق بموضع صدره ، وجبهته ، وسبّابته اليمنى ..

وكان من الواضح أنها أجهزة قياس شديدة التطوّر ، تنقل كل معدلاته الحيوية لاسلكيًّا ، إلى تلك الأجهزة الهولوجرامية الطافية من حوله .. ليس هناك شك إذن ..

إنه المستقبل ..

حجرة عناية مركزة مستقبلية ، فى مستشفى شديد التطوّر ..

هذا هو التفسير الوحيد .

حاول أن ينهض ، إلا أن جسده كان مرهقًا وثقيلاً للغاية ، فغمغم فى توتر :

ـ أريد أن أعرف .

أتاه صوت مألوف ، يقول ، عبر وسيلة اتصال خفية :

ـ ستعرف كل شىء .. المهم الآن أنكم جميعًا بخير .

حاول (نور) أن يتذكّر متى وأين سمع ذلك الصوت المألوف ، وقال محاولاً النهوض مرة أخرى :

ـ أين الباقون ؟!

أجابه الصوت نفسه :

ـ كلهم بخير .. اطمئن ..

قال فى إصرار :

ـ أريد أن أراهم .

بدا الصوت شديد الارتياح ، وهو يقول :

ـ بالتأكيد .

ثم انزاح جزء من الجدار المقابل ، وبدا وكأن الصوت يأتى من خلفه ، قائلاً :

ـ لايمكنك أن تتصورَ مدى سعادتى باستعادتكم ، بعد أن أكد الكل أن هذا مستحيل ! كنت واثقًا من أنكم ستعودون يومًا ما ، ولم أيأس أبدًا .

ضاقت عينا (نور) ، وهو يتطلَّع إلى ذلك الجسد البشرى ، الذى ظهر خلف الجدار المنزاح ، والذى تقدم داخل المكان بابتسامة كبيرة ، قائلاً فى سعادة وارتياح واضحين :

ـ حمدًا لله على سلامتكم يا جدى .

وانتفض جسد (نور) بمنتهى العنف ..

فالآن فقط ، تذكَّر أين ومتى سمع هذا الصوت ..

والآن فقط ، أصبح واثقًا من أنهم قفزوا إلى المستقبل ..

وبلا عودة .

★ ★ ★

انتهى الجزء الثانى بحمد الله

ويليه الجزء الثالث والأخير بإذن الله

(الكهف)

د. نبيل فاروق

ملف المستقبل
سلسلة روايات بوليسية للشباب من الخيال العلمى

154

الثمن فى مصر 300
وما يعادله بالدولار الأمريكى
فى سائر الدول العربية والعالم

الزئبق الجاف

- خطر غامض ، يبتلع كل من يقترب من ذلك الكهف الرهيب ، فى قلب (سيناء) ..
- وغزو جديد ، يأتى هذه المرة ، من أعمق أعماق الأرض ..
- تُرى من سيربح حرب السيطرة .. البشر أم عالم (الزئبق الجاف) ؟!
- اقرأ التفاصيل المثيرة ، وقاتل بعقلك ، وكيانك ،مع فريق (نور) .. من أجل الأرض.

العدد القادم

(الكهف)

الجزء الثالث والأخير

المؤسسة العربية الحديثة
للطبع والنشر والتوزيع بالقاهرة والإسكندرية

Looloo
www.dvd4arab.com

فى مكان ما من أرض (مصر) ، فى حقبة ما من حقب المستقبل ، توجد القيادة العليا للمخابرات العلمية المصرية ، يدور العمل فيها فى هدوء تام ، وسريّة مطلقة ، من أجل حماية التقدُّم العلمى فى (مصر) ، ومن أجل الحفاظ على الأسرار العلمية ، التى هى المقياس الحقيقى لتقدم الأمم .. ومن أجل هذه الأهداف ، يعمل رجل المخابرات العلمية (نور الدين محمود) ، على رأس فريق نادر ، تم اختياره فى عناية تامة ودقة بالغة ..

فريق من طراز خاص ، يواجه مخاطر حقبة جديدة ، ويتحدّى الغموض العلمى ، والألغاز المستقبلية ..

إنها نظرة أمل لجيل قادم ، ولمحة من عالم الغد ، وصفحة جديدة من الملف الخالد ..

ملف المستقبل .

د. نبيل فاروق

1ـ بلا عودة ..

عجيب هو ذلك المستقبل ..

جالت العبارة فى رأس المقدَّم (نور الدين محمود) ، قائد أشهر فريق مخابرات علمية عرفته الأرض ، وهو يرقد هناك ، على تلك الوسادة الهوائية الناعمة ، داخل واحدة من أحدث غرف العناية المركَّزة ، فى ذلك الزمن المتقدِّم ..

ومن حوله ، راحت تلك الأشكال والشاشات الهولوجرامية تسبح فى فضاء الحجرة ..

لن يعتاد هذا المشهد أبدًا ..

أبدًا ..

كان يحاول جاهدًا تصفية ذهنه ، بعد المجهود الشاق الذى بذله جسده البشرى المحدود ، فى تلك القفزة الزمكانية ، التى لم يدرك أبعادها جيدًا بعد ..

القفزة التى أتت به وبفريقه إلى ذلك الزمن ..

المستقبل ..

حاول أن يسترخى ويغلق عينيه ، وهو يستعيد كل ذكرياته السابقة ..

ذكريات الكهف ..

ذلك الكهف الغامض ، الذى كشفته بعثة الدكتور (أنور شـعبان) ، فى جبال (سيناء) ..

ثم اختفت ..

البعثة كلها اختفت داخل الكهف ..

ودون أن تترك خلفها أدنى أثر ..

لغز غامض مثير ، كان يستدعى إرسال أقوى فريق علمى إلى المنطقة ، مزودًا بكل الأسلحة والمعدات والأجهزة ..

ولكن الخطر كان هائلاً ..

كان أكبر بكثير من الفريق نفسه ..

وهنـاك ، فى قلب (سيناء) ، واجـه الفريق أهوالاً ما بعدها أهوال ، وراح أفراده يختفون ، واحد بعد الآخر ..

وعندما تصوَّرت القيادة أن كل شىء قد فنى ، وأن الخطر يزحـف نحو (مصر) ، والعالم كله من بعدها ، اتخذت واحدًا من أخطر قراراتها ..

قرار نسف المنطقة كلهـا ، بقنبلة نووية محدودة ، ومحوها مـن الوجود تمامًا ، بكل ما عليها ..

ومن عليها ..

المخابرات العلمية المصرية ضحَّت بأقوى وأخطر فرقها ورجالهـا ، فى سبيل درء الخطر عن العالم كله ..

ومحيت المنطقة من الوجود ..

وبقى الكهف ..

كل ما حدث ، هو أن (نور) ورفاقه قد وجدوا أنفسـهم فـى عالم آخر ، وسط حضارة مختلفة ..

أو كما وصفها الدكتور (أنور شعبان) ، وسط سلسلة مختلفـة من التطوّر ..

حضارة قديمة ، تفوق حضارتنا عمرًا ومـدى ، اختفت فى باطن الأرض ، فرارًا من العصر الجليدى(*) ، منذ ملايين السنين ، وراحـت تتطورَّ ..

وتتطورَّ ..

وتتطورَّ ..

ومؤخرًا جدًّا ، صعد علماؤها إلى السطح ..

وكشفوا وجود حضارة مختلفة ..

(★) العصر الجليدى ، أو (البلايستوسين) : حقبة سادت فيها الثلوج العالم ، وانخفضت الحرارة إلى حد مميت ، ليغطى الجليد كل منطقة الشمال ، وأجزاء كبيرة من (أوروبـا) و(آسيا) ، وفيها انقرضت الديناصورات ، ونشأت بعض الأنواع ، مثل : (الماموث) .

حضارتنا ..

وبالنسبة لهم ، كنا كائنات عدوانية للغاية ..

كائنات تتقاتل فيما بينها ، وتتناحر فى عنف ، وتبتكر يوميًا وسائل قتل وتدمير لا حصر لها ..

وتفسد الأرض ..

وكدفاع عن النفس ، كان عليها مواجهتنا ..

وتدميرنا ..

ولأن قادتنا لم يدركوا هذا ، فقد واصلوا حربهم مع تلك القوى الغامضة فى باطن الأرض ..

كل هذا ، و (نور) وفريقه ، وبعثــة الدكتور (أنـور) ، يختبرون تلك الحضارة تحت الأرضية ، ويندهشون من ذلك المعدن الحيوى ، الذى قامت عليه تكنولوجيتها شديدة التطوّر ..

(الزوريوم) ..

عنصر تخليقى ، يجمع بين المعدن والمادة الحية ، ولـه قـدرة مدهشة على التشكل فى أية هيئة ، والتحوّل فى لحظات من حالة السيولة التامة ، إلى الجفاف والصلابة الشديدين ..

وبينمـا يحـاول (نـور) حل اللغز ، والاتصال بأصحاب تلك الحضارة تحت الأرضية ، كان القادة علـى السطح يستخدمون قنبلـة أعمـاق ، لتفجير بحيرات الحمم ، وتدمير تلك الحضارة كلها ..

ولكن حضـارة تحت الأرض كانت تسبقنا بملايين السنين لـذا فلم يكن لأسلحتنا أى أثر يذكر عليها ..

كل ما فعلوه هو أن قفزوا بحضارتهم كلها ، بتكنولوجيا تفوق تصوّرنا ، عبر الزمن والمكان ، إلى نقطة ما فى المستقبل ..

نقطة تجاوزت كل الخطر ..

وتركت (مصر) تواجه مصيرها الرهيب ..

مصيرها البشع ..

فالحمم التى تفجَّرت فى الأعماق ، لم يكن لها سوى مخرج واحد .. فى قلب (مصر) ..

أما (نور) وفريقه ، فالله (سبحانه وتعالى) وحده يعلم أين ذهبوا ..

وكيف سيكون مصيرهم هناك ..

فى مستقبل بلا أمل ..

وبلا عودة (*) ..

★ ★ ★

(★) لمزيد من التفاصيل ، راجع الجزأين الأول والثانى (المفقودون) ، و(الزئبق الجف) .. المغامرتين رقمى (153) و(154) .

كل شىء يبدو عجيبًا فى عينى (نور) ..

كل شىء ..

ذلك الفراش الهوائى ، الذى يرقد عليه ..

آلات الفحص الهولوجرامية ..

الجدران المتألِّقة ، بذلك الضوء الهادئ ..

وحتى التلفاز أمامه ..

كان جهاز (هولوفيزيون) ، ثلاثى الأبعاد ، اعتاد ، رؤيتـه فـى مقر الفريق ، أو حتى فى منزله الخاص ، إلا أنه لم يكن منتشرًا بين العامة ..

فى زمنه ..

نعم .. هنا تكمن العقدة ..

ذاكرته ما زالت تحمل نمط زمانه ..

ولكنه لم يعد فيه ..

لم يعد ينتمى إلى الزمن الطبيعى ، الذى ينبغى أن يمضى فيه عمره ..

إنه الآن فى زمن آت ..

فى مستقبل ..

بالنسبة له ..

« ألم تستوعب الأمر بعد ؟! »

أتـاه السـؤال بذلك الصوت المـألوف ، فـالتفت إلى صاحبه ، وطالع ابتسامته الهادئة ، التى ذكرته بابتسامة ابنته (نشوى) ، وقـال :

- أيبدو لك أمرًا يسهل استيعابه يا (طارق) ؟!

تطلَّع إليه (طارق) فى هدوء ، يحمل لمحة من الشفقة ، امتزجت بنظرة انبهار وتقدير ، ثم جلس على طرف الفراش الهوائى ، وهو يقول :

- ربما ليس بالنسبة لأى شخص عادى ، ولكن مع من له مثل سجلك الحافل ، ومن خاض مغامراتك المستحيلة ، فأظنه أمرًا يمكن فهمه على الأقل .

هزَّ (نور) رأسه ، قائلاً :

- ربما تبالغ فى تقدير قدراتى .

ابتسم (طارق) ، مجيبًا :

- مطلقًا .

ثم التقط نفسًا عميقًا ، وتابع :

- ولكننى لا أمانع فى إعادة شرح الأمر كله على مسامعك ، لو أن هذا يفيد .

اعتدل (نور) ، قائلاً :

ـ كلى آذان مصغية .

أومأ (طارق) برأسه متفهمًا ، واعتدل بدوره ، يقول :

ـ حتى هذه اللحظة ، لم يتوصَّل علماؤنا قط لحقيقة ما حدث هناك ، فى باطن الأرض ، ولكن بعض النظريات تقول : إنه كان هناك شعب عظيم ، يحيا تحت أقدامنا ، دون أن نشعر أو نعى .. شعب سبقنا فى سلم الحضارة والتطوّر ، وبلغ شأنًا ، ربما لن نبلغه ، قبل مضى مائة قرن على الأقل .

كان (نور) يستمع بكل الشغف والانتباه ، و(طارق) يتابع :

ـ وربما لم ندرك وجود ذلك الشعب ، إلا عندما قرَّر أن يترك الأرض كلها ، بحثًا عن عالم أفضل .

غمغم (نور) فى حيرة :

ـ عالم أفضل ؟!

أومأ (طارق) برأسه ، قائلاً :

ـ بالتأكيد ، فبعد الكارثة الكبرى ، لم يعد باطن الأرض آمنًا ، ولم يعد استمرارهم ممكنًا ، ولما لم تكن أجسادهم مؤهَّلة للعيش على السطح ، فقد سعوا للبحث عن عالم آخر ، تحت أرضى ، يمكنهم العيش فيه بسلام .

غمغم (نور) :

ـ مثل كوكب (الزهرة) (*) .

وافقه (طارق) بإشارة من يده ، وقال :

ـ بالضبط .

هزّ (نور) رأسه فى قوة ، وكأنما يعجز عن استيعاب كل هذا ، ثم قال فى حزم :

ـ هناك نقاط عديدة ، تستوجب التوقف عندها يا (طارق) ؛ فما هى تلك الكارثة الكبرى ، وكيف غادر شعب الأرض كوكبنا ؟! و...

قاطعه (طارق) مبتسمًا :

ـ فيما بعد .. ستجد أجوبة لكل أسئلتك فيما بعد .. أما الآن ، فدعنا نوضّح ما أصابكم أولاً .

كان هناك ألف سؤال وسؤال ، يجوس فى رأس (نور) ، إلا أن قول (طارق) بدا منطقيًّا ، فكتم (نور) أسئلته فى أعماق خلايا مخه الرمادية ، وحاول أن ينصت جيدًا ، و(طارق) يكمل :

(★) كوكب الزهرة ، ثانى كواكب المجموعة الشمسية ، بعدًا عن الشمس ، وهو محاط بغلاف غازى سميك ، يعوق الرصد ، ودرجة حرارة سطحه شديدة الارتفاع ، بالنسبة للحياة البشرية .

ـ أفضل ما فعله شعب (جروندا) .. وهو بالمناسبة الاسم الذى يطلقونه على أنفسهم ، قبل أن يغادر الأرض ، هو أن ترك لنا بعض علومه ، لنفيد منها فى تطوّرنا ، وفى منع أية كارثة أخرى فى المستقبل .. من تلك العلوم كان سر (الزوريوم) .. ذلك المعدن الحيوى المدهش ، الذى سيقفز بتطوّرنا التكنولوجى ألفى عام على الأقل ، ونظم الاتصال العقلى الفائقة ، و ...

صمت لحظة ، قبل أن يضيف ، فى صوت بدا أكثر خفوتًا :

ـ وأنتم .

انعقد حاجبا (نور) فى شدة ، وهو يقول :

ـ نحن ؟!

أومأ (طارق) برأسه ، وقال ، فى لهجة لم يبد عليها الارتياح :

ـ بالنسبة لهم ، كنتم مجرد عينات بشرية ، محفوظة فى حالة تجمُّد صناعى ، للفحص والدراسة ، ولكن ...

قاطعه (نور) مستنكرًا :

ـ للفحص والدراسة ؟!

بدت له الصورة بشعة أكثر مما ينبغى ، فهزّ رأسه فى قوة ، وكأنما يحاول أن يطرد الفكرة منها ، قبل أن يتابع فى عصبية :

ـ وماذا فعلوا بنا بالضبط ؟!

زفر (طارق) فى توتر ، مجيبًا :

ـ هذا ما نحاول معرفته .

أشاح بوجهه وهو ينطقها ، فاتسعت عينا (نور) عن آخرهما ، وأمسك معصمه فى قوة ، قائلاً :

ـ مهلاً .. هذه النقطة لا يمكن تجاوزها ، دون شرح واف .

أومأ (طارق) برأسه متفهمًا ، وتنهّد فى عمق ، قبل أن يغمغم :

ـ كنت أتوقَّع هذا .

ثم أفلت معصمه من قبضة (نور) ، وتحرّك فى توتر ، داخل تلك الحجرة ، التى يبدو كل ما فيها عجيبًا ، قبل أن يلوّح بذراعيه ، قائلاً :

ـ أول اتصال لنا ، مع شعب (جروندا) ، كان قبيل رحيلهم بالضبط ، وربما أجروا الاتصال مضطرين ؛ لأن رحلتهم إلى الفضاء تستلزم أولاً الصعود إلى السطح ، أو ربما لأن تكنولوجيا الفضاء لدينا كانت أكثر تطورًا ، بحكم تواجدنا ونمونا على السطح .. المهم أن الاتصال قد تم فى سرية بالغة ، وعبر قنوات أمنية حذرة ، على رأسها المخابرات التكنورقمية ، وهى فرع متطوّر ، من إدارة المخابرات العلمية السابقة .

غمغم (نور) :

ـ كل شىء تغيَّر بالفعل .

تجاهل (طارق) هذا التعليق ، وهو يكمل :

ـ لست أدرى بالضبط ماذا تم فى ذلك الاتصال ؛ إذ أنهم يعتبرونه من الأسرار العليـا للدولة ، ولكن اتفـاق ما تمّ بين باطن الأرض وسطحها ، بموجبه تم تزويـد شـعب (جرونـدا) بتكنولوجيا فضائية متطوِّرة ، وتزويدنا نحن بما سبق أن ذكرته .. وسـائل الاتصـال ، والمعدن الحيوى ، والعينات البشريةَ .

تمتم (نور) فى مرارة :

ـ نحـن .

أومأ (طارق) برأسه إيجابًا ، وهزَّ كتفيه ، قائلاً :

ـ لم يكن هذا متوقعًا ، فقد كان اختفاء فريقكم حدثًا مهمًّا ومعروفًا ، فى التاريخ الأمنى كله ، وكان البعض يردِّد قصصكم مثل الأسـاطير ، أو الروايات الخيالية ، واسمكم صار اسمًا لواحد من أرفع أوسمة الشجاعة ، بعد الكارثة الكبرى .

قال (نور) فى اهتمام متوتر :

ـ أتعنى بالكارثة الكبرى ذلك الانفجار ، الذى أحدثه تدفُّق الحمـم فى (سيناء) ، عبر ممر الكهف الذى ...

قاطعه (طارق) :

ـ ألا تود ترك هذا للنهاية ؟!

مطَّ (نور) شفتيه ، قائلاً :

ـ سيكون الفضول قد التهمنى عندئذ .

زفر (طارق) مرة أخرى ، وقال :

ـ حسن .. كارثة الحمم كانت رهيبة بحق ، فانفجارها فى قلب (سيناء) أخلَّ بالتوازن البيئى الطبيعى فى عنف ، مما تسبَّب فـى زلازل هائلة ، وفيضانات ، وانقلاب عنيف فـى الطقس .. الحمـم نفسـها أبادت كـل القرى والبلدان المتاخمـة للموقع ، وكـان عدد الضحايا يفوق ما شهدته حروب الغزاة نفسها (*) .

شعر (نور) بانقباض عنيف فى صدره ، مع ذكر كل هذا الدمار ، الذى تعافه نفسه دومًا ، وتمتم :

ـ يا للبشاعة !

تنهَّد (طارق) ، وقال فى مرارة :

ـ ولكن كل هذا لا يقاس بالكارثة الكبرى .

امتقع وجه (نور) ، وهو يسأله :

ـ ما هى ؟!

أشار بيده ، مجيبًا :

(★) راجع قصة (الاحتلال) ... المغامرة رقم (76) .

ـ سلاح جديد ، ابتكره الأمريكيون ، وأرادوا به استعادة مجدهم القديم ، عندما كانوا يومًا على قمة العالم ، قبل أن يحكمهم نظام دموى حاقد أشعل الحروب فى كل أنحاء الأرض ، وهدَّد الجميع ، وقهر الحريات ، فانهار النظام الأمريكى كله .. كانت محاولة من إدارة جديدة ، لابتكار سلاح جبار ، يعيد (أمريكا) إلى القمة ، وكان سلاحًا رهيبًا بالفعل ، ولكن حتى هم لم يقدروا مقدار قوته ، عندما قاموا بتجربته .

وصمت لحظة ، ثم أضاف فى توتر شديد :

ـ تحت الأرض .

خُيِّل لـ (نور) أنه قد بدأ يربط الأحداث أخيرًا ببعضها البعض ، وهو يقول فى انفعال :

ـ فهمت تلك التجربة هى التى هدَّدت أمان واستقرار شعب (جروندا) ، وأفسدت بيئته ، ودفعته إلى الفرار من الكوكب كله .

تنهَّد (طارق) فى آسى ، وقال :

ـ تلك التجربة كادت تودى بالكوكب كله ، وليس بأعماقه وحدها .. لقد ارتفعت حرارة الأرض إلى حد مخيف ، حتى أن البشر كانوا يسقطون صرعى فى الطرقات ، إلا أولئك الذين يعيشون فى مناطق شديدة البرودة ، أو الذين تمكنوا من الاحتماء بوسيلة ما .. عقد كامل من الموت والخراب والدمار شهده العالم .. ملايين البشر

لقوا حتفهم ، إما حرقًا ، أو مرضًا ، أو جوعًا .. الآلاف أصابهم تشوهات خلقية رهيبة .. لا أحد تجاوز ذلك العقد ، دون أن يدفع الثمن ، من دمه ، وأعصابه وعمره .. لا أحد ..

تمتم (نور) ، وهو يتلفَّت حوله مرة أخرى :

ـ ولكنكم نجوتم .

مرة أخرى ، تنهَّد (طارق) ، وقال :

ـ لم يكن ذلك هينًا .. لقد احتاج إلى جهد يفوق الوصف ، وإلى إرادة من فولاذ .. وإلى عقدين كاملين من العمل الشاق ، دون كلل أو ملل أو توقف .

عقدين كاملين !!

عشرين عامًا كاملة !!

ياله من رقم !

ويا لها من مفاجأة !!

كان يريد أن يلقى سؤاله ، ولكن (طارق) تابع ، والأسى يتقاطر من شفتيه مع كلماته :

ـ المهم أن (جروندا) قرَّروا الرحيل ، وأجروا الاتصال معنا ، ومنحونا إياكم ، فى حالة مدهشة ، كانت مفاجأة مذهلة للجميع ، وخاصة بعد أن اعتبرتكم كل كتب التاريخ مفقودين أو موتى .

تسارعت أنفاس (نور) ، وهو يسأله :

ـ كيف كنا ؟!

لوَّح بيده ، مجيبًا :

ـ مجمدين .. كنتم فى حالة غير مسجلة لدينا ، على الرغم من تقدُّمنا العلمى ، وكان على علمائنا أن يبذلوا جهدًا خرافيًّا ؛ لفهم حالتكم ، وإفاقتكم .

وصمت لحظة ، ثم أضاف فى حذر :

ـ ولقد احتاج هذا إلى عامين إضافيين .

اتسعت عينا (نور) ، وهو يسأله :

ـ ربما ارتبكت الأرقام فى ذهنى ، ولكن كم بقينا مفقودين .. أو كم بقينا على هذه الحالة ؟

صمت (طارق) لحظات ، وكأنما يطمئن إلى تأثير عبارته فى (نور) ، قبل أن يجيب فى توتر شديد :

ـ اثنين وثلاثين عامًا ..

وعلى الرغم من توقعه هذا ، كان وقع الجواب مفاجئًا لـ (نور) .. بشدة .

★ ★ ★

2ـ المصـــير ..

فى صمت تام ، وسكون جعله أشبه بالتماثيل ، وقف القائد الأعلى للمخابرات التكنورقمية ، يتطلَّع عبر نافذة مكتبه الكبيرة ، على ذلك المشهد الممتد أمامه ، إلى مدى البصر ، دون أن ترى عيناه منه لمحة واحدة ..

كان ذهنه كله ينطلق بعيدًا ..

بعيدًا جدًّا ..

ألف فكرة وفكرة ، وألف سؤال وسؤال ، كلها تدور فى رأسه ..

فالموقف ليس طبيعيًّا ..

حتى بالنسبة لعلوم المستقبل ..

ففى كل السجلات والوثائق الرسمية ، كان (نور) وفريقه قد فقدوا ، واعتبروا ضحايا واحدة من مهماتهم المستحيلة ، منذ ما يزيد عن ثلاثة عقود كاملة من الزمن ..

كتب التاريخ تحمل أسماءهم ..

وصورهم ..

وحكاياتهم ..

أوسمة الدولة صارت تحمل رمزهم .. كيانهم تحوَّل إلى أسطورة ..

مجرَّد أسطورة ..

ثم فجأة ، عادوا إلى الحياة ..

لا أحد يدرى كيف ، أو لماذا ؟!

ولكنهم عادوا ..

عادوا ومعهم لغز كبير ..

لغز أضخم من أن يواجهه أحد ..

قطع تسلسل أفكاره المضطربة أزيز خافت ، أعقبه صوت بالغ النعومة ، يقول فيما يشبه الهمس :

ـ الرائد (طارق) ..

كان نظام اتصال آليًّا ، لم يكد يسمعه القائد الأعلى ، حتى قال ، دون أن يلتفت خلفه :

ـ ادخل أيها الرائد .

لوهلة ، ظلَّت الصورة خلفه جامدة ، ثم لم يلبث جزء من الجدار أن تموَّج فى بطء ثم اختفى ، ليظهر من خلفه (طارق) ، الذى تقدَّم داخل حجرة مكتب القائد الأعلى ، فى خطوات عسكرية ، قبل أن يقول فى حزم :

- الرائد (طارق) يا سيِّدى .

التفت إليه القائد الأعلى ، وتطلَّع إلى وجهه بضع لحظات ، بنظرة حملت مزيجًا من الاهتمام والتساؤل والحيرة ، قبل أن يعتدل ، ويسأله فى حزم :

- كيف تقبَّل الأمر ؟!

مطَّ (طارق) شفتيه ، وقال :

- ربما أفضل مما تصوَّرنا ، ولكنه ما زال يعانى من صدمة قبول الحقيقة ؛ فالانفصال عن زمن كامل ليس بالأمر السهل .. إنها ليست رحلة عبر الزمن ، كالتى قام بها مع فريقه من قبل ، وإنما ضياع من عالم كامل .. رحلة بلا عودة ، وبقاء فى زمن ، يعد بالنسبة لهم مستقبلاً .

زفر القائد الأعلى ، وهزَّ رأسه ، بحركة توحى بصعوبة تقبُّل الأمر ، ثم قال فى خفوت :

- وهل علم أن هذا دائم ؟!

أومأ (طارق) برأسه إيجابًا ، وقال :

- عقليته تسمح باستيعاب مثل هذه الأمور ، ولكن الاستيعاب شىء ، وتقبُّل الأمر شىء آخر تمامًا ..

غمغم القائد الأعلى :

- أعلم هذا .. أعلم هذا .

وزفر مرة أخرى ، قبل أن يشير إلى ركن الحجرة ، فتألق جزء منه ، ثم ظهر عنده مكتب مستدير ، اتجه إليه ، وجلس خلفه ، متسائلاً فى قلق أكثر :

- وهل علم ما أصاب الباقين ؟!

هزَّ (طارق) رأسه ، قائلاً :

- ليس بعد .

تراجع القائد الأعلى فى مقعده ، وتطلَّع إلى (طارق) طويلاً هذه المرة ، قبل أن يقول فى توتر شديد :

- وماذا عنك أنتَ ؟!

لم يحر (طارق) جوابًا هذه المرة ، وإنما اكتفى بنظرة صامتة مستسلمة ، جعلت القائد الأعلى يتابع ، فى توتر أكثر :

- وجودك يدل على أن الأحداث كلها لا تسير فى الاتجاه الصحيح .

غمغم (طارق) :

- أعلم هذا .

ثم رفع رأسه ، مستطردًا فى حزم :

ـ ولكننى ما زلت موجودًا .

تراجع القائد الأعلى بنظرة متسائلة ، فتابع (طارق) :

ـ وهذا يعنى أن الأمر لم ينحسم بعد ، فى مجرى الزمن .

زفر القائد الأعلى للمرة الثالثة ، ونهض من خلف المكتب ، الذى عاد يختفى ، فور ابتعاده عنه ، وهو يقول ، وقد بلغ توتره مداه :

ـ ولسنا ندرى ما إذا كان سينحسم أم لا .

وصمت لحظة ، ثم أضاف فى عصبية :

ـ بعـد .

صمت (طارق) بضع لحظات ، ثم شد قامته ، قائلاً :

ـ سيِّدى .. منذ ظهرت إلى الوجود ، وهناك أكثر من علامة استفهام حولى ، وربما يؤكد ملفى أن التحليل الجينى وحده حدَّد هويتى منذ البداية ، وهذا يعنى أن وجودى فى هذه الحياة ، وفى زمن تواجدى ، كان أمرًا ليس مألوفًا ، بالنسبة للقوانين الحيوية العادية ، وربما يكمن السبب فيما حدث .

تطلَّع إليه القائد الأعلى طويلاً ، ثم هزَّ رأسه ، وقال فى خفوت :

ـ الزمن سيبت فى هذا الأمر ..

الزمن ..

ترى ما الذى يخفيه ؟!

أو ما الذى يعنيه ؟!

بل ، ما الذى يمكن أن يعنيه ؟!

وماذا سيثبته ؟!

أو ينفيه ؟!

مـاذا ؟!

مـاذا ؟!

★ ★ ★

« أين الرفاق ؟!.»

طرح (نور) السؤال ، فى لهجة حملت من التوتر والانفعال ، أضعاف ما حملته من القلق والاستفسار ، فتطلَّع إليه (طارق) لحظات فى صمت ، قبل أن يجيب ، فى لهجة حاول أن يجعلها هادئة :

ـ الأمر لم يكن هينًا ، بالنسبة للجميع .

أمسك (نور) ذراعه فى قوة ، وهو يقول :

ـ ما الذى يعنيه هذا ؟!

حاول (طارق) أن يفلت أصابع (نور) فى رفق ، وهو يجيب :

ـ لم نفهم بعد تلك الحالة ، التى كنتم عليها ، عندما احتفظ بك سكان (جروندا) ، ولكن أجسادكم كانت داخل فقاعات كبيرة ، فى ذلك (الزوريوم) ، الذى لم نكشف كل أسراره بعد ، ولقد أعادوكم إلينا ، وقد بدءوا عملية إنعاشك وحدك .

سأله (نور) فى لهفة :

ـ وماذا عن الباقين ؟!

صمت (طارق) لحظة ، ثم أجاب ، وهو يبذل جهدًا أكبر ؛ لإفلات أصابعه :

ـ مازال علماؤنا يبذلون قصارى جهدهم .

اتسعت عينا (نور) فى ارتياع ، وعاوده ذلك المشهد ، الذى رآه ، قبل أن يستعيد وعيه ، فشدَّد ضغط أصابعه على ذراع (طارق) ، وهو يقول فى توتر شديد :

ـ ولكنهم على قيد الحياة .. أليس كذلك ؟!

بدت له لحظة الصمت الإضافية ، التى مرَّ بها (طارق) ، أشبه بدهر كامل ، قبل أن يقول هذا الأخير :

ـ لو أنك تقصد أفراد الفريق ، فهم كذلك على الأرجح .. والدكتور (نور) يشاركهم حالتهم ، أما الدكتورة (نهى) ، فقد ..

أكمل (نور) فى عصبية :

ـ شاخت على نحو ملحوظ ، فى حين تحوَّل الشابان الآخران إلى هيكلين عظميين .

حدَّق فيه (طارق) بمنتهى الدهشة ، وقال :

ـ رباه !... كيف علمت هذا ؟!

هزَّ (نور) رأسه فى قوة ، وقال فى عصبية :

ـ لست أدرى .. لم أعد أفهم شيئًا ، منذ دخلنا ذلك الكهف .

وصمت لحظة ، قبل أن يضيف :

ـ ويلوح لى أننا لم نخرج منه بعد .

قال (طارق) فى دهشة :

ـ ما الذى يعنيه هذا ؟!

أشار (نور) بسبَّابته ، وعاد يتلفَّت حوله ، قائلاً :

ـ ربما لم يعد الكهف نفسه ، الذى خرجنا فيه من عالمنا وزمننا ، ولكنه كهف مستقبلى .. كهف ربما أصبحنا فيه مجرَّد كائنات وهمية ، عادت إلى الحياة ، أو أسطورة انبعثت من الرماد كالعنقاء (*) ..

(★) العنقاء : طائر خرافى ، فى أساطير المصريين القدماء ، يقال إنه لما بلغ عمره خمسمائة عام ، أحرق نفسه ، وبرزت من رماده عنقاء أخرى ، وهو رمز البعث أو الخلود .

وحمل صوته الكثير من المرارة والأسى ، قبل أن يضيف :

ـ كهف تكنولوجى .

تطلّع إليه (طارق) مشفقًا ، ثم قال ، محاولاً التماسك :

ـ أنَا واثق من أن كل شىء سيسير على ما يرام .

التفت إليه (نور) بحركة حادة ، قائلاً :

ـ ومن أدراك ؟!

انفرجت شفتا (طارق) ، وبدا أنه يهم بقول شىء ما ، ثم لم يلبث أن تراجع عن عزمه ، مجيبًا :

ـ لدى أسبابى .

وانعقد حاجبا (نور) ، وهو يتطلّع إليه مليًا ، بمنتهى العمق ..

وفى هذه المرة ، خيّل إليه أنه يرى فيه ما لم يره من قبل ..

ملامحه تشبه بعض من عرفهم ..

ابتسامته تشبه ابتسامة ابنته (نشوى) ..

وجبهته عريضة مثل (رمزى) ..

وخصلات شعره شبيهة بخصلات شعر (سلوى) ..

لها نفس السواد ، المائل إلى الكستنائية ..

أما عيناه ، فهما تذكرانه بعينين رآهما كثيرًا .. كثيرًا جدًّا ..

رآهما ، ولكنه لا يذكر متى ..

أو أين ..

وربما يعنى هذا أنه ينتمى إلى ...

« هل ترغب فى رؤيتهم ؟! »

قطع (طارق) تسلسل أفكاره بسؤاله ، فانتفض (نور) انتفاضة خفيفة ، وقال :

ـ بالتأكيد .. هل يمكننى هذا ؟!

ابتسم (طـارق) تلك الابتسـامة الهادئـة ، الشبيهة بابتسـامة (نشوى) وهو يقول :

ـ بالإضافة إلى رغبتى الشخصية ، لدى أوامر قوية ، من القائد الأعلى شخصيًا ، بتنفيذ كل رغباتك يا جـ ...

بتر كلماته فجأة ، وصمت لحظة ، ثم اتسعت ابتسامته ، وهو يكمل :

ـ يا سيدّى .

لاحظ (نور) ذلك البتر ، إلا أنه لم يعلّق على العبارة أو الموقف ..

ربما لأنه كان شديد اللهفة على رؤية رفاقه ..

ومعرفة موقفهم ..

شديد اللهفة إلى أقصى حد ..

ولكن اللهفة شىء ، والمواجهة شىء آخر تمامًا ..

فالمشهد قد بدا له مروعًا بحق ..

كان الجميع يرقدون داخل فقاعات شفافة هلامية ، من (الزوريوم) ، الذى يحيط بأجسادهم ، ويضعها فى حالة جمود تام ..

(سلوى) ..

و(نشوى) ..

و(رمزى) ..

و(أكرم) ..

وكذلك الدكتور (أنور) ..

كلهم كانوا داخل تلك الفقاعات العجيبة ، التى بدت شفافة ومتألقة فى الوقت ذاته ، على نحو مدهش ..

وحولهم ، كان هناك جيش من العلماء والأجهزة ..

علماء من كل لون ونوع ، وأجهزة لم ير (نور) مثلها من قبل قط ..

أجهزة تفوق أحدث ما عهده بأكثر من ثلاثين عامًا ، من عجلة تطوّر تتسارع مع كل ثانية ..

وكان المشهد مهيبًا ..

رهيبًا ..

مخيفًا ..

وبصوت حمل رنة مرارة ولهفة ، تساءل (نور) :

ـ أهناك أمل ؟!

كان يتمنى أن يومئ (طارق) برأسه إيجابًا ، أو أن يمنحه جوابًا حماسيًّا ، أو حتى شافيًا ..

بل ، وكان سيقبل بجواب مفتعل ..

ولكن (طارق) لم يمنحه إياه ..

فقط لاذ بالصمت بضع لحظات ، تطلّع خلالها إلى المشهد بدوره ، ثم قال دون أن يلتفت إليه :

ـ إنهم يبذلون قصارى جهدهم .

سأله (نور) :

ـ وما الذى توصّلوا إليه حتى الآن ؟ !

ضاعف صمت (طارق) من عصبيته وتوتره ، قبل أن يقول هذا الأخير ، فى خفوت شديد :

ـ مازال هناك عامل مجهول !

هتف به (نور) :

ـ أى عامل هذا ؟!

لوَّح (طارق) بذراعيه ، قائلاً ، فى لهجة حملت بعض اليأس :

ـ عندما أعادكم شعب (جروندا) ، قبيل تركه كوكب الأرض ، كنت أنت تستعيد وعيك ، وكانوا هم على تلك الحالة ، التى تراهم عليهـا ، ولم يكن هناك كتيب تعليمات ، أو نظام معروف للإفاقة ، ولقد وقعنا كلنا فى خطأ كبير ، عندما تصوَّرنا أن استعادتك وعيك تعنى أنها مسألة وقت فحسب .

وزفر فى توتر ، مضيفًا :

ـ ولكنهم لم يستيقظوا .

أمسك (نور) كتفه فى قوة وانفعال ، وهو يقول :

ـ ولكن علماء (جروندا) لم يعيدوهم فقط ليبقوا مجرَّد لغز .. هناك حتمًا وسيلة ما لاستعادتهم .

ثم راح يهز (طارق) فى قوة ، مضيفًا ، وقد تضاعف انفعاله وتوتره :

ـ لا يمكن أن نتركهم على هذا الحال .. لا يمكننا هذا .. هل تفهم .. لا يمكننا هذا .

هتف به (طارق) ، وهو يحاول التملُّص منه :

ـ أفهمه بالطبع .

ثم تراجع بحركة حادة ، مضيفًا فى عصبية :

ـ وأنا أكثر من يهمه عودتهم إلى وعيهم ..

ولدهشة (نور) ، تألَّقت الدموع فى عينى (طارق) ، وهو يضيف :

ـ وجودى كله يعتمد على هذا .

انعقد حاجبا (نور) فى شدة ، وهـو يتطلَّـع إلـى ملامحـه مرة أخرى ..

وتوقَّف عند عينيه ..

عينيه بالتحديد ..

وفى خفوت ، غمغم :

ـ وجودك ؟!

نطقها بمنتهى الحذر والتفكير ، فأشاح (طارق) بوجهه ، وقال فى توتر واضح :

ـ ربما لم يحن وقت المصارحة بعـد ، ولكن ثق فى أننى أبذل قصارى جهدى لإنعاشهم .

راحت الأمور كلها تترتب فى ذهن (نور) ، والمعلومات تتراص على نحو مدهش ، حتى خُيِّل إليه أن ذهنه يصفو ..

ويصفو ..

ويصفو ..

وبحركة حادة ، أمسك كتفى (طارق) ، وأداره إليه على نحو مباغت ، جعل هذا الأخير يهتف منزعجًا :

ـ ماذا حدث ؟!

ودون أن يجيبه ، تطلَّع (نور) إلى عينيه ..

إلى عينيه مباشرة ..

وفى لحظة واحدة ، فهم كل شىء ..

فهم لماذا بدت ملامح (طارق) مألوفة ..

لماذا تبدو ابتسامته أشبه بابتسامة (نشوى) ..

ولماذا يمتلك جبهة (رمزى) ، وشعر (سلوى) ..

وعينيـه ..

نعم .. عينى (طارق) تذكراه بالعينين ، اللذين تطالعانه ، كلما نظر فى المرآة .. بعينيه هو ..

نفس الاتساع ، واللون ..

والبريق ..

ومع لمحة الفهم ، شعر (نور) بدوار عجيب يكتنف عقله ..

دوار كاد يفقده توازنه ، حتى إن (طارق) أسرع يمسك به ، وهو يهتف فى جزع :

ـ جدى .. ماذا أصابك ؟

أمسك (نور) معصمه فى قوة ، قائلاً فى انفعال :

ـ جدك ؟!

امتقع وجه (طارق) ، وارتبك بشدة ، وهو يغمغم :

ـ كنت أقصد أن ...

قاطعه (نور) فى حزم ، وهو يتماسك أمامه ، دون أن يفلت معصمه :

ـ كنت تنطق الحقيقة يا (طارق) .. الحقيقة التى ربما تذهل أى شخص يراقبنا ويتابعنا الآن .. حقيقة أننا نبدو متقاربى العمر ، ولكن الحقيقة أنك حفيدى ..

امتقع وجـه (طـارق) أكثر ، وحـاول أن يفلت معصمـه مـن قبضة (نور) ، وهو يهتف :

ـ أى قول هذا ؟!

أراد أن تخرج عبارته مستهجنة مستنكرة ، إلا أنها خرجت من بين شفتيه ، على الرغم منه ، متخاذلة مستسلمة ، أشبه بـاعتراف صريح بالحقيقة ..

الحقيقة التى تتعارض مع أبسط القواعد البيولوجيـة المعروفـة ، فى الكون كله ..

وبعينين متسعتين ، راح يحدّق فى (نور) .. بحـدة ..

فذلك التطورّ المدهش ، فى أسرة المقدّم (نور) ، كان تركيبـة بيولوجية عجيبة ..

عجيبة إلى حد أسطورى ..

فابنته (نشوى) نضجت قبل الأوان قديمًا ..

بقفزة واحدة ، تجاوزت طفولتها وصباها ، ووثبت إلى شبابها ، عبر ثقب فى سلم التطورّ الطبيعى ..

ويتطورّ غير مألوف ، صـارت قريبـة فى العمـر من والديهـا (نور) و(سلوى) ..

ثم ها هو ذا حفيد ، لم تنجبه بعد ، يساوى عمره عمر أمـه ، أو ربما يفوقها بعامين أو ثلاثة ..

وهو أقرب سنًا من جده ..

ويا لها من مفارقة ، لا يمكن أن تحدث ، إلا فى كتب وروايات الأساطير القديمة !!

أب ، وابنتـه ، وحفيده ، لا يتجاوز فـارق السن بين ثلاثتهـم أصابع اليد الواحدة !!

من يمكنه أن يصدّق هذا ؟!

بل من يمكن حتى أن يتخيله !

« ولكن كيف ؟! »

هتف (نور) بالسؤال ، فى دهشة عارمة ، وعلامـات التفكير العميق تعتصر ملامحه كلها بشدة ..

وقبل أن يسأله (طارق) عما يعنيه ، تابع :

ـ كيف يمكن أن تتواجد ، و(نشوى) لم تنجبك بعد ؟! أعنى فى زمننا ، الذى لم يعد باستطاعتنا العودة إليه ، كما تؤكدون .

هزَّ (طارق) رأسه نفيًا ، وقال :

ـ لا يمكننى فهم هذا ، حتى هذه اللحظة ، ولكننا كرَّرنا الفحوص الجينية مرتين ، بعد عودتكم إلينـا ، وفى كل مرة تكون النتيجـة واحدة .

وصمت لحظة ، ثم أضاف فى توتر :

ـ أمى هى (نشوى) ، وأبى هو (رمزى) .. وتاريخ مولـدى يعقب اختفـاءكم فـى عـالمكم ، وهـذا يتعـارض مـع كـل قوانيـن الطبيعة .

تساءل (نور) فى اهتمام :

ـ وما الذى يمكن أن يعنيه هذا ؟!

ازدرد (طارق) لعابه ، قبل أن يجيب بكل مرارة :

ـ إمـا أن أمـى وأبـى سـيعودان إلى عصـرهما بوسـيلة مـا ، أو ...

صمت لحظة ، ثم أضاف ، بمزيد من المرارة :

ـ أو أنه سيتم محوى تمامًا ، فى الساعات القادمة ، من سجل المخلوقات .

واتسعت عينا (نور) ..

فقد كان الاحتمال مخيفًا ..

مخيفًا للغاية .

★ ★ ★

3- غيبـوبة ..

راجع القائد الأعلى للمخابرات التكنورقمية ذلك التقرير ، الذى قدّمه له الدكتور (راشد) ، رئيس قسم الأبحاث العلمية الفائقة ، وراح يعيد قراءة بعض فقراتـه ، قبل أن يضعـه جانبًا ، ويسـأل الرجل فى قلق :

- أتعنى أن إفاقتهم لم تعد ممكنة ؟!

أشار الدكتور (راشد) بيده فى يأس ، قائلاً :

- لقـد استخدمنا كل الوسـائل ، واستعنا بخبراء فى الإفاقة ، وعلماء فى البيولوجيا والفيزياء ، والطبيعة النووية ، والحيوية ، وفحصناهم بالأشعة السينية ، والموجات فـوق الصوتية ، والرسام المقطعى ، وحتى بالأشـعة دون الحمـراء ، وفـوق البنفسـجية ، ولم نصل إلى نتيجة ..

وتنهَّد فى أسى ، مضيفًا :

- تكنولوجيا (جروندا) ما زالت غامضة بعض الشىء ، بالنسبة لعلمائنا ، ويبدو أنهم لم يتصوروا حيرتنا هذه ، أو أنهم أحسنوا الظـن بعلومنا ، فلم يمنحونا الكثير ، قبل أن يرحلوا .

غمغم القائد الأعلى :

- أو أنهم خشوا أن يمنحونا الكثير .

مطّ الدكتور (راشد) شفتيه ، وغمغم :

- بعد كل ما فعلناه ، لن يدهشنى أن يخفوا علومهم عنا .

زفر القائد الأعلى ، وكأنه يؤيد قوله ، ثم نهض من خلف مكتبه ، وهو يقول فى حزم :

- فلنعلن فشلنا فى إفاقتهم إذن .

تمتم الدكتور (راشد) :

- معذرة يا سيِّدى ، ولكننا لن نعلن شيئًا .

استدار إليه القائد الأعلى بحركة حادة ، فأضاف فى توتر :

- عودة فريق (نور) ما زالت سرًا عسكريًا ، لـم يعلـن بعد ؛ لما يمكن أن يسبِّبه من بلبلة واضطراب فى أذهان العامـة ؛ لـذا فما الذى يعنيه إعلان عجزنا عن إفاقة فريق ، تقول كـل الوثـائق الرسمية ، أنه مفقود منذ أكثر من ثلاثين عامًا .

عاد القائد الأعلى إلـى مكتبـه ، وراح يدير الأمر فـى رأسـه ، وهو يشبك أصابع كفيه أمامه ، قبل أن يلوِّح بيده ، قائلاً :

- وماذا عن (نور) نفسه ؟! كيف سنفسر له الأمر ؟

هزَّ الدكتور (راشد) كتفيه ، وقال :

ـ ما من شك فى أن الحقيقة ستصدم رغبتـه ، وتهدم آمالـه ، خاصة وأنه ، بالنسبة إليه ، لم يفقد فريقه إلا منذ يوم أو بعض يوم ، وربما تكون الصدمة قاسية أيضًا ، ولكنـه رجل مخـابرات علمية ، ومن المؤكد أن نفسيته قادرة على تقبُّل هذا .

وصمت لحظة ، ليكمل بعدها :

ـ ثم إن عجزنا عن إفاقتهم الآن ، لا يعنى عجزنا عن هذا إلى الأبد .

أطلق نظرة متسائلة ، من عينى القائد الأعلى ، فتابع الرجل :

ـ علماؤنا يواصلون دراساتهم لذلك المعدن الحيوى المتشكِّل ، الذى أطلقه عليه اسم (الزوريوم) ، وفى كل يوم يفاجئنا بسمة جديدة ، وربما .. أقول ربما نتوصَّل إلى سمة ما ، تساعدنا على فهم حالتهم .

مال القائد الأعلى إلى الأمام ، يسأله :

ـ وكم يمكن أن يستغرقه هذا ؟

مطَّ الرجل شفتيه ، وأجاب فى خفوت :

ـ من يدرى ؟!

ثم استدرك ، فى حماس مفتعل :

ـ ولكن المعارف تتطوَّر فى كل يوم .

غمغم القائد الأعلى :

ـ بل فى كل دقيقة .

ثم عاد يتراجع فى مقعده ، واستغرق فى التفكير بضع لحظات ، قبل أن يعتدل بحركة حادة ، قائلاً :

ـ أريد مقابلته .

كانت العبارة واضحة ، إلا أن الدكتور (راشد) غمغم :

ـ مقابلة من ؟!

أجابه القائد الأعلى فى حزم :

ـ (نور) .. المقدم (نور) .. إنه ما زال يحمل رتبـة هنـا .. أليس كذلك ؟!

غمغم الدكتور (راشد) فى حيرة :

ـ بلى .. ولكن ...

قاطعه القائد الأعلى ، فى حزم أكثر :

ـ أريد مقابلته .. فورًا .

وكان هذا أمرًا واجب التنفيذ ..

وفورًا ..

* * *

انبعث ضوء بنفسجى هادئ ، يغمر تلك البقعة الخاوية ، التى يقف فيها (نور) ، داخل مبنى المخابرات التكنورقمية ، وانساب صوت ناعم هادئ ، يقول :

ـ تحدَّث كى أتعرَّفك .

تنحنح (نور) ، وقال فى حزم :

ـ المقدم (نور الدين محمود) ..

ثم ابتسم فى عصبية ، مضيفًا :

ـ لو أننى لم أحصل على أيـة ترقيات ، خـلال اثنتين وثلاثين عامًا الماضية .

شعر بشىء دافئ يغمر جسده كله ، من قمة رأسه ، حتى أخمص قدميه ، قبل أن يسمع ذلك الصوت الناعم الهادئ يقول :

ـ تم تحديد الهوية .. مسموح بدخول العنصر المطلوب .

لم يرق له وصفه بالعنصر ، إلا أنه لم يعترض ، وظلّ واقفًا فى مكانه ، والأرضية كلها تنزلق به ، عبر ممر طويل ، انتهى بقاعة خالية أخرى ، ران عليها صمت تام ثقيل ..

وعلى الرغم من اعتياده مثل هذه الأمور ، شعر (نور) بتوتـر شديد ، يسرى فى كيانه كله ، وهو يقف وقفة عسكرية صارمة ، فى انتظار ما سيسفر عنه الموقف ..

ومن عدة ثقوب حوله ، سقطت خيوط من الأشعة الأرجوانية ، على كل ذرة فى جسده ..

وبحركة هادئة سريعة ، تحرَّكت تلك الخيوط ، وكأنها ترصد جسده كله ، قبل أن يسمع صوتا حازمًا يقول :

ـ سنوات طوال لم نلتق فيها أيها المقدم .

بدا الصـوت مألوفًا إلى حد ما ، مما دفـع (نور) إلى التلفُّت حوله ، وهو يقول فى توتر :

ـ المقدَّم (نور) فى خدمتك يا سيِّدى .

عاد ذلك الصوت ، يقول ، عبر جهاز ما :

ـ عندما التقينا آخر مرة ، كنت تفوقنى رتبة .

قال (نور) ، وقد توقَّف عن البحث عن مصدر الصوت :

ـ لو حصلت على ترقياتى المتأخرة ، لعاد الموقف كما كان .

العبارة كانت تقرِّب صاحب الصوت المألوف إلى ذهنه ، الذى راح يعتصره ، بحثًا عن جواب ..

ولكن الموقف لم يكن يحتاج إلى كل هذا الجهد ..

فما هى إلا ثانية ، وبدأت صورة تتكوَّن ، فى فراغ الحجرة .

صورة مألوفة تمامًا ..

صورة شاب ، يبتسم ، قائلاً :

ـ أتعشَّم أنك لم تنسنى .

هتف (نور) :

ـ الرائد (أيمن) ؟!

تبدَّلت صــورة الشــاب على الفــور ، وتحولّت إلى كهل وقــور له نفس الابتسامة والصوت ، يقول :

ـ لم أعد أحمل هذه الرتبة ، منذ ما يزيد عن الأعوام الثلاثين يا (نور) .. أنا الآن القائد الأعلى للمخابرات التكنورقمية .

حدَّق (نور) فى الصورة بدهشة ، قبل أن يستعيد رصانته ووقفتـه الثابتة ، وصوته الحازم :

ـ كل شىء يتطوّر .

ثم أضاف ، مع رنة دهشة :

ـ ولكننا كنا نتصوَّر أنك قد لقيت مصرعك فى الـ ...

قاطعه (أيمن) :

ـ لقد نجوت بأعجوبة .

ابتسم (نور) ، وقال :

ـ وأنت الآن قائدى الأعلى .

قال (أيمن) فى سرعة :

ـ لو أنك بقيت ، لما نالها سواك .

ثم استدرك فى حرج :

ـ أعنى لو لم يتم اعتبار فريقك مفقودًا .

هزَّ (نور) رأسه ، قائلاً :

ـ لست أظن هذا ؛ فطبيعتى تنفر من المراكز القيادية ، وتميل إلى العمل الميدانى .

ابتسم (أيمن) ، وأشار بيده ، قائلاً :

ـ السن لا يسمح لنا بالاستمرار فى العمل الميدانى طويلاً للأسف ، ولو أنك مررت بالتغيرات العمرية الطبيعية ، التى مررت بها أنا ، لقبلت المنصب دون مناقشة .

مطَّ (نور) شفتيه ، وهزَّ كتفيه ، قائلاً :

ـ ربمـا .

ثم عاد يبتسم ، مستطردًا :

ـ ولكن الواقع الآن أنك قائدى الأعلى .

صمت (أيمن) بضع لحظات ، وعقد كفيه خلف ظهره قبل أن يقول فى حزم واضح ، بدا معه مستحقًا لمنصبه :

ـ الواقع هو أننا إزاء موقـف غير طبيعى ، ومشكلة نعجز ، نحن أعلى جهة علمية فى البلاد ، عن مواجهتها .

شدّ (نور) قامته ، وهو يقول فى توتر :

ـ هل تشير إلى مشكلة عودتنا ، أم ...

قاطعه (أيمن) فى حزم :

ـ بل أتحدَّث عن مشكلة الباقين .

ثم بدا عصبيًا ، وهو يضيف :

ـ إننا نعجز ، بكل علومنا وإمكانياتنا ، عن إفاقتهم ، وإعادتهم إلى الحياة .. أو بمعنى أدق ، إلى الوعى .. العلماء أيقنوا من أن أجهزتهم كلها تعمل بكفاءة ، داخل تلك المادة الحيوية ، إلا أنها تعمـل كلهـا بمعدلات أبطأ حتى من كل مـا يمكن أن يصـل إليه لاعبو (اليوجا) .. وتلك المادة الحيويـة لا تحيط بهم فحسب ، ولكنها تملأ كل شىء فيهم أيضًا .. المعدة .. الرئة .. تجويف البطن .. إنها منتشرة فى كل جزء منهم ، والعلماء يرون أن سحبها ، بأية وسيلة معروفـة ، قد يؤدى إلـى انهيـار مفـاجئ فـى معدلاتهـم الحيوية ، و ....

صمت لحظة ، قبل أن يضيف فى توتر :

ـ وموتهم .

شعر (نور) برجفة تسرى فى أوصاله مع الكلمة ، وبدا لـه أن هواء الحجرة يقلّ على نحو ملحوظ ، فتسارعت أنفاسه ، وهو يقول :

ـ يمكننا أن نبقى عليهم ، فى حالتهم هذه ، حتى نجد وسيلة ما .

لاحظ تردُّد (أيمن) ، قبل أن يقول :

ـ الواقع أنه هنا تكمن المشكلة .

اضطربت أعصابه بشدة ، وهو يسأل :

ـ أية مشكلة ؟!

لوَّح (أيمن) بذراعيه ، وهو يجيب :

ـ (الزوريوم) المحيط بهم ، يمنع وصول الطعام والغذاء لهم ، ولكن علماءنا كشفوا أنه ، بوسيلة ما ، تم تزويده بغذاء مـن الطاقة الصافية ، يمـد أجسادهم بكل ما تحتـاج إليـه ، فى فترة التجمُّـد أو الغيبوبة .

غمغم (نور) ، فى حذر عصبى :

ـ ماذا إذن ؟!

أجابه (أيمن) ، فى توتر شديد :

ـ تلك الطاقة تنضب تدريجيًّا .. ربمـا لأن أجسـادهم تستهلكها طوال الوقت ، لتبقى الخلايا حية ، ولاتوجد أية وسيلة معروفة ، لدفع

مزيد من الطاقة فى (الزوريوم) ، وشعب (جروندا) لم يخبرنا كيف نفعل هذا ، و ...

قاطعه (نور) فى عصبية :

ـ ومـاذا ؟!

صمت (أيمن) لحظة ، وكأنما لم ترق له مقاطعة (نور) ، ثم أجاب ، بكل الحزم والصرامة :

ـ الغذاء على وشك النضوب ، وهـذا يعنى أننا ، لو لم ننجـح فى إفاقتهم فى الوقت المناسب ، فسنكتفى بمراقبتهم وهم يموتـون ... جوعًا .

واتسعت عينا (نور) عن آخرهما فى هلع ..

مستحيل !

لا يمكن أن تكون هذه هى النهاية !

مستحيل !

مستحيل !

هل بقى رفاقه مجمدين ، طوال أكثر مـن ثلاثـة عقود كاملـة ، حتى يلقوا مصرعهم على هذا النحو ؟!

لا يمكن أن يحدث هذا !!

لا يمكن أن يسمح بحدوثه !!

هناك حتمًا وسيلة ما لإنقاذهم ..

أية وسيلة ..

توتَّرت كل ذرة من كيانه ، والتهبت كل خلية فى عقله ، وهو يفكر ..

ويفكِّر ..

ويفكِّر ..

و ...

« ربما كان من الأفضل أن نتركهم يرحلون فى سلام .. »

نطقها (أيمن) فى توتر ، فهتف (نور) فى حدة :

ـ كلاَّ .. مستحيل !

استعاد (أيمن) طبيعة القائد الأعلى ، وهو يقول فى حزم :

ـ يؤسفنى أنه ليس قرارك الآن يا (نور) ؛ فالموقف كلـه أصبح يخص إدارة المخـابرات التكنورقمية ، ومن واجبى ألا أترك الأمـور تسبح فى فراغ أبدى ..لا بد من اتخاذ قرارات ، قد لا ترضى الجميع ، ولكن ..

ولم يسمع (نور) باقى العبارة ..

لقد توقَّف ذهنه كله عند نقطة واحدة ..

الفراغ ..

هناك يكمن الحل ..

كيف لم ينتبه إلى هذا منذ البداية ؟!

كيف ؟!

كان (أيمن) يكمل عبارته ، عندما قاطعه مرة أخرى ، هاتفًا ، دون أن ينتبه إلى ما فى هذا من تجاوز :

ـ ربما كانت هناك وسيلة ما .

صمت (أيمن) فى غضب حقيقى هذه المرة ، أسفر عن نفسه فى نبرات صوته ، وهو يقول فى حدة :

ـ علماؤنا درسوا كل الوسائل .

قال (نور) فى حزم عنيد :

ـ إنها وسيلة لا يمكن أن يتوصَّل إليها علماؤكم .

انعقد حاجبا (أيمن) فى توتر ، وهو يسأله بمنتهى الحذر :

ـ أية وسيلة ؟!

شدَّ (نور) قامته ، وهو يجيب بمنتهى الحزم :

ـ الغيبوبة .

وكان الجواب مفاجئًا ..

بكل المقاييس ..

★ ★ ★

لم يستطع (طارق) إخفاء دهشته ، وهو يواجه (نور) ، فى حجرة الحالات الطارئة فى المستشفى ، ولقد أدار عينيه فى كل الأجهزة المحيطة به ، قبل أن يغمغم :

ـ إذن ، فأنت جاد فى هذا .

أجابه (نور) فى حزم :

ـ لست أظن الموقف يحتمل هزلاً .

هزَّ (طارق) رأسه ، وقال :

ـ أمر عجيب !! هل تعلم أنه لا أحد يوافقك على ما تسعى إليه ؟

أجابه (نور) :

ـ لأنهم لا يفهمونه .

هزَّ كتفيه هذه المرة ، قائلاً :

ـ أمر طبيعى .. الناس دومًا أعداء ما يجهلون .

قال (نور) حازمًا :

ـ لا ينبغى أن ينطبق هذا على العلماء .

ابتسم (طارق) ، قائلاً :

ـ فى هذه الحالة ، ينطبق أكثر ما ينطبق على العلمـاء ؛ فأنتَ تحدّثهم عن أمر يتنافى مع كل ما درسوه فى حياتهم .. بل وحتى مع قوانين الطبيعة نفسها ، فكيف تطلب منهم تقبُل الأمر ؟

قال (نور) :

ـ يمكنهم اعتباره تجربة جديدة .

أجاب (طارق) فى سرعة :

ـ بغير أسس علمية ثابتة .

وتنهّد فى قوة ، مضيفًا :

ـ إنك تحدثهم عن عضو آخر من الفريق ، يفترض أنه قد لقى مصرعه منذ زمن طويل ، وضاع جسده فى نهر الزمن ذات يوم(*) ، وتحاول إقناعهم بأنه مازال على قيد الحياة ، بوسيلة لايمكن فهمها ، ولكن جسده تحوّل من مادة إلى طاقة ، ويحيا فى فراغ زمن لانهائى ، بل والأدهى أن علومه تفوق علومهم جميعًا .. هل تدرك كم قانونًا طبيعيًا تخرق ، بروايتك هذه ؟

أجابه (نور) فى هدوء :

ـ ولا قانونًا واحدًا .

التفت إليه فى دهشة ، فتابع فى حزم :

(★) راجع قصة (الزمن = صفر) ... المغامرة رقم (100) .

ـ ما دام هذا يحدث ، فهو ليس منافيًا لقوانين الطبيعة ، بأى حال من الأحوال .. إنه فقط يخضع لقوانين أخرى ، لم تكشف بعد .. قوانين تحتاج إلى طاقم علماء متفتح لدراستها ، وفهمها ، ووضع كل ما يناسبها .

أشار (طارق) بسبّابته ، قائلاً :

ـ هذا يستدعى رصدها أولاً ، وهو ما لم يفعله .

أجابه (نور) فى سرعة :

ـ ولكننى فعلته .

قال (طارق) فى إصرار :

ـ هم لم يفعلوه .

مطّ (نور) شفتيه ، وقال :

ـ ليس من الضرورى أن يخوض العالم التجربة بنفسه ، ليقوم برصدها ودراستها .. يكفى أن يستمع إلى كل من خاضها .

قال (طارق) فى حذر :

- وماذا لو أنهم يعتبرونـها مجرد هلوسة .

استدار إليه (نور) فى غضب ، فتابع متراجعًا :

- أو هذيان غيبوبة .

زفر (نور) فى توتر ، وهزّ رأسه ، قائلاً :

- ربما يدركون ، بعد فوات الأوان .

ثم اعتدل ، مضيفًا :

- والآن ، دعنا لا نضيع الوقت فى مناقشة هذا ، ولنبدأ العمـل فورًا .

أشار (طارق) إلى طاقم العلمـاء المحيط بالمكان ، فبدءوا عملهم على الأجهزة على الفور ، ورقد (نور) فوق ذلك الفراش الهوائـى ، و(طارق) يسأله فى قلق أخير :

- هل تعتقد أنك ستلتقى بـ (محمود) هذا ، فى حالـة الغيبوبـة الصناعية ؟!

أسبل (نور) جفنيه ، وهو يقول :

- لست واثقًا من هذا .

وصمت لحظة ، ثم أضاف فى حزم :

- ولكنها الوسيلة الوحيدة المتبقية .

تنهَّد (طارق) ، وهزَّ رأسه ، وهو يبتعد فى بطء ، فى حين بدأت الأجهزة المحيطة بـ (نور) عملها ..

فى البداية ، راحت ترسل موجات ذات صوت مرتفع ..

ثم راح ذلك الصوت يخفت ..

ويخفت ..

ويخفت ..

ثم اختفى تمامًا ..

ولكن الموجات بقيت ..

وشعر (نور) بتثاقل فى جفنيه ، وبعقله يذوب ..

ويذوب ..

ويذوب ..

ثم اختفى كل شىء من حوله ..

لقد غاص فى تلك الغيبوبة الصناعية ..

ولا أحد يدرى ما الذى يمكن أن يقود إليه هذا ..

لا أحد على الإطلاق ..

★ ★ ★

4- لقـــاء ..

فراغ رهيب يحيط بكل شىء ..

فراغ بلا حدود ..

وبلا نهاية ..

وعلى الرغم من أنها ليست أوّل مرة يجـد فيهـا نفسـه هنـاك ، شعر (نور) بالتوتر ..

وفى عصبيته ، راح يتلفَّت حوله ..

أين (محمود) ؟!

أين ذهبت هذه المرة ؟!

أين ؟!

أين ؟!

كان يرغب فى الهتاف باسمه ، عسى أن يعثر عليه ، وسط ذلـك الفراغ الرهيب ، الذى بدا أشبه بضباب ممتد ، حتى امتداد البصر ، إلا أن صوتًا لم يخرج من حلقه ..

إنه فراغ ..

والصوت لا ينتقل عبر الفراغ !

كيف يمكن أن يجده إذن ؟!

كيف ؟!

ليست هناك وسيلة سوى العقل ..

التخاطب من عقل إلى عقل ..

وبكل إرادته ، اعتصر (نور) ذهنه وعقله ، ليهتف من أعمق أعماقه ، دون صوت :

ـ أين أنت يا (محمود) ؟! إننى أحتاج إليك .. كلنا نحتاج إليك .

كرَّرها مرة ..

وثانية ..

وثالثة ..

ورابعة ..

ولكن الفراغ بقى كما هو ..

أبديًّا ..

سرمديًّا ..

خاويًا ..

وهنا ، بدأ اليأس يتسلَّل إلى نفسه ..

لقد خسر وسيلة إنقاذ رفاقه ..

وسيلتهم الوحيدة ..

« أنا هنا يا (نور) .. »

انتفض جسده كله ، عندما استقبل عقلـه رسالة (محمود) ، وهتف فى لهفة :

ـ أين أنت يا صديقى ؟!

بدا له جزء من الضباب يتكثَّف ، ويتماسك ، ويقترب منـه فـى بطء ، وملامحه تتضح رويدًا رويدًا ..

نعم .. إنه (محمود) ..

« أين كنت ؟! »

لم يدر أهتـف بالكلمة عبر حلقـه ، أم عبر عقله ؟! إلا أن هذا لا يهم ما دام (محمود) قد سمعها ، وأجاب فى هدوء :

ـ لا يمكنك أن تتصوَّر كم بذلت من جهد ؛ حتى يتم هذا اللقاء يا صديقى ؛ فالعقل فى غيبوبته الصناعية ، يختلـف عنـه ، عندما تحكمه الطبيعة .

قال (نور) فى ارتياح :

ـ المهم أنك هنا .

تنهَّد (محمود) ، قائلاً :

- لن يمكننى البقاء طويلاً للأسف .

لم يكن هناك مجال لإضاعة لحظة واحدة إذن ؛ لذا فقد سأله (نور) فى سرعة :

- هل أدركت ما أصاب الرفاق ؟!

أومأ (محمود) برأسه إيجابًا ، وقال :

- لقد درست الموقف كله .

وبمنتهى اللهفة ، سأله (نور) :

- كيف يتجاوزون هذا يا صديقى ؟! كيف ؟!

هزّ (محمود) رأسه ، وأجاب فى هدوء :

- العلماء الذين درسوا (الزوريوم) ، تعاملوا معه باعتباره معدنًا حيويًا يا صديقى ، وهنا يكمن الخطأ فى الحسابات كلها .

سأله (نور) فى دهشة :

- أو ليس كذلك ؟!

هزّ (محمود) رأسه ، قائلاً :

- (الزوريوم) شىء سيعجز علماء هذا الزمن عن فهمه .. إنه ليس أحد العناصر المعروفة ، وليس معدنًا ، بأى حال من الأحوال ، والتكنولوجيا المستخدمة فى صنعه ، تفوق ما يمكنهم التوصّل إليه ، بعد قرن من الآن ، وهو فى طبيعته مادة حيوية ، ذات لمحة معدنية .

قال (نور) فى دهشة :

- ولكنه يتشكّل فى أية هيئة يشاء .

أجابه (محمود) :

- إنها سمة إضافية ، ولكن سمته الأساسية هى أنه مصدر حيوى للطاقة وتبادل الغذاء .. مصدر شكّلت الطبيعة جزءًا منه ، وأضاف شعب (جروندا) الجزء الآخر .

سأله (نور) فى اهتمام :

- أتعنى أنهم هنا يتعاملون معه بأسلوب خاطئ .

أجابه (محمود) فى سرعة :

- بل من منظور خاطئ ، وهذا أكثر إفسادًا للأمر ، فالمفترض أن يستعينوا ، ليس بعلماء فى الفيزياء ، وإنما بعلماء فى البيولوجيا الحيوية .

غمغم (نور) ، وقد تضاعفت دهشته :

- بيولوجيا حيوية ؟!

بدأت هيئة (محمود) تستعيد تلك الصورة الضبابية ، وصوته يخفت تدريجيًا ، وكأنما لم يعد قادرًا على مواصلة الاتصال ، وهو يجيب :

- نعم يا (نور) .. دعهم يتعاملوا معه ، وكأنهم يتعاملون مع السائل الـ ...

تلاشى الصوت أو كاد ، قبل أن يتم عبارته ، فهتف (نور) فى توتر بالغ :

ـ أى سائل يا (محمود) .. أى سائل ؟!

ولكن صورة (محمود) تلاشت تمامـا ، وسط ضباب كثيف ، غمر الفراغ كله ، فصرخ (نور) مكررًا :

ـ أى سائل ؟

وهنا ، سمع عدة أصوات متداخلة ممتزجة ، أرهف سمعه وسطها جيدًا ، فالتقط هتافًا واحدًا ..

« جدى .. هل استيقظت ؟!.. »

فتح عينيه دفعة واحدة ، وحدّق فى وجـه (طـارق) ، الـذى ينحنى نحوه ، قائلاً فى قلق :

ـ رباه ! لقد تصورت لحظة أن ...

قاطعه (نور) فى حدة :

ـ لماذا أيقظتنى ؟!

أجابه (طارق) فى اضطراب :

ـ كان هذا حتميًا .. لقد تصاعدت نبضـات قلبك ، فى الدقيقـة الأخيرة ، حتى تجاوزت مائتى الدقة فى الدقيقـة الواحـدة .. كان لابد من إيقاظك ، قبل أن يقتلك الانفعال ، فى كابوس ما[*] ..

هتف (نور) :

ـ ولكننى كنت على وشك معرفة الحل .

ثم أمسك سترة (طارق) ، مستطردًا فى انفعال :

ـ أريد العودة إلى تلك الغيبوبة .. فورًا .

هتف (طارق) ، وهو يخلّص نفسه منه :

ـ مستحيل !

صاح به (نور) غاضبًا :

ـ ولماذا مستحيل ؟

أجابه (طارق) فى توتر :

ـ التصريح الذى لدينا بإجراء التجربة مرة واحدة فقط .

(★) حقيقة علمية : يؤكد العلماء أن الأجساد البشرية تستجيب للانفعالات فى الأحلام ، على النحو نفسه ، الذى تستجيب به فى عالم الواقع ، بمعنى أنه لو حلم شخص ما ، أنه يسقط من ارتفاع كبير ، فهو يستيقظ حتمًا ، قبل أن يرتطم بالأرض فى الحلم ، فلو لم يفعل ، سيحيا جسده النائم نفس مشاعر الارتطام بالأرض ، ويلقى مصرعه نائمًا .

صاح (نور) فى حدة :

ـ لابد من مرة ثانية يا (طارق) .. لابد .

ابتعد (طارق) عن أصابعه ، وهو يقول فى توتر شديد :

ـ هناك ما ينبغى أن تعرفه أوّلاً .

خفق قلب (نور) فى عنف ، وهو يسأله :

ـ وما هو ؟!

أجابه فى عصبية :

ـ لقد نفد الغذاء منهم .

واتسعت عينا (نور) عن آخرهما ..

فقد كان هذا القول يعنى مصرع رفاقه ..

مصرعهم جميعًا ..

وأمام عينيه ..

★ ★ ★

« المعدّلات الحيوية كلها تنهار .. »

نطق كبير العلماء العبارة ، فى توتر بـالغ ، وهو يتـابع النتـائج ، على شاشات الرصد المختلفة ، قبل أن يضيف :

ـ الجهاز التنفسى انهار فعليًا ، والرئة الصناعية تعمل بكل طاقتها ، والدورة الدموية فى انهيار مستمر ، وخلايا المخ تعانى من قصور مخيف فى الأكسجين .

سأله القائد الأعلى ، فى قلق بالغ :

ـ ألا يمكن حتى العمل على إبطاء التدهور ؟!

هزَّ الرجل رأسه نفيًا ، وهو يجيب فى أسى وأسف :

ـ هذا مستحيل للأسف ؛ فالجسد البشرى قوى للغاية ، يمكنه أن يقاوم لفترات طويلة ، ولكن ما أن تبدأ مقاومته فى الانهيار ، حتـى يصبح من المستحيل إيقاف التدهور ، مهما بذلنا من جهد(*) ..

سأله القائد الأعلى ، وتوتره يتضاعف :

ـ وماذا لو قمنا بتجميدهم الآن ؟!

زفر كبير العلماء ، مجيبًا :

ـ لقد حاولنا .

وصمت لحظة ، ثم أضاف فى مرارة :

ـ وفشلنا .

حدَّق القائد الأعلى فيه مستنكرًا ، فتابع مفسرًا :

(★) حقيقة طبية .

ـ تلك الفقاعة من (الزوريوم) ، المحيطة بهم ، تقاوم التجمُّد المفاجئ ، الذى لابد منه ، لوضع أجسادهم فى الحالة المطلوبة ، ولا يمكننا استخدام التجميد التدريجى ، وإلا تخثر الدم فى العروق ، فمشكلة البشر ، أنهم من ذوى الدم الحار ، وليسوا من ذوات الدم البارد ، مثل الزواحف(*) ..

حمل صوت القائد الأعلى كل ألمه ، وهو يقول :

ـ أيعنى هذا أنه لا فائدة ؟!

زفر كبير العلماء مرة أخرى ، وهو يجيب :

ـ للأسف !

لم تكد الكلمة تتجاوز شفتيه ، حتى اندفع (نور) داخل قاعة الفحص ، وهو يهتف فى انفعال :

ـ كيف هم ؟!

استقبله القائد الأعلى ، محاولاً تهدئته ، وهو يقول :

(★) ذوى الدم الحار : مصطلح يطلق على الكائنات ، التى تحافظ دماؤها على درجة حرارة ثابتة ، بغض النظر عن درجات الحرارة أو البرودة ، فى المناخ الخارجى ، وهى ثابتة عند البشر ، فى درجة (37.2°م) ، أما ذوات الدم البارد ، فهى الكائنات التى تتغيَّر درجة حرارة دمائها ، مع تغيُّر درجة حرارة أجسادها الخارجية ، وفى تلك الكائنات ، يمكن تجميد الدم ، وإعادة تسييله ، دون أن يفقد خواصه أو وظيفته

ـ موقفهم كله مازال مجهولاً يا (نور) ، باستثناء الدكتور (أنور) ، الذى يلفظ أنفاسه الأخيرة بالفعل ، ونحن عاجزون عن إنقاذه .

مع آخر حروف كلماته ، ارتفع أزيز متصل ، من أحد الأجهزة ، وانبعث ذلك الصوت الناعم الهادئ الآلى ، يقول :

ـ الدورة الدموية انهارت تمامًا ، وكذلك الجهاز التنفسى ، وخلايا المخ تنهار بسرعة مليون خلية فى الثانية الواحدة .

اتسعت عينا (نور) فى ارتياع ، وراح قلبه يخفق بسرعة مخيفة ، وهو يردِّد :

ـ رباه ! رباه !

ربَّت (أيمن) على كتفه ، هامسًا فى مرارة :

ـ إنها معدَّلات الدكتور (أنور) وحده ، أما الباقون ، فمازالوا ..

قاطعه (نور) فى عصبية :

ـ سيلحقون به .. لو لم نتوصَّل إلى حل ، سيلحقون به حتمًا .

تبادل القائد الأعلى نظرة متوتِّرة مع الدكتور (راشد) ، الذى أشاح بوجهه ؛ ليخفى انفعالاته ، فى حين تابع (نور) فى توتر بالغ :

ـ (محمود) حاول أن يخبرنى ، ولكن الاتصال لم يكتمل .. لو فهمت ما أشار إليه فى حديثنا ، فربما ..

قاطعه الدكتور (راشد) فى عصبية :

ـ قصة زميلكم الراحل هذه ، لا يمكن أن تكون مقياسًا لتحركاتنا أيها المقدَّم .. لا يمكننا أن نبنى علومنا على هذيان ، صنعته غيبوبةٌ ما ..

تجاهل (نور) هذه المقاطعة تمامًا ، وقال وكأنه يحدِّث نفسه :

ـ لقد أخبرنى أن (الزوريوم) ليس معدنًا ، وأن ما نحتاج إليه عالم فى البيولوجيا الحيوية ، وليس عالمًا فيزيائيًّا .. وقال : إنه يشبه سائلًا ما ...

هتف الدكتور (راشد) فى غضب :

ـ مهما قلت أو فعلت ، مهما بلغت شهرتك ، فعالم الأرواح الذى تتحدث عنه هذا ، أمر غير معترف به ، فى أى مضمار علمى ، ولن تجد عالمًا واحدًا ، يمكن حتى أن يستمع إليك بشأنه .

لم يبد حتى أن (نور) قد سمعه ..

لقد انفصل تمامًا عن كل ما حوله ، وهو يعتصر عقله بكل قوته ، محاولًا استرجاع كل حرف نطق به (محمود) ..

وفهم كل جملة ...

لو أن (الزوريوم) سائل حيوى ، وليس معدنًا حيويًّا ، فأى سائل يمكن أن يكون ؟!

أى سائل هذا ، الذى يحمل الطاقة والغذاء ، ويمكن أن يحيط بالأجساد ، ويغمر الأعضاء ، ولكنها تواصل عملها ، وتحصل على طاقتها ، دون الحاجة حتى للأكسجين ؟!

أى سائل هذا ؟!

أى سائل ؟!

لابد وأن يتوصَّل إلى الحل ، قبل أن تنهار المعدَّلات الحيوية لرفاقه كلهم ..

لا بد ..

لا بد ..

« المعدَّلات الحيوية انهارت كلها تمامًا .. »

ارتفع ذلك الصوت الآلى الناعم الهادئ بالعبارة ، وأضاف فى نمط يخلو من أى انفعال :

ـ يمكن اعتبار العينة رقم خمسة متوفاة رسميًّا .

هوى قلب (نور) بين قدميه مع العبارة ، وحدَّق فى الشاشة الكبيرة ، التى تحمل صور رفاقه ، ورأى صورة الدكتور (أنور) تختفى من بينهم ، فصرخ فى أعمق أعماقه :

ـ أى سائل هذا ؟!.. أى سائل ؟!

تمنى لحظتها لو أنه لم يولد قط ، حتى لا يشهد ذلك اليوم الرهيب ، أو أن ...

ولكن مهلاً ..

تمنى لو لم يولد ..

الميلاد ..

وفترة الحمل التى تسبقه ..

والجنين يسبح فى سائل ، يمنحه كل ما يحتاج إليه ، من غذاء وأكسجين وطاقة ..

بالضبط كما يفعل (الزوريوم) برفاقه الآن ..

وهذا يعنى أنه ..

« السائل الأمنيوسى .. »

صرخ (نور) بالكلمة ، بكل انفعال الدنيا ، فحدَّق الجميع فيه بذهول ، وغمغم القائد الأعلى :

ـ سائل مـاذا ؟!

هتف (نور) :

ـ هذا ما ينبغى أن نتعامل معـه بـالضبط .. السـائل الجنينـى .. ذلك السائل الذى يملأ رحم الأم ، فى أشهر الحمـل ، ويسبح فيـه الجنين طوال الوقت .. السائل الذى يغمـر كل أجهزتـه ، ويمنحـه

الطاقة والأكسجين حتى يولـد .. هكـذا ينبغـى أن نتعـامل مـع (الزوريوم) .. كسائل حيوى .. كسائل الرحم .

كان أمرًا مذهلاً ، جعل العلماء يحدّقون فى بعضهم البعض ، قبل أن يغمغم الدكتور (راشد) مضطربًا :

ـ أتعنى أن ذلك (الزوريوم) ..

قاطعه (نور) فى انفعال :

ـ ليس معدنًا سائلاً .. إنه سائل حيوى .. إننا نحتاج إلى خبير فى البيولوجيا الحيوية ، وليس فى الفيزياء .. أسرعوا بالله عليكم .. أسرعوا .

حدَّق الكل فيه ذاهلين ، وعلى رأسهم الدكتور (راشد) ، فصاح فيهم القائد الأعلى فى عصبية :

ـ ماذا تنتظرون بالله عليكم ؟!

وهنا ، تحوَّل مركز الأبحاث كله إلى شعلة من النشاط ..

شعلة بدأت تتعامل مع الموقف كله ، من منظور جديد ..

منظور وضعه عضو فريق ..

راحل ..

* * *

موجة هائلة من الذهول ، عمَّت مركز الأبحاث كله ..

موجة لم يشهدها ذلك العصر المستقبلى قط ..

موجة ترتبط دومًا بمولد قانون جديد ..

أو علم جديد ..

فعلى الرغم من معارضتهم جميعًا ، حطَّم (نور) كل القواعد ، وهزم كل العلوم التى درسوها وحفظوها ، فى عمرهم كله ..

أو إنه أتى بجديد ..

جديد مذهل ..

حتى بالنسبة للعلماء ..

وبكل ذهوله ، هتف الدكتور (راشد) ، مواجهًا (نـور) ، فى حجرة القائد الأعلى شخصيًا :

ـ مدهش أيها المقدَّم .. بل مذهل .. ما قلته كان صحيحًا بنسبة مائة فى المائة .. لقد تغيَّر كل شىء تمامًا ، عندما بدأنا نتعامل مع (الزوريوم) باعتباره سائلاً حيويًا .. كل المعطيات اتخذت مسارًا جديدًا ، وكل النتائج والأبحاث اختلفت تمامًا .. حتى سحب السائل من رفاقك ، بات أكثر يسرًا وسهولة .. بل وأكثر أمانًا أيضًا .

سأله القائد الأعلى فى لهفة :

ـ وهل قمتم بسحبه بالفعل ؟!

أشار الدكتور (راشد) بسبَّابته ، مجيبًا فى حماس :

ـ على الفور .

وهزَّ رأسه فى قوة ، قبل أن يتابع :

ـ ومعرفتنا أننا نتعامل مع سائل حيوى ، شبيه بالسائل الجنينى ، ساعدتنا كثيرًا على حسم الأمر ، والتعامل معه بجرأة أكبر ، فكما قدَّر علماؤنا عندئذ ، سحب السائل لن يؤدى إلى كارثة ، بل سيدفع الجسد إلى بدء التعامل مع الجو الخارجى ، تمامًا مثلما يحدث للجنين ، بعد خروجه من الرحم ، عندما نفرغ صدره من السائل ، فيبدأ فى التنفس ، ويطلق صرخته الأولى ، التى تعبِّر عن انتقاله من عالم الرحم ، حيث يسبح فى السائل ، إلى الهواء الطلق .

سأله القائد الأعلى :

ـ أهذا ما حدث بالفعل ؟!

أجابه (نور) هذه المرة :

ـ أجسادهم قاومت الموقف لحظات قصار ، ثم استعادت بسرعة قدرتها على العيش فى الهواء العادى .. لقد عادوا إلى آدميتهم .. حمدًا لله .

أضاف الدكتور (راشد) فى سرعة :

ـ ولكنهم لم يعودوا إلى وعيهم بعد .

تمتم (نور) فى ارتياح شديد :

ـ إنها مسألة وقت .

أجابه الدكتور (راشد) :

ـ صدقت .

ثم أضاف ، مستعيدًا حماسه :

ـ ولكننا الآن نمدهم بالغذاء والطاقة ، عبر وسائلنا المعروفة ، ونعمل على إفاقتهم تدريجيًا ، وأظننا سنحقق هذا خلال يومين على الأكثر .

تراجع القائد الأعلى فى مقعده متمتمًا :

ـ عظيم .. عظيم .

أكمل الدكتور (راشد) :

ـ الأهم أننا أخيرًا وضعنا أيدينا ، على أول طريق فهم (الزوريوم) ، ولن يمضى عام واحد ، حتى نكون ، بوساطته ، قد قفزنا قرنًا كاملاً ، فى سلم التطوّر أو لن تبلغنا أية أمة أخرى ... سيمكننا أن نسيطر على كل الدول .. بل على العالم كله .

مطّ (نور) شفتيه فى امتعاض ، وأشاح بوجهه فى شىء من العصبية لاحظها القائد الأعلى ، فقال فى حزم :

ـ دعنا لا نتعجل الأمور يا رجل .

هتف الدكتور (راشد) :

ـ صدقت يا سيِّدى ، فلنترك التطوّر لزمنه .

ثم التقط نفسًا عميقًا ، وتألّقت عيناه على نحو عجيب ، وهو يضيف فى لهفة :

ـ ولكن لدينا فرصة لتحقيق نصر علمى آخر .

تمتم (نور) :

ـ وأيضًا للسيطرة على العالم ؟!

لم ينتبه إلى ما فى هذا من سخرية مريرة ، فأجاب فى حزم :

ـ من يدرى ، ربما يمنحنا قوة أكبر .

سأله القائد الأعلى فى حزم :

ـ ما الذى ترغب فى تحقيقه بالضبط ؟!

أجاب فى لهفة :

ـ القانون الجديد .

تطلَّع إليه (نور) و(أيمن) فى تساؤل ، فأضاف بشهوة عجيبة :

ـ سنعيد زميلهم القديم ، إلى عالمنا المادى .

ووثب قلب (نور) بين ضلوعه ، من فرط المفاجأة ..

وثب فى عنف .

★ ★ ★

5ـ فــراغ ..

مرة أخرى ، امتدّ ذلك الفراغ إلى ما لا نهاية ..

ومرة أخرى ، سبح فيه (نور) ..

وكما حدث فى المرة السابقة ، كان وحيدًا .. تائهًا .. ضائعًا ..

وفى هذه المرة أيضًا صرخ :

ـ (محمود) .. أحتاج إلى مقابلتك .

وصمت لحظة ثم أضاف :

ـ الأمر يخصك هذه المرة .

أتاه الجواب باهتًا بعيدًا :

ـ أعلم هذا يا (نور) .

اقترن الصوت بذلك التكوين الضبابى ، الذى راح يتشكَّل فى بطء شديد ، مجسمًا هيئة شبه بشرية ، فقال (نور) فى حماس :

ـ أنت تدرك مدى أهمية الأمر إذن .

بدأت ملامح ذلك الشكل الضبابى تتضح رويدًا رويدًا ، وصوته يتميَّز فى تدرُّج واضح ، وهو يقول :

ـ بل أدرك مدى عبثيّته .

صدم الجواب (نور) ، الذى غمغم :

ـ وما العبث فى هذا يا صديقى ؟! لقد حققنا إنجازًا مدهشًا ، على أى مقياس ، فكل علماء مركز الأبحاث يدركون الآن ، أن الاتصال بك ممكن عمليًا ، وهم يعدون أحدث تقنياتهم ، ليس لإحداثه فحسب ، ولكن للعمل على استعادتك أيضًا .

قال (محمود) ، وصوته يزداد وضوحًا مع صورته :

ـ يستعيدوننى على أية هيئة ؟!

أجابه (نور) فى حيرة :

ـ هيئتك هذه بالطبع .

بدا صوته حزينًا بائسًا ، وهو يقول :

ـ الهيئة التى ترانى عليها ، هى تلك التى تعيها ذاكرتك يا (نور) ، وليست الهيئة التى أنا عليها بالفعل .

سأله (نور) ، فى حذر قلق :

ـ وما هيئتك الآن ؟!

أجابه بمنتهى المرارة :

ـ لن يروق لك هذا يا صديقى .. لن يروق لك أبدًا .

لم يفهم (نور) ما الذى يمكن أن يعنيه هذا ، إلا أنه شعر بقلق شديد ، بشأن زميله ومصيره ، فقال :

ـ ولكن ما الذى سنخسره من المحاولة ؟!

أجابه (محمود) فى حدة :

ـ ربما لن تخسروا شيئًا .

وصمت لحظة ، قبل أن يضيف فى مرارة :

ـ ولكننى سأخسر الكثير .

هتف به (نور) :

ـ ما الذى ستخسره ؟!

بدا له (محمود) ، لأول مرة ، حذرًا متوترًا ، عصبيًا ، وهو يجيب :

ـ حاول أن تفهم موقفى يا (نور) .. عندما تهاوى جسدى المادى فى نهر الزمن ، لم يحتمل الصمود طويلًا ، وراح ينهار بسرعة ، ويتحوَّل من مادة إلى طاقة .. والآن ، لم يعد لجسدى وجود .. كل مادته تحوَّلت إلى طاقة صافية .. طاقة ذات قدرات هائلة لا محدودة .. طاقة تتجاوز حدود الزمن والمكان ، وتسبح فى فراغ زمنى لانهائى ،

ملتهمة كل علوم ومعارف الدنيا ، بلا حدود أو موانع .. كل هـذه الطاقة ، تريدون أنتم إعادتها إلى جسد مادى !

غمغم (نور) :

ـ نريد أن نعيدك أنت يا صديقى .

هتف فى حدة :

ـ مستحيل ! أنتم واهمون يا (نور) .. المادة قد تتحولّ إلى طاقة ، ولكن العكس ليس صحيحًا .. لم يفلح العلم قط فى تحويل الطاقة إلى مادة .. فالمادة تفنى ، ولكن الطاقة تبقى .. أحلامكم مستحيلة يا (نور) .. مستحيلة تمامًا .

أجابه (نور) فى حزم :

ـ ليس تمامًا يا صديقى .

تطلّع إليه (محمود) بنظرة عصبية ، جعلته يتابع فى حماس :

ـ ربما تذكّرت كل شىء ، ولكنك نسيت أمرًا واحدًا .

سأله (محمود) فى حذر :

ـ وما هو ؟!

أجابه بمنتهى الحزم :

ـ (الزوريوم) .

سأله (محمود) ، وقد بدأت لهجته تحمل لمحة عصبية :

ـ ماذا عنه ؟!

أجابه (نور) ، وصوته يخفت ، على نحو ما :

ـ (الزوريوم) سائل حيوى ، ولكنه معدّل على نحو مدهش ؛ ليكتسب سمات المعادن السائلة ، والقدرة على التشكل فى أية هيئة .

سأله (محمود) ، وهو يتحوّل مرة أخرى إلى الصورة الضبابية :

ـ وماذا فى هذا ؟! ما الذى يمكن أن يفعله ذلك (الزوريوم) يا (نور) ..

أراد (نور) أن يخبره ، ولكن شيئًا ما عقد لسانه ..

شيئًا ما ، أثقل كلماته ..

شيئًا عجيبًا ..

عجيبًا للغاية ..

أما (محمود) ، فقد راحت صورته تتلاشى ..

وتتلاشى ..

وتتلاشى ..

كل شىء حول (نور) تحوَّل إلى ضباب ..

ضباب كثيف ..

و ...

« أظنه لقاء ناجح .. »

اخترق صوت (طارق) حاجز الضباب ، وبدا عميقًا متوتـرًا ، وهو يضيف :

ـ لقد سجلنا ارتفاعًا ملحوظًا ، فى نشاطاتك المخية .

فتح (نور) عينيه ، فى بطء ، وقال فى توتر :

ـ ولكنكم أيقظتمونى قبل الأوان .

لم يعلِّق (طارق) على عبارته ، ولكن الدكتور (راشد) ظهر من خلفه ، وهو يقول فى انفعال :

ـ لم يكن من الممكن أن تبقى فى تلك الحالة الصناعية طويلاً أيها المقدم .. معدَّلاتك الحيوية كادت تنهار ، مع الضغط العنيف .. من الواضح أن جسدك يستنزف كل طاقته لإحداث الاتصال .

سأله (نور) فى إرهاق :

ـ وهل سجلتم كل شىء ؟!

أجابه فى حماس :

ـ بالطبع .

حاول (نور) أن ينهض ، وهو يتطلَّع إليه فى تساؤل ملهوف ، فابتسم متابعًا :

ـ ولقد تيقنا من قدرتنا على هذا .. نعم .. نستطيع إعادة زميلكم المفقود .

وخفق قلب (نور) بعنف ..

بمنتهى العنف ..

★ ★ ★

تراجع القائد الأعلى فى مقعده فى بطء ، وهو يتطلَّع إلى (طارق) مليًّا ، قبل أن يقول ، فى شىء من الحذر :

ـ إذن ، فما زال العلماء يرون أن هذا ممكن .

أجابه (طارق) ، فى شىء من الحماس :

ـ بالضبط يا سيِّدى .. علماؤنا درسوا الأمر بمنتهى الدقة ، وربطوه بكل أبحاثهم وتجاربهم حول ذلك (الزوريوم) ، ولقد اتفقوا جميعًا على أنهم قادرون على هذا .

هزَّ القائد الأعلى رأسه ، مغمغمًا :

ـ مدهش !

ثم أشار بيده ، مضيفًا :

ـ العلم تجاوز كل حدود العقل ، ويتجه الآن إلى صنع ما كنا نتصوره دومًا من المستحيلات .

شدّ (طارق) قامته ، وهو يقول :

ـ ما دام العلم يتوصّل إليه ، فهو ليس مستحيلاً يا سيّدى .. وسأستعير رأى جدى ، فى أن الأمر يكمن فى أننا نتوصل إلى قانون جديد ، من قوانين الطبيعة ، لم نكن ندركه من قبل ، وكان غيابه عن أذهاننا ، يجعل كل شىء يبدو بعيد المنال .

اعتدل القائد الأعلى ، يسأله فى اهتمام :

ـ بمناسبة الحديث عن المستحيلات العلمية .. ألم تحل لغز وجودك بعد ؟!

هزّ (طارق) رأسه نفيًا ، وقال :

ـ ليس بعد للأسف .

وصمت لحظة ، ثم أضاف فى حزم :

ـ ولكننى ما زلت هنا ، وهذا يعنى أن وجودى ما زال منطقيًا وممكنًا ، عبر مجرى الزمن ، حتى هذه اللحظة .

أشار القائد الأعلى بسبابته ، قائلاً فى حماس :

ـ مجرى الزمن .

وعاد يتراجع فى مقعده ، مضيفًا :

ـ هنا يكمن الحل .

تساءل (طارق) فى حذر :

ـ حل ماذا ؟!

تابع القائد الأعلى فى حماس :

ـ زميلهم الضائع ما زال مجرد طاقة صافية هناك .. فى مجرى الزمن .. طاقة يمكنها أن تكسر حاجزى الزمان والمكان ، وفقًا لتقرير (نور) نفسه .. أو بمعنى أدق ، طاقة يمكنها معرفة ما استغلق علينا ، ورؤية كل ما عمينا عنه .

قال (طارق) فى انفعال :

ـ هل تقصد أنه قادر على ..

قاطعه القائد الأعلى :

ـ معرفة سر وجودك .. بالضبط .. إنها أفضل وسيلة ، لكشف واحد من الألغاز العجيبة ، التى ارتبطت بأسرتك كلها .

اتسعت عينا (طارق) ، وهو يغمغم :

ـ رباه ! هذا صحيح .

أجابه القائد الأعلى فى حماس أكثر :

ـ وكل ما يحتاج إليه الأمر ، غيبوبة صناعية جديدة ، ولقاء أخير بين جدك وزميله السابق ، قبل أن ننتزع هذا الأخير من فراغه الزمنى ، ونعود به إلى عالمنا المحدود .

ولم يعلّق (طارق) هذه المرة ..

انعقدت الكلمات فى حلقه ، وعلى لسانه ، من فرط انفعاله ..

فهذه قد تكون بالفعل ، وسيلته ؛ لمعرفة سر وجوده ..

وسيلته الوحيدة ..

★ ★ ★

« لا أحد يمكنه تحديد الأسباب أيها المقدم .. »

نطق الدكتور (راشد) العبارة فى خفوت ، وهو يتطلّع مع (نور) إلى أجساد أفراد الفريق ، الذين يرقدون ساكنين ، على تلك الأسرة الهوائية ، فى قسم الإنعاش والحالات الحرجة ..

وفى قلق ولوعة ، غمغم (نور) :

ـ ولكن لماذا لا يستعيدون وعيهم ؟! لقد سحبنا كل (الزوريوم) من أجسادهم وأدمغتهم ، وكل الأجهزة تشير إلى انتظام معدلاتهم الحيوية ، فلماذا لا يمكننا استعادتهم ؟! لماذا ؟!

هزّ الدكتور (راشد) رأسه ، قائلاً :

ـ يبقى سؤالك بلا جواب ، فى الوقت الحالى ، ولكن الأمور مستقرة على أية حال ، وفى كثير من الحالات ، يستعيد مثل هؤلاء وعيهم بغتةً ، دون أسباب واضحة .

بدا صوت (نور) حزينًا مريرًا ، وهو يقول :

ـ لا يمكنك أن تتصوَّر ، كم أشتاق إليهم .

ربّت الدكتور (راشد) على كتفه ، قائلاً فى إشفاق متعاطف :

ـ ربما يمكننى تصوُّر هذا .

وقاوم غصة فى حلقه ، قبل أن يضيف :

ـ ولكن من يدرى ؟! ربما استعادوا وعيهم ، بعد أن نستعيد زميلكم المفقود ، فيلتئم شمل الفريق كله مرة أخرى .. ربما .

تطلّع إليه (نور) ، فى صمت حزين مرير ، ثم هزّ رأسه ، قائلاً :

ـ مازلت أتساءل : هل سيمكننا استعادته بالفعل ؟!

التقط الدكتور (راشد) نفسًا عميقًا ، قبل أن يقول :

ـ حساباتنا كلها تقول إن هذا ممكن .. صحيح أنه لن يكون (محمود) نفسه ، الذى عرفتموه من قبل ، ولكنه سيكون نسخة طبق الأصل منه .. نسخة تحمل نفس مشاعره وذاكرته .

غمغم (نور) :

ـ ما زلت أشك فى هذا .

ربَّت الدكتور (راشد) على كتفه مرة أخرى ، وقال :

ـ سأشرح لك الأمر مرة أخرى ، لعلك تستطيع استيعابه هذه المرة .

والتقط نفسًا عميقًا ، قبل أن يضيف :

ـ فى المرحلة الأولى ، سنعمل على رصد طاقة زميلكم ، واحتوائها داخل أحد أجهزتنا ؛ لنعيده من فراغه الزمنى ، وهذه ليست بالتكنولوجيا شديدة التطوّر ، وإنما تكنولوجيا احتواء طاقة فحسب ، ولكن هذا لن يعيده إليكم فعليًا ، إلا بعد أن نعيد تكوينه المادى .

غمغم (نور) فى توتر :

ـ ما زلت أعتقد أن إعادة تكوين المادة أمر مستحيل .

أشار الدكتور (راشد) بيده ، قائلاً :

ـ ليس فى وجود (الزوربوم) .

وابتسم فى زهو وارتياح ، وهو يضيف :

ـ (الزوربوم) سائل حيوى ، له قدرة مدهشة على التشكُّل ، فى أية هيئة يشاء ، وهذا يعنى أنه يستطيع تكوين صورة ، أو نسخة طبق الأصل ، من زميلكم (محمود) ، عبر كل ما لدينا من أفلام وتسجيلات ، وصور هولوجرامية له ..

تساءل (نور) :

ـ أتعنى مثل شخص آلى ؟!

هزّ الدكتور (راشد) رأسه نفيًا ، وقال :

ـ ليس بالمعنى الحرفى ، ولكنه أشبه بما يسمونه (السيبورج) ، وهو تكوين شبه آلى ، تدخل فى صنعه أنسجة حية ، وتلك الأنسجة ، التى نتحدَّث عنها ، وهى أنسجة زميلكم (محمود) فعليًّا .

أطلَّت نظرة متسائلة متشكِّكة ، من عينى (نور) ، فتابع الدكتور (راشد) فى اهتمام :

ـ إنها عينة الأنسجة الخاصة به ، التى كانوا يحتفظون بها ، فى سجل الحمض النووى ، للعاملين بالمخابرات العلمية .. لقد حصلنا عليها ، وقمنا بتنميتها فى وسط صناعى ، لنصنع منها كمية أنسجة كافية .

وعاد يلتقط نفسًا عميقًا ، قبل أن يضيف :

ـ باختصار ، ستكون لديكم فى النهاية نسخة شبه بشرية ، هى مزيج من (الزوريوم) والنسيج الحى ، ولكنها تبدو ، وتتحرك ، وتفكر ، تمامًا مثل زميلكم (محمود) ، حتى أنكم أنتم أنفسكم ، لن يمكنكم رصد الفارق .

ظلّ (نور) يحدّق فيه بضع لحظات ، قبل أن يقول :

ـ هذا يبدو أشبه بالحلم .

تنهّد الدكتور (راشد) ، وابتسم ، قائلاً :

ـ هكذا العلم .

ثم هزّ كتفيه ، وأضاف :

ـ فى عصر آخر ، كانوا سيتهمون من يفعل هذا منا بالكفر والإلحاد .

غمغم (نور) :

ـ فى كل عصر ، تجد حتمًا من يهاجم العلم ، باسم الدين ، ومن يتعامل مع التطور ، باعتباره خرقًا لقوانين الخالق (عزّ وجلّ) ، على الرغم من أن أبسط قواعد الإيمان ، هى أن نثق فى قدرة الله (سبحانه وتعالى) ، وفى أنه ما من مخلوق ، يمكن حتى أن يقترب منها ، فما بالك بخرقها ، ولابد وأن نؤمن أيضًا ، بأنه مادام الشىء ممكنًا ، فهو ممكن بإرادته وحده (سبحانه) ، وإلا لما تحقق ، حتى لو اجتمع الكون كله عليه .

غمغم الدكتور (راشد) :

ـ صدقت أيها المقدَّم .. فالدين أمرنا أن نطلب العلم ، ولو فى (الصين) ، وأن نطلبه من المهد إلى اللحد .

قال (نور) فى آسف :

ـ ولو أطعنا هذا ، لما تفوّق علينا الغرب ، فى مرحلة من مراحل التاريخ .

كان يمكن أن يستمر الحوار بينهما طويلاً ، حول النقطة نفسها ، لولا أن ظهر (طارق) فى هذه اللحظة ، وهو يقول :

ـ جدى .

لم يكن من السهل أن يستوعب الدكتور (راشد) النداء ، مع ما يبدو من فارق ضئيل فى العمر ، بين (نور) و(طارق) ، فانعقد حاجباه فى شدة ، فى حين استقبل (نور) الأمر فى بساطة ، وهو يسأل :

ـ ماذا هناك يا (طارق) ؟!

انتحى به (طارق) جانبًا ، وهو يقول :

ـ إننى أحتاج إليك .

هتف (نور) فى حماس :

ـ وأنا رهن إشارتك .

أجابه (طارق) فى احترام :

ـ عفوًا يا جدى ، ولكن القائد الأعلى نبهنى إلى نقطة ، لست أدرى كيف لم أنتبه إليها من قبل .

استمع إليه (نور) فى اهتمام ، وهو يتابع فى توتر :

ـ فوفقًا للظروف الحالية ، ربما كنت آخر أمل لى ، فى معرفة سر وجودى ، الذى يتعارض فعليًا مع مجرى الزمن الطبيعى .

قال (نور) فى حزم :

ـ اسمع يا (طارق) ، مادمت موجودًا ، فهذا يعنى أن وجودك لا يتعارض مع مجرى الزمن الطبيعى ، بأى حال من الأحوال .. كل ما فى الأمر هو أننا لم نفهم الأمر بعد ، أو لم ندرك الحكمة منه ؛ لأن عقولنا قاصرة عن هذا .

شدّ (طارق) قامته ، وهو يقول :

ـ وهذا ما أتيتك من أجله يا جدى ..

وصمت لحظة ، ثم أضاف فى توتر :

ـ أن أفهم .

نطقها بانفعال جارف ، جعل (نور) يتطلّع إليه طويلاً فى صمت ، قبل أن يربّت على كتفه ، ويقول فى حزم :

ـ سأبذل كل ما يتطلبه الأمر من جهد .

وكان هذا إيذانًا ببدء فصل جديد ، من حياة (نور) .. حياته ، التى صارت أشبه بأسطورة ..

أسطورة حية ..

ومستقبلية ..

★ ★ ★

« مستحيل ! »

هتف الدكتور (راشد) بالكلمة ، فى غضب مستنكر ، قبل أن يضيف فى حدة :

ـ إننا ننشد نصرًا علميًا ، لا عبثًا بلا طائل .. هل تدرك كم رجل يعمل ؛ لوضعك فى غيبوبة صناعية آمنة أيها المقدّم ؟! هل تتصورُ أننا سنفعل هذا ، فقط لأن حفيدك يبحث عن سر وجوده ؟! من منا يعلم سر وجوده فى هذه الحياة ؟! من منا يعلم ما الذى يدّخره له القدر ، أو لأى هدف وُلِدَ ؟!

قال (نور) فى صرامة :

ـ إننا لانتحدّث عن ذات نفسية ، يحتاج شخص ما إلى دعمها ، فى أعماق شخصيته ، أو عقله الباطن .. إننا نتحدّث عن حياة رجل .. وهذا الرجل يتصادف أنه حفيدى ، وأن كلينا قد تجاوز النمط المألوف ، فى مسار العمر الطبيعى .. وما تحاول تجاهله ، هو أنه لو لم يعرف سر وجوده ، فقد يهدّد هذا ذلك الوجود كله بالفناء .

قال الدكتور (راشد) فى عصبية :

ـ إنه لن يتلاشى من الوجود ، لمجرد أن ..

قاطعه (نور) فى صرامة :

ـ بل سيفعل .

حدّق الدكتور (راشد) فى وجهه مستنكرًا ، فتابع فى صرامة أكثر :

ـ ابنتى ، التى ترقد غائبة عن الوعى هنا ، هى أمه ، وفقًا لما تؤكّده كل فحوص الحمض النووى المتقدّمة ، ولكن المشكلة أنه ، وحتى لحظة اختفائنا عن زمننا ، لم تكن قد أنجبته بعد ،

مما يضعنا أمام لغز ضخم .. فكيف جاء هو إلى الوجود ، من أم لم تنجبه أبدًا ؟! كل علمائك لن يمكنهم حل هذا اللغز الرهيب .

ثم اعتدل ، وشدّ قامته ، مضيفًا فى حزم :

ـ ولكن ربما كانت لدى وسيلة لحله .

غمغم الدكتور (راشد) :

ـ غيبوبة جديدة ؟!

أجابه (نور) :

ـ لقاء أخير مع (محمود) ، فى مجرى الزمن .. لقاء قد يكشف ما لايمكننا التوصّل إليه من أسرار .. لقاء قد يحسم سر وجود (طارق) .

وصمت لحظة ، ثم غمغم فى تأثّر شديد :

ـ حفيدى .

تطلّع إليه الدكتور (راشد) طويلاً ، ثم لم يلبث أن ربّت على كتفه ، قائلاً فى خفوت مشفق :

- فليكن أيها المقدّم .. سنفعلها للمرة الأخيرة .

نطقها وهو يعنى كل حرف منها ..

كانت بالفعل المرة الأخيرة ..

ولكن من مفهوم لم يخطر ببال (نور) ..

لم يخطر بباله أبدًا .

★ ★ ★

6- مـرة أخيـرة ..

« نحن على أتم الاستعداد لبدء التجربة .. »

نطق أحد العلمـاء العبارة فى انفعال شديد ، وهو يقف إلى جوار نسخة نصف آلية ونصف بشرية ، مصنوعة من مزيج من (الزوريوم) ، مع خلايا (محمود) التي تمت تنميتها ، والتى تبدو أشبه بجسد بشرى يرقد بلا حراك ، فتطلع الدكتور (راشد) إليه ، وإلى ذلك الجسم نصف الآلى ، وغمغم فى توتر ، لم يستطع كتمانه :

- أشعر أننا نقدم على أمر رهيب .

أجابه العالم فى حماس :

- بل نحن على شفا انتصار علمي على كـل المستويات ، فكل ما ينقصنا هو نقل طاقة عضو الفريق ، إلى ذلك (السيبورج) (★) ، وكل ما صنعناه حتى الآن ، هو مجرد تطبيقات لنظريات علميـة ، موضوعة منذ ثمانينيات القرن الماضى ، ولقد ساعدنا (الزوريوم) على تفعيلها فحسب ، وما تراه أمامك هو مجرد شخص آلى ، مهما بدا من مظهره الخارجى ، ويمكننا أن ندس فيه محركًا قويًا ، مع نظـام كمبيوتر متطوّر ، ليصبح أشبه بالبشر ، خارجيًا على الأقل ، ولكنه لن يمتلك مشاعر البشر ، ولاقدرتهم على التفكير

(★) السيبورج : فكرة علمية ، تسعى الولايات المتحدة الأمريكية لوضعها موضع التنفيذ ، منذ ثمانينيات القرن العشرين ، وهى تعتمد على إنتاج شخص آلى ، تدخل فى تكوينه خلايا حية ، بحيث يشبه البشر خارجيًا ، ويمتلك ذكاءً صناعيًا بقوة أجهزة الكمبيوتر .

والتدبير ، ودراسة المواقف ، واتخاذ القرارات .. باختصار ، يمكننا أن نضع صورة مشوهة للحركة الذكية ، ولكن لو نجحنا فى احتواء طاقة ذلك الزميل ، الضائع فى مجرى الزمن ، داخل هذا التكوين ، فستمده بما يحتاج إليه ، ونقفز بالعلم ألف عام إلى الأمام .

تنهَّد الدكتور (راشد) فى توتر ، وقال :

ـ ما زال بعض أفراد فريقنا يرون أن هذا مخالف للإرادة الإلهية .

هزَّ العالم رأسه فى قوة ، وقال :

ـ هذا ما قالوه قديمًا ، مع منشأ جراحات التجميل ، وابتكار فكرة أطفال الأنابيب ، والاستنساخ ، وحتى مع آلات التصوير الرقمية ، فى الهواتف المحمولة .. محاربة العالم باسم الدين ستظل دومًا صراعًا يتحتم علينا أن نخوضه ، حتى نصعد فى درجات العلم .

وافقه الدكتور (راشد) بإيماءة من رأسه ، وقال :

ـ إننى أتفق معك فى هذا ، ولكننى أثق أيضًا فى قاعدة أخرى ، صنعها إيمانى بالله (سبحانه وتعالى) ، بأكثر مما قادنى إليها إيمانى بالعلم .

استمع إليه الرجل فى اهتمام وانتباه ، وهو يتابع فى حسم :

ـ الله (سبحانه وتعالى) خلق الإنسان على شاكلته ، وبث فيه من روحه (عزَّ وجلَّ) ، وصنعه على أجمل وأكمل صورة ، فلو دس الإنسان أنفه فى هذا المسار ، وعبث به ، على نحو أو آخر ، فربما يحصل على ما يسعى إليه ، ولكنه سيخسر فى المقابل شيئًا آخر حتمًا .

وصمت لحظة ، ليلتقط نفسًا عميقًا ، قبل أن يضيف :

ـ هذه هى الحتمية ، التى تصنع التوازن الطبيعى للأمور فى النهاية ، وتغلِّب المشيئة الإلهية ، مهما بلغت براعة أو خبرات البشر .

ثم تنهَّد ، وأشار إلى (السيبورج) أمامه ، مكملاً :

ـ ولكننى سأستعير هنا مبدأ المقدَّم (نور) .. فما دام هذا ممكنًا ، فهو لا يتعارض حتمًا مع المشيئة الإلهية .. فالله (جلَّ جلاله) ، خلق الكون ، ووضع كل قوانينه التى نكشفها رويدًا رويدًا ، ويستغلق علينا معظمها طوال الوقت .. أو كما قيل قديمًا .. التطوَّر العلمى هو تحد مستمر ، وإهانة دائمة للذكاء البشرى ؛ فكلما تصورت أنك قد بلغت أعلى شئون العلم ، ظهر قانون طبيعى جديد ، يفسِّر الكثير مما أحاط به الغموض من قبل ، ولكنه يهدم قواعد قديمة فى الوقت ذاته .

صمت طويلاً هذه المرة ، وهو يتطلَّع إلى نسخة (السيبورج) ، الشبيهة بـ (محمود) ، قبل أن يقول :

ـ وعلى أى حال ، نحن نجهل ما الذى يمكن أن يقودنا إليه تقدُّم علمى واحد ، وواجبنا ألا نتراجع عن التجربة ، ما دام فى مقدورنا القيام بها .

غمغم العالم ، فى شىء من الحذر :

ـ هل نبدأ محاولة احتواء طاقة عضو الفريق السابق ؟!

صمت الدكتور (راشد) لحظة أخرى ، ثم قال فى حزم :

ـ على بركة الله .

اعتدل العالم ، وسأله :

ـ على الرغم مما قد يعرّض له هذا حياة المقدّم (نور) للخطر .

مطّ الدكتور (راشد) شفتيه ، وشرد ببصره بضع لحظات ، ثم أجاب فى حزم شديد :

ـ هو اختار هذا .

ولم يعد هناك ما يقال بعدها ..

على الإطلاق ..

★ ★ ★

لم يدر (نور) لماذا كان الضباب كثيفًا ثقيلاً هذه المرة ..

ولكنه لم ير شيئًا ..

لقد وجد نفسه داخل ذلك الفراغ الزمنى اللامتناه ، ولكن الضباب يحيط به من كل جانب ، ويكاد يجثم على أنفاسه .

ولم يكن (محمود) هناك ..

لم يكن هناك سوى ضباب ..

وفراغ ..

وخوف ..

وحاول (نور) أن يصرخ ..

أن ينادى (محمود) كما اعتاد ..

حاول ..

وحاول ..

وحاول ..

ولكن الكلمات والصرخات لم تتجاوز حلقه ، أو حتى عقله قط ..

لم يدر لماذا ، أو ماذا تغيَّر هذه المرة ..

ولكنه قاوم ..

بذل جهدًا خرافيًا ، ليتجاوز ذلك الحاجز الوهمى ، ويهتف مناديًا زميله وصديقه ..

قاوم ..

وقاوم ..

وقاوم ..

ثم فجأة ، وجد نفسه يصرخ :

ـ أين أنت يا (محمود) ؟!

لم يأته أى جواب ، من وسط الضباب الكثيف ، فتابع وقد انحلّت عقدة عقله :

ـ لماذا ترفض إتمام الاتصال هذه المرة ؟! لماذا تبتعد ؟! إننى أحتاج إليك يا صديقى .. الفريق كله يحتاج إليك .. حتى (طارق) ، حفيدى .. كلنا نحتاج إليك يا صديق العمر.

خُيّل إليه أنه يسمع صوتًا باهتًا ينادى اسمه ، فتلفّت حوله فى توتر ، وحاول أن يخترق حجب الضباب ببصره ..

أو حتى بعقله ..

ولكن الصوت تكرّر باهتًا ..

بعيدًا ..

مختنقًا ..

وبكل إرادته ، هتف :

ـ لا تبتعد يا صديقى .. كلنا بحاجة إليك .

بدا الصوت أكثر وضوحًا ، وهو يقول :

ـ أنا رهن إشارتكم يا (نور) .

ومن وسط الضباب الكثيف ، راح جسد هلامى يتشكّل ..

ويتكوّن ..

ويتضح ..

وما هى إلا لحظات ، وتجسّد (محمود) أمام عقله ، على نفس الصورة التى رآه عليها فى آخر مرة ، وهو يتابع فى صوت حزين :

ـ لا يمكننى أن أتخلى عنكم أبدًا .

أجابه (نور) فى حماس :

ـ ونحن لم نتخل عنك يا (محمود) .

أومأ برأسه متفهمًا ، وبدا صوته أكثر حزنًا ، وهو يقول :

ـ تريد معرفة مصير الرفاق .

قال (نور) فى لهفة :

ـ وسر وجود (طارق) .

عاد يهز رأسه متفهمًا ، وهو يجيب :

ـ ليس هذا بالأمر العسير ، بالنسبة لمن فى مثل موقفى يا (نور) .. فهنا يمكنك أن تخوض الزمان كله فى لحظة واحدة ، وعبر الزمكان ، يمكنك رؤية كل ما حدث ، فى أيه لحظة ، عبر نهر الزمن كله .

تضاعفت لهفة (نور) ، وهو يقول :

ـ تعرف إذن سر وجود (طارق) .

أومأ (محمود) برأسه إيجابًا ، وقال :

ـ بالتأكيد يا (نور) ، ولكن قبل أن أخبرك ، أريدك أن تعدنـى بشىء واحد .

سأله فى قلق :

ـ وما هو ؟!

أشار (محمود) بيده لما حوله ، قائلاً :

ـ اتركونى هنا .

اتسعت عينا (نور) فى دهشة ، وهو يهتف :

ـ هنا ؟! فى فراغ نهر الزمن ؟! أى مطلب هذا يا صديقى ؟! إننا نشفق عليك فى وحدتك هذه ، ونسعى لإعادتك إلى عالمنا ، خاصـة وأنك ، على الرغم من تحولك من مادة إلى طاقـة ، مازلت حيًّا ، ومن حقك أن ...

قاطعه (محمود) فى مرارة :

ـ من حقى ألا أتحول إلى شخص نصف آلـى .. من حقـى أن أبقى حيث تهدأ نفسيتى يا (نور) .

غمغم (نور) ، فى دهشة أكثر :

ـ هنا ؟!

أجابه فى سرعة :

ـ نعم يا (نور) .. هنا .. ربما بدا لكم هذا مأساويًا مؤسفًا ، وربما كنت أنا نفسى أتمنى العودة ، فى مرحلة ما ، إلا أننى ، ومـع مرور الزمن ، صرت أكثر حكمة ، وأكثر نضجًا ، وبدأت أدرك عظمة التواجد هنا .. فى مجرى نهر الزمن .. هنا يمكننى أن أكون أكثر فائدة وأكثر عونًا لكم يا (نور) ، أما لو عدت ، فى ذلك (السيبورج) شـبه البشرى ، فسأفقد الكثير مما أنا عليه الآن ، ولن أعود كمـا عرفتمونـى من قبل يا صديقى .. من المستحيل أن أعود كما كنت .. صحيح أننى ما زلت حيًا ، ولكننى أشبه بالموتى ، والموتى لا يعودون .

كان هذا المنطق مفاجئـًا بالنسبة لـ (نـور) ، الذى حدّق فـى وجه صديقه طويلاً ، قبل أن يغمغم :

ـ رباه ! لقد تصورّت أن ...

قاطعه (محمود) فى توتر :

ـ أرجوك يا (نور) .. عدنى أن أبقى هنا .. إننى أبغض المصير الذى ينتظرنى ، داخل ذلك (السيبورج) .. أرجوك .

شعر (نور) بتوتر شديد ، يسـرى فـى عروقـه ، وهو يتطلّـع إلى صديقه القديم ، قبل أن يغمغم :

ـ فليكن يا صديقى .. لن يعيدك أحـد إلى الأرض ، إلا بإرادتك الحرة .

تنفس (محمود) الصعداء ، وهو يغمغم :

ـ أشكرك يا صديقى .. لقد أرحتنى كثيرًا .

ثم اعتدل ، متابعًا فى حماس :

ـ والآن أريدك أن تطمئن على رفاقنا .. انسحاب مادة (الزوريوم) من أجسادهم ليس بالأمر السهل ، ومعدلاتهم الحيوية تتكيَّف على الحياة بدونه الآن ، وسيعود الكل إلى وعيهم مساء الغد .. (أكرم) أول من سيستعيد وعيه منهم ، فى الحادية عشرة وست دقائق بالضبط ، وأوَّل ما سيفعله هو أن يسأل عن مسدسه .

تراقصت ابتسامة على شفتى (نور) ، أو أنه تصوَّر هذا فى عقله ، وهو يغمغم :

ـ هذا هو (أكرم) الذى أعرفه .

تابع (محمود) ، وكأنه لم يسمعه :

ـ الباقون سيتبعونه تباعًا ، وستعود (سلوى) إلى وعيها فى نهايتهم ، فى الواحدة وسبع عشرة دقيقة صباحًا .

تساءل (نور) فى دهشة :

ـ هل يمكنك رؤية المستقبل بهذا الوضوح ؟!

هزَّ رأسه نفيًا ، وهو يغمغم :

ـ لا يعلم الغيب إلا الله (سبحانه وتعالى) يا (نور) ، ولكن التواجد فى نهر الزمن يكشف لمحات قليلة من المستقبل القريب ، أما ما تبقى ، فهو يغرق دومًا فى ضباب كثيف ، منعنى من رؤية ما سيحدث ، بعد أن يلتئم شمل الفريق ، بل ومنعنى حتى من معرفة مصيرى المستقبلى .

تمتم (نور) :

ـ أنت قلتها يا صديقى .. لا يعلم الغيب إلا الخالق (عزَّ وجلَّ) ، ولكن ماذا عن الماضى ؟!

ألقى الجزء الثانى من السؤال فى لهفة ، فابتسم (محمود) ، وقال :

ـ أتقصد سر وجود (طارق) ؟!

هتف (نور) :

ـ بالضبط .

أجابه (محمود) فى هدوء :

ـ وجود (طارق) ليس سرًا مستغلقًا ، كما يبدو لكم ، ولكن هذا لا ينفى أنه لم يخضع للقواعد العادية ، فقد كانت تنشئته عجيبة بالفعل ، خاصة وأن (نشوى) كانت تحمله فى أحشائها فعليًا ، عندما خضعتم جميعًا لحالة التجميد الزمنى الطويل .

غمغم (نور) فى دهشة :

ـ كانت تحمله .

أشار (محمود) بسبَّابته ، قائلاً :

ـ و(س ـ 18) كان هناك أيضًا .

هتف (نور) ، وقد تضاعفت دهشته :

ـ وما علاقة كل هـذا ببعضه البعض ؟! حمل (نشوى) به ، والتجميد الزمنى الطويل ، و(س ـ 18) ؟! كيف يمكن أن تتفق كل هذه المعطيات مع بعضها البعض ؟!

أجابه (محمود) :

ـ لو أنك تابعت الـ ...

فجأة ، بدت كلماته غير واضحة ..

وفجأة أيضًا ، فقدت صورته تجسُّدها ، وراحت تهتز ..

وتتموَّج ..

وتتلاشى ..

وكل ما فعله ، هو أن صرخ فى شىء من الذعر :

ـ رباه ! (نور) .. لقد وعدتنى .

وحاول (نور) أن يقول شيئًا ..

حـاول ، وحـاول ، ولكن آلامًا رهيبـة سرت فـى جسده كله ، وتجمَّدت معها الكلمات على شفتيه وفى حلقه ..

واهتزَّت صورة (محمود) أكثر وأكثر ، وراحت تمتزج بالضباب المحيط ، والذى عاد يتكثَّف بشدة ، ويمر كل شىء ، ويجثم على أنفاس (نور) ، الذى راح يلهث فى عنف ، وآلامه تتزايد ..

وتتزايد ..

وتتزايد ..

وبكل إرادته ، كسر حاجز الصمت ، صارخًا :

ـ ماذا يحدث ؟!

لم تكد الصرخة تتجاوز عقلـه ، حتى انتفض جسده كلـه فى عنف شديد ، وتناهت إلى مسامعه صرخة ..

صرخة ألم ..

وعذاب ..

ويأس ..

صرخة تحمل صوت صديق عمره السابق ..

صوت (محمود) ..

صرخةً تمزَّقت لها نياط قلب (نور) ، وجعلته يكرِّر :

ـ ماذا يحدث ؟!

ومرة أخرى ، انتفض جسده بعنف ..

بمنتهى منتهى العنف ..

وغمرت الآلام جسده كله ، من قمة رأسه ، وحتى أخمص قدميه ..

آلام لم يشعر بمثلها من قبل قط ..

آلام بلا حدود ..

ولوهلة ، شعر (نـور) وكـأن روحـه ستفارق جسده ، أو أنـه لن يحتمل هذا العذاب الرهيب ..

وبكل ما يشعر به صرخ ..

وصرخ ..

وصرخ ..

ولكن صرخاته كلها انطلقت داخل عقل مكدود ..

مهدود ..

منهك ..

منهار ..

ثم كانت تلك الانتفاضة الأخيرة ، الأكثر عنفًا ، والتى أطلق بعدها شهقة قوية ، هاتفًا :

ـ ولكن لمـاذا ؟!

سمع صوت الدكتور (راشد) ، يخترق حجب الضباب ، وهو يقول فى توتر شديد :

ـ استيقظ أيها المقدَّم .. عد إلينا .

سرت فى جسده ارتجافة شديدة ، قبل أن يفتح عينيه ، ويحدِّق فى وجه الدكتور (راشد) ، ومجموعة الأطباء المحيطين به ، ثم يغمغم فى توتر :

ـ ماذا حدث ؟! ماذا حدث ؟!

زفر الدكتور (راشد) بكل توتره ، وقال :

ـ حدث أنك قد عدت إلينا بأعجوبة .

وأضاف عالم آخر :

ـ تصـوَّرنـا خـلال السـاعة الماضـية أننـا قد خسرنـاك إلى الأبـد .

غمغم (نور) ذاهلاً :

ـ ساعة ؟! أأنا فاقد الوعى منذ ساعة كاملة ؟!

هزَّ الدكتور (راشد) رأسه نفيًا ، وأجاب :

ـ بل منذ ساعتين وسبع دقـائق أيها المقدَّم .. لقد بقيت فى غيبوبـة صناعيـة لمـا يقرب من السـاعة ، وبعدهـا قفـزت كـل معدلاتك الحيوية إلى حد رهيب ، حتى بدا وكأن جسدك يعمل بثلاثة أو أربعة أضعاف طاقته المعتادة ، وكان هذا كفيلاً بانهياره التام ، لو لم توقف هذا .

تساءل (نور) فى قلق :

ـ ولماذا حدث هذا هذه المرة ؟!

أجابه الدكتور (راشد) فى توتر ، حاول أن يكتمه :

ـ لأن هذه المرة كانت تختلف .

سأله بقلق أكبر :

ـ فيم ؟!

تطلَّع إليه الدكتور (راشد) بضع لحظات فى صمت ، ثم نهض ، وعقد كفيه خلف ظهره ، وقال وهو يشيح بوجهه :

ـ لقد قمنا بالتجربة .

كان الجواب واضحًا ، وعلى الرغم من هذا ، فقد غمغم (نور) :

ـ أية تجربة ؟!

أجابه فى صرامة متوترة :

ـ احتواء طاقة زميلك .

قفز (نور) فى مكانه ، وهو يهتف :

ـ رباه ! كيف تفعلون هذا دون استشارتى ؟! كيف ؟! المفترض أنه لقاء أخير ، قبل أن نبدأ تجربة الاحتواء ، وقبل أن ...

قاطعه الدكتور (راشد) ، فى عصبية شديدة :

ـ لم تكن هناك فرصة أفضل .. كنت متلهفًا للقائه ، مما يضاعف من طاقة اللقاء وكانت أجهزتنا كلها تعمل بكفاءة ، فلماذا الانتظـار ؟!

هتف (نور) فى غضب :

ـ هذا ما كان مقرَّرًا .

تضاعفت صرامة الدكتور (راشد) وعصبيته ، وهو يقول :

ـ لا أحد هنا يتخذ القرارات سواى أيها المقدَّم .. أنا وحدى أقرِّر ما هو صالح علميًّا .

صاح (نور) فى حدة :

ـ وماذا عن إرادة الآخرين ؟!

أشار إلى باب الحجرة ، هاتفًا فى حدة :

ـ تنتهى هناك .. عند ذلك الباب .

احتقن وجه (نور) ، وهو يقول فى غضب :

ـ يبدو لى أنك تتجاوز حدودك يا دكتور (راشد) .

أجابه الرجل بمنتهى العصبية :

ـ حدودى هى كل ما يسمح به العلم أيها المقدَّم ، ومن هذا المنطلق ، أرى أننى لم أتجاوز شيئًا .

ثم لوَّح بسبَّابته فى وجه (نور) مستطردًا بمزيد من العصبية :

ـ أما أنت ، فقد تجاوزت كل حدود اللياقة والتسلسل القيادى ، علمًا بأنك وفريقك ، لم تعد لكم أية صفة رسمية ، فى هذا العصر .

انقض عليه (نور) بحركة مباغتة ، وهو يقول :

ـ صفة رسمية أو بدون ، ستعيد (محمود) إلى حيث أتيت به .. لن يجلبه أحد إلى هنا ، على الرغم منه .

اندفع رجال الأمن نحو (نور) ، فى حين صرخ الدكتور (راشد) ، وهو يجاهد لتخليص نفسه منه :

ـ مستحيل ! عودته أصبحت مستحيلة .

هاجم رجال الأمن (نور) عند هذه النقطة ، إلا أنهم أدركوا ، فى اللحظة التالية ، أن السيطرة على غضبه ، تبدو مستحيلة بالفعل ، فى مثل هذا الموقف ..

لقد استقبل هجومهم بنشاط جم ، لايتناسب مع شخص استيقظ منذ ساعات ، من حالة تجميد زمنى طويلة ، فلكم أقربهم إليه فى أنفه مباشرة ، ثم دار على عقبيه ، ولكم الثانى فى فكه ، وانحنى يتفادى لكمة الثالث ، قبل أن يكيل له لكمة ، ألقته مترين إلى الخلف ..

وقبل أن ينجح الدكتور (راشد) فى الفرار ، فوجئ بـ (نور) ينقضّ عليه مرة ثانية ، هاتفًا فى غضب صارم :

ـ أعد (محمود) .

صرخ الدكتور (ناظم) فى ذعر :

ـ لقد انتزعنا طاقته من نهر الزمن بمعجزة ، ولن يمكننا إعادته مرة ثانية ، وإلا ..

واتسعت عيناه عن آخرهما ، وهو يضيف :

ـ وإلا تشتَّتت طاقته فى عالمنا ، و ... ولقى مصرعه .

وتجمَّد (نور) تمامًا ، بعد هذا الجواب ..

فالآن ، لم يعد باستطاعته أن يفى بوعده لصديقه القديم ..

لقد أعادوه إلى عالمنا ، بلا استئذان ..

وبلا إرادة ..

وبلا عودة ..

★ ★ ★

7ـ الشـــمل ..

إنها مسألة وقت فحسب ..

مسألة زمن ..

لو صح ما قاله (محمود) ، فى ذلك الفراغ الزمنى ، فالكل سيدأ فى استعادة الوعى ، بعد أقل من ساعتين ..

ويبقى السؤال ..

ماذا بعد أن يعود الفريق ؟!

ماذا سيكون مصيرهم ؟!

كيف سيتعامل معهم هذا الزمن ، الذى كانوا يعتبرونه مستقبلاً ، ثم أصبح حاضرهم ؟!

جالت كل هذه الأسئلة فى رأس (نور) ، وهو يجلس فى ذلك الركن ، من مبنى إدارة المخابرات التكنورقمية ، محاطًا بجدران خفية من الطاقة ، يستحيل اختراقها ، وإن سمحت له برؤية كل ما خلفها ..

فقط تمنح الهواء لونًا برتقاليًا باهتًا ، فى أماكن تواجدها ..

وفى توتر ، اقترب (نور) من أحد تلك الجدران الخفية ، ومدَّ يده نحوها ، فشعر بوخز عنيف ، فى جسده كله ، وسمع صوت (أيمن) يقول :

ـ لو حاولت اختراقها ، ستدمر توازنك الخلوى كله .

تراجع بحركة حادة ، فى نفس اللحظة التى زال فيها اللون البرتقالى الباهت من الهواء ، وظهر (أيمن) ، وهو يقول :

ـ إنه أسلوب أمن جديد ، لم يكن معروفًا ، عندما اختفيت مع فريقك .

شدَّ (نور) قامته ، وهو يقول فى صرامة :

ـ كل شىء يتطوَّر :

وافقه (أيمن) بإيماءة من رأسه ، وهو يدخل حدود الزنزانة الخفية ، قائلاً :

ـ ومن المحتَّم أن نتقبَّل هذا التطوَّر ؛ فلن يمكننا أن نقاومه ، مهما فعلنا .

رمقه (نور) بنظرة صامتة ، تشف عن الرضا ، قبل أن يشيح بوجهه ، فى محاولة لإخفاء انفعاله ، فحاول (أيمن) أن يبتسم ، وهو يقول :

ـ أما زلت غاضبًا لعودة زميلك ؟!

أجابه (نور) ، دون أن يلتفت إليه :

ـ ما يغضبنى هو عودته ؛ على الرغم من إرادته .

هزَّ كتفيه ، قائلاً :

ـ من يدرى ؟! ربما تغيَّرت إرادته ، بعد أن يعتاد ذلك الجسد ، المصنوع من مزيج من خلاياه الحية ، وذلك (الزوريوم) .

قال (نور) فى حنق :

ـ أتقصد الجسد شبه الآلى ؟!

صمت (أيمن) لحظة ، ثم قال :

ـ هذا أقصى ما يمكننا أن نفعله من أجله .

قال (نور) فى حدة :

ـ كان يمكنكم تركه وشأنه .

هزَّ رأسه نفيًا فى حزم ، وقال :

ـ كلاً .. لم يكن يمكننا هذا .

انعقدَ حاجبا (نور) فـى شـدة ، وهمَّ بقـول شـىء مـا ، ولكـن (أيمن) استوقفه بإشارة من يده ، قائلاً فى حزم أكثر :

ـ عندما تعود إلى الخدمة ، ربما تعرف لمـاذا لـم يكن يمكننـا هذا ، أما الآن ، فالأمر يخضع إلى سرية نظم الأمن القومى .

أطلّ تساؤل متوتر من عينى (نور) ، وهو يتطلّع إلى (أيمن) فى حيرة ، فلوّح هذا الأخير بذراعه ، قائلا :

ـ ولكن دعنـا نطرح هذا الأمر جانبًا ، حتى يعتـاد (محمـود) ذلك الجسد الزوريومى ، وتبدأ طاقته باستخدامه على نحو جيد ، أما الآن ، فهناك أمر آخر ، ينبغى أن نناقشه معًا .

سأله (نور) فى حذر :

ـ أى أمر هذا ؟!

أشار (أيمن) بيده ، قائلاً :

ـ أمركم أنتم .

حملـت عينـا (نـور) المزيـد مـن الحـذر والتوتـر ، فتـابع (أيمن) :

ـ فى كـل الأوراق الرسـمية ، ووفقًا لكل المعـايير الدوليـة ، لا وجـود لفريقك فى هـذا الزمـن ، إلا فى كتب التاريخ فحسب ، وهذا يعنى أنه لا كيان رسمى لكم فى حاضرنا ، مما يعنى بالتبعية انعدام المستقبل .

اعتدل (نور) ، وهو يقول :

ـ يمكننى أن أجـزم أننى لـم أفهـم شـيئًا ، من هـذه المقدّمة الطويلة .

ابتسم (أيمن) ابتسامة باهتة ، وهو يغمغم :

ـ ولكن كان لا بد منها .

ثم أضاف فى حسم :

ـ حتى أنقل إليك عرض السيِّد رئيس الجمهورية .

قال (نور) ، بمنتهى الحذر :

ـ عرض الرئيس ؟!

أجابه (أيمن) فى حزم :

ـ بالطبع .. صحيح أننا لم نعلن عن وجودكم رسميًا ، بأية صورة من الصور ، ولكن تقريرًا وافيًا عن حالتكم تم وضعه أمام السيِّد الرئيس ، مؤيدًا بالصور والأفلام الرقمية ، وسجلاتنا عن ذلك الكهف ، الذى فقدتم فيه قديمًا ، والكهف الزمنى ، الذى أصبحتم فيه حاليًا .. ولقد اجتمع سيادته بكبار مساعديه ومعاونيه ، لبحث كل ما يتعلّق بكم ، قبل أن يقدّم عرضه هذا .

عقد (نور) ساعديه أمام صدره ، وغمغم :

ـ كلى آذان مصغية .

أجابه (أيمن) :

ـ سيادة الرئيس يعرض عليكم العودة إلى الخدمة ، مع كل الترقيات والعلاوات المتأخرة ، ولكن دون الإعلان عن عودتكم رسميًا .

قال (نور) فى دهشة :

ـ ولماذا ؟!

أجابه فى سرعة :

ـ الناس أعداء ما يجهلون ، ويتخذون دومًا موقفًا متحفزًا حذرًا ، من كل ما يخالف النسق الطبيعى ، الذى اعتادوه فى مساراتهم اليومية التقليدية ، والإعلان عن عودتكم ، بعد أن أصبحتم أسطورة ، سيثير حالة من البلبلة الشديدة فى المجتمع ، ولن يتقبلكم الناس فى سهولة ، بل ربما أصبحتم معزولين عن كل ما حولكم تمامًا .. ثم إنه سيصبح من العسير تبرير عودتكم ، دون أن تتقدموا فى العمر ، فى حين أن الأمن القومى اقتضى عدم إعلان وجود شعب (جروندا) ، أو الإشارة إلى رحيله .. باختصار ، عودتكم الرسمية ستتعارض مع كل قواعد الأمن القومى .

شعر (نور) بغصة فى حلقه ، وهو يقول :

ـ إذن ، فبعد كل ما فعلناه ، من أجل الوطن ، ومن أجل العالم أجمع ، صار وجودنا تهديدًا للأمن القومى .

تنهَّد (أيمن) فى أسف ، قائلاً :

ـ أنت خير من يدرك تعقيدات مثل هذه الأمور .

تضاعف شعور (نـور) بتلك الغصة فى حلقـه ، وهو يشيح بوجهه ، ويقاوم تلك المرارة ، التى شملت كيانه كله ..

لم يكن من السـهل عليه قط أن يتقبَّل هذا التطوّر المؤسف للأمور ..

لم يكن من السهل أبدًا ، أن يغوص فى ذلك الكهف الجديد .. كهف الزمن ..

والمستقبل ..

« لم أسمع ردك يا (نور) .. »

قطع (أيمن) مرارته بالسؤال ، فالتفت إليه فى بطء ، وقال فى صوت ، لم تتلاش مرارته بعده :

ـ وماذا لو لم أقبل العرض ؟!

صـمت (أيـمـن) طـويلاً هـذه المـرة ، قبـل أن يقول فى خفـوت :

ـ أتمنى ألا يحدث هذا ؟!

سأله (نور) فى توتر :

ـ لمــاذا ؟!

أشاح (أيمن) بوجهه ، قائلاً فى عصبية :

ـ أتمنى هذا فحسب .

مرة أخرى ، تضاعف شعور (نـور) بـالمرارة ، وهو يتطلّع إليه فى صمت ، قبل أن يقول :

ـ أيوحى هذا بأنه ليس لدى خيار ؟

غمغم (أيمن) ، دون أن يتطلَّع إليه :

ـ تقريبًا .

لم يكن من الممكن أبدًا أن يتخيَّل (نـور) نفسـه فى مثل هذا الموقف .. لم يكن من السهل عليه أن يتقبله ..

ويهضمه ..

ويستوعبه ..

ولكن عقليته هدته إلى أن يسأل :

ـ وماذا سيصبح موقفنا ، فى حالة الموافقة ؟!

أدار (أيمن) عينيه إليه ، قائلاً :

ـ كما أخبرتك .. ستعودون إلى العمل .

سأله (نور) فورًا :

ـ بأية صفة ؟!

ارتبك (أيمن) ، وهو يقول :

ـ ماذا تعنى ؟!

سأله (نور) فى صرامة :

ـ إننا لا نملك الإفصاح عن وجودنا ، ولا يمكننا العمل بوجوه مكشوفة ، أو بهويات واضحة ، فكيف ستعود إلى العمل بالضبط ؟!

قال (أيمن) فى حماس :

ـ أنتم تمتلكون خبرات لا يمكن إهمالها يا (نور) .

قال فى حدة :

ـ خبرات تعود إلى ثلاثين عامًا مضت يا رجل .. خبرات وصفتموها بأنها تاريخية .. كل مهارات (سلوى) لن تساوى شيئًا فى هذا العصر ، الذى قد تتساوى علومها فيه مع علوم طالب فى مرحلته الثانوية ، وكل علوم (نشوى) ، وبرامج الكمبيوتر التى ابتكرتها ، قد لا تصلح حتى للعمل مع أجهزة الكمبيوتر فى هذا العصر ، وحتى دراسات (رمزى) النفسية ، ستبدو هنا أشبه بمقدمة كتاب عن الطب النفسى .. أما (أكرم) ، فأظنه لن يصلح ، بمسدسه التقليدى ، إلا للعرض فى متحف التاريخ الطبيعى لديكم .

قال (أيمن) فى سرعة :

ـ وماذا عنك يا (نور) ؟!

هتف فى مرارة :

ـ ماذا عنى ؟! إننى أقود فريقًا لم يعد له وجود إلا فى كتب التاريخ .. فريقًا لم يستعد وعيه بعد ، وأحد أفراده مجرد آلى شبه بشرى ، يذخر بطاقة قديمة ، لم يتعلم التعامل بها مع العالم الملوس حتى الآن .. نعم ماذا عنى ؟!

أجابه فى حزم :

ـ أنت تمتلك موهبة خاصة ، لا تتعارض مع التطوّر الزمنى يا (نور) .. موهبتك تكمن فى طبيعتك العقلية .. فى قدرتك على الاستنتاج والاستنباط ، والوصول إلى حلول مدهشة ، تعجز العقول عن مجرد التفكير فيها ، أو التطرُق إليها ، ثم إنك تمتلك روح القيادة ، وهى سمة تكفى لوضعك على رأس أى فريق ، فى أى زمن كان ..

هزَّ (نور) رأسه نفيًا ، وقال :

ـ خطأ يا صديقى .. خطأ .. حتى الاستنتاج والاستنباط يحتاجان إلى المعرفة ، فلا يمكننى استنتاج ما يتجاوز معارفى وعلومى ، ومما لا شك فيه ، أن العقود الثلاثة الماضية قد حملت من المعارف والعلوم ، ما يفوق إدراكنا ، وربما قدرتنا على الفهم أيضًا ، وهذا ما يبدو فى كل ما يحيط بى هنا .

صمت (أيمن) بضع لحظات ، قبل أن يقول :

ـ أنت على حق يا (نور) .. كل شىء يتطوَّر ، بأكثر مما يمكنكم استيعابه .

ثم ابتسم ، مضيفًا :

ـ وهذا ينطبق على نظم التعليم والتدريب أيضًا .

سأله (نور) ، مستعيدًا حذره :

ماذا تعنى بهذا ؟!

أجابه فى حسم :

ـ أعنى أن كل ما ذكرته ليس عائقًا يا (نور) ، فلدينا فى هذا العصر نظم تلقين وتدريب رقمية ، وتتعامل مع المخ البشرى مباشرة ، ويمكنها أن تنقل معارف قرن كامل إلى رأسك ، خلال أيام قليلة .. وهناك طرق أكثر سرعة ، تعتمد على زرع شريحة رقمية خاصة فى المخ ، تحوى ملايين الميجابايتات من المعلومات .. صدقنى يا صديقى .. كل ما ذكرته لن يمثل مشكلة ، فى عصرنا هذا .. (سلوى) و(نشوى) ستلحقان بكل ما فاتهما ، خلال العقود الثلاثة الماضية ، و(رمزى) سيدرس كل الحالات الجديدة ، التى لم يواكبها من قبل ، وأنت ستلحق بعلوم ومعارف العصر ، خلال أسبوع واحد ، أما (أكرم) ، فسرعان ما تدرك كم يحتاج عصرنا إلى مثله .

سأله (نور) متوترًا :

ـ وما دام الأمر بهذه البساطة ، فلماذا نحن ؟!

أجابه فى سرعة :

ـ لأنه لديكم ما لا يمكن زرعه أو تلقينه يا (نور) .. لديكم روح الفريق ، والقدرة على مواجهة المخاطر ، مهما تجاوزت حدود المعقول .

ثم وضع يده على كتفه ، مستطردًا :

ـ صدقنى يا (نور) .. لو لم يتقدَّم سيادة الرئيس بعرضه ، لاقترحت عليه تقديمه ؛ فأنا خير من يدرك قيمتكم ، فى كل زمان ومكان .

صمت (نور) بضع لحظات ، وهو يتطلَّع إليه ، قبل أن يقول ، وهو يشدّ قامته فى اعتداد :

ـ وهل وجودى فى هذه الزنزانة ، ذات الجدران الخفية ، وسيلة من وسائل التفاوض ، وفرض القرار ؟!

أطلق (أيمن) ضحكة قصيرة ، وقال :

ـ مطلقًا يا (نور) ، ولكنك هاجمت طاقم حراستنا ، وهذا يحتم احتجازك ، وفقًا للقانون ، حتى يتم استجوابك ، أو توجيه الاتهام إليك .

ثم تحرك جانبًا ، وأشار بيده ، مستطردًا :

ـ وهأنتذا حر فى الانصراف .

لم يكد ينطقها ، حتى اندفع أحد أفراد طاقم العلماء داخل المكان ، وهو يقول فى انفعال :

ـ سيِّدى القائد .. لقد فعلها .

التفت إليه الاثنان فى تساؤل ، فتابع لاهثًا :

ـ لقد بدأ تفاعله .

وكان هذا يعنى أن تجربة إعادة (محمود) قد اكتملت ..

ولا أحد يمكنه أن يتوقَّع كيف ستكون النتائج ..

لا أحد على الإطلاق .

★ ★ ★

8- ختــــام ..

كان المشهد مبهرًا بحق ..

كان مثيرًا ..

مذهلاً ..

خارقًا ..

وفى صمت مبهوت ، وقف (نور) يحدّق فى شبيه (محمود) ، وهو يجلس على طرف فراش بسيط ، وقد اتصلت عشرات الأسلاك والأنابيب والأجهزة بجسده شبه الآلى ..

كانت ملامحه باردة ، خاوية ..

ولكنه (محمود) ..

نفس (محمود) ، الذى عرفه قديمًا ، بجسده النحيل ، ومنظاره الطبى البسيط ..

(محمود) ، الذى لم يتخيّل رؤيته مرة ثانية ..

ليس فى هذا العالم ..

وفى حذر شديد ، اقترب (نور) من شبيه (محمود) نصف الآلى ، وغمغم :

- حمدًا لله على سلامتك يا صديقى .

وبحركة بطيئة ، شبيهة بحركة (س - 18) ، استدار إليه (محمود) ، دون أن ينبس ببنت شفة ، وظلت ملامحه جامدة باردة ، حتى تخيّل (نور) أنه سينطق بدوره تلك العبارة التقليدية :

- (س - 18) فى خدمتك يا سيّدى .

وفى توتر ، تراجع (نور) خطوة ، وهو يحدّق فى وجه شبيه (محمود) ، فقال الدكتور (راشد) فى حماس :

- سيستغرق الأمر بعض الوقت .. لقد بدأ يعتاد استخدام ذلك الجسم شبه الآلى منذ لحظات فحسب ، ولم يألف تحريكه بعد ، ولكن بعد أسبوع من التأقلم والتدريب ، لن يمكنك التفرقة بينه وبين بشرى عادى .

غمغم (نور) :

ـ وماذا عن الأعطال ؟!

زفر الدكتور (راشد) ، وقال :

ـ لا يمكننا أن ندعى أنها لن تحدث أيها المقدَّم ، فمهما تطوَّر العلم أو تقدَّم ، فلن يمكنه أن يحاكى خلية واحدة ، من صنع الخالق (عزَّ وجلَّ) ، وكل ما تراه أمامك مجرد صورة صناعية من زميلك ، ستعانى حتمًا من كل عيوب الصناعة والتقنية .

تطلَّع (نور) إلى شبيه (محمود) فى إشفاق ، وقال :

ـ هذا حتمى بالتأكيد ، ولقد اختبرته بنفسى مع (س ـ 18) ، الذى كنا نعتبره آليًا مثاليًا ، وعلى الرغم من هذا لم يكن بإمكانه أن يتفاعل ، أو يتخذ قرارات منفردة .

ثم هتف فى لهفة :

ـ وبالمناسبة ، ماذا كان مصيره ، خلال العقود الثلاثة الماضية ؟! وأين هو الآن ؟!

هزَّ الدكتور (راشد) رأسه ، وقال مشيحًا بوجهه ، وكأنما يحاول منع (نور) من رؤية انفعالاته ، أو كشف أغواره :

ـ لا أحد يدرى أين هو الآن .

كان من الواضح أنه يخفى شيئًا ما ، أو يحاول إخفاء شىء ما ، ولكن (نور) لم يحاول سؤاله عنه ؛ لثقته فى أنه لن يفصح عن الأمر أبدًا ؛ لذا فقد استدار مرة أخرى إلى شبيه (محمود) ، وقال :

ـ تُرى متى سيكون بإمكانه أن يكمل حديثه معى ، حول سر وجود (طارق) .

أتاه الجواب هذه المرة ، على لسان (طارق) نفسه ، الذى ظهر من خلفه ، قائلاً فى مرارة :

ـ أخشى أنه لن يكون فى إمكانه هذا أبدًا .

التفت إليه (نور) بحركة حادة ، قائلاً :

تنهَّد (طارق) فى مرارة ، وأشار إلى الدكتور (راشد) ، قائلاً :

ـ لأنه لم يحتفظ بذاكرة مرحلة الفراغ الزمنى .. وهم كانوا يعلمون هذا ، قبل حتى بدء التجربة .

استدار (نور) إلى الدكتور (راشد) فى غضب ، قائلاً :

ـ كنتم تعلمون ؟!

تراجع الدكتور (راشد) بحركة حادة مذعورة ، وهو يلوّح بيديه ، هاتفًا فى عصبية :

ـ كان هذا عرضًا جانبيًا حتميًا ، ولم يكن هناك بد من إجراء التجربة فى الوقت المناسب .. لن توقف مسار العلم ، من أجل شخص واحد .

وأشار إلى (طارق) ، مستطردًا فى هلع :

ـ ثم إنه مازال هنا ، وهذا يعنى أن وجوده لم يتأثر بما فعلناه .

كاد (نور) ينقض عليه ، وهو يقول فى غضب شديد :

ـ إذن فأنتم ..

استوقفه (طارق) فى توتر :

ـ رويدك يا جدى .. لقد عهدتك دومًا قويًا متماسكًا ، فلا تفقد هذا الآن .

أغمض (نور) عينيه بضع لحظات ، والتقط نفسًا عميقًا ، وقال ـ وإن لم يتلاش غضبه بعد ـ :

ـ لقد هدّدوا وجودك بالفناء ..

أجابه (طارق) :

ـ ولكنهم على حق .. مادمت هنا ، فهذا يعنى أن ما حدث ، حتى هذه اللحظة ، لا يهدّد وجودى .. وربما لن يتذكّر (محمود) شيئًا عنى ، عندما يستعيد قدرته على التأقلم مع هذا العالم ، ولكنه ذكر شيئًا ما بشأنى حتمًا .. شيئًا سيهضمه عقلك كالمعتاد ، وسيقودك إلى الحقيقة ذات يوم .

انعقد حاجبا (نور) ، وهو يقول :

ـ هذا صحيح يا (طارق) .. لقد ذكر شيئًا عن حمل (نشوى) بك ، عندما تم تجميدنا ، وعن شعب (جروندا) ، و(س ـ 18) ..

هتف (طارق) :

ـ رباه ! هل يمكن أن يعنى هذا أن ...

قاطعهما دخول أحد العلماء ، فى هذه اللحظة ، وهو يقول فـى انفعال جارف شديد :

ـ لقد بدءوا فى استعادة وعيهم .

دفع هذا الجميع إلـى العدو بكل حماسهم إلى قاعة الإفاقة ، حيث استقرت أجساد أفراد فريق (نور) ، فوق وسـادات هوائية خاصة ، وقال (طارق) فى حماس :

ـ جدى .. هل تعتقد أن ...

ضغط (نور) يده ؛ ليمنعه من الاستطراد ، وغـالب انفعالـه الشديد ، عندما سعل (أكرم) ، وهزَّ رأسه ، مغمغمًا :

ـ أين مسدسى ؟!

عندئذ رفع (نور) عينيه إلى السـاعة الرقمية على الجدار ، ورآها تشير إلى الحادية عشرة وست دقائق بالضبط ..

(محمود) كان على حق إذن ..

الفريق سيعود ..

و(محمود) نفسه عـاد ..

و(طارق) انضم إليهم ..

وبقى السؤال الأخطر ..

ماذا يخبئ لهم المستقبل ، فى كهفهم الزمنى الجديد ؟!

مـاذا ؟!

[تمت بحمد الله]

★ ★ ★

الكهف

- بقفزة إلى المستقبل ، غاب فريق (نور) كله فى غياهب الزمن ..
- غيبوبة عنيفة تكتنف عقول الجميع ، وخطر داهم يواجه المستقبل كله ..
- تُرى هل ينجو (نـور) وفريقـه ، أم ينتهى الموقف كله كما بدأ .. فى (الكهف) ؟!
- اقرأ التفاصيل المثيرة ، وقاتل مع (نور) وفريقه ،من أجل المستقبل .

د. نبيل فاروق

ملف المستقبل
سلسلة روايات بوليسية للشباب من الخيال العلمى

155

الثمن فى مصر 300
وما يعادله بالدولار الأمريكى
فى سائر الدول العربية والعالم

المؤسسة العربية الحديثة
للطبع والنشر والتوزيع بالقاهرة والإسكندرية